بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الإسلامية الموريتانية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة شنقيط العصرية
مسلك: الدراسات الإسلامية

شرف – إخاء – عدل

بحث لنيل شهادة الماستر تحت عنوان:

الإعجاز العلمي في القرآن بين المؤيدين والمخالفين

« دراسة تحليلية نقدية »

إعداد الطالب:
عمارة سعد شندول

إشراف:
د. محمد المختار ولد اباه

لجنة النقاش:

د. محمد ولد حمينه	رئيسا
د. محمد المختار ولد اباه	عضوا مشرفا
د. عبد الله ولد إسلم	عضوا
د. محمد ولد الراظي	عضوا

السنة الجامعية: 2015- 2016

رقم الإيداع: .....

الإهداء

- إلى روح من جعله الله على الباب الأوسط في الجنة مفتاحا
  وجعلني سبيلا لعمله لا ينقطع
  إلى روح أبي الذي كان حريصا أن يتعلم وحريصا أن أتعلم
- إلى من جعل الله جنتي تحت قدميها
  وأوصانا نبيه صلى الله عليه وسلم بها ثلاثا قبل كل أحد
- إلى رياحين حياتي.. من كان الوعد بالجنة لمن أحسن إليهن وأكرمهن
  إلى أخواتي
- إلى اخوتي
- إلى كل من ساعدني وشجعني وسُرَّ قلبُه لأجلي
- إلى كل من أحبهم في هذا العالم

أهدي هذا العمل.

شكر وتقدير

أحمد الله تعالى، وهو المنعم والمتفضل قبل كل شيء.

وأشكره أن يسر لي طريقا ألتمس فيه علما، وهيأ لي من سهل التحاقي بجامعة شنقيط العصرية لاستكمال درجة الماستر في العلوم الإسلامية، وهو الأخ الحبيب الباحث في التفسير وأصوله والقراءات وتأصيلها الشيخ الحسن محمد ماديك. فله مني جزيل الشكر والعرفان.

ثم أجزي الشكر فائقه والثناء أجله والتقدير أعظمه إلى أساتذتي:

- الشيخ الدكتور محمد المختار ولد اباه
- والشيخ الدكتور عبد الله ولد إسلم

لتوليهما الإشراف على رسالتي. وحسن رعايتهما لهذا العمل نصحا وإرشادا ومساعدة، ما كان له أكبر الأثر في انجاز هذه الرسالة.

وأشكر شكرا غير منقطع، الأساتذة:

- الدكتور محمد ولد حمينه

- والدكتور محمد ولد الراظي

على تفضلهم بمناقشة هذه الرسالة.

والشكر الموفور للدكتور محمد عبد الرحمن بن أحمده، والدكتور محمد ولد سيدي المختار، والدكتور محمد ولد المصطفى، والدكتور محمد المصطفى ولد سيد أحمد، والأخ محمد علي، عما لقيته منهم من كريم الخلق وحسن الأستقبال.

وأتقدم بالشكر أيضا، للأستاذ عبد الله ابراهيم جلغوم، والشيخ سعيد أبو سعد الغامدي، والدكتور المهندس خالد فائق العبيدي، لما قدموه لي من جميل الدعم، وحسن النقد والتوجيه.

ولكل من أظهر صبرا أو دعما حتى تخرج هذه الدراسة في أحسن صورة.

المقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما يحب ربنا ويرضى..

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.. شهادةً هي شعار ولواء ودثار أهل التقوى..

وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وقدوتنا محمدا عبد الله ورسوله.. آخر الأنبياء في الدنيا عصرا.. وأجلهم يوم القيامة شأنا وذكرا..

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.. وعلى سائر من اهتدى بهديه واستن بسنته واقتفى أثره بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فقد تعددت الدراسات الأكاديمية والبحوث العلمية والموسوعات المتخصصة بموضوع الإعجاز في القرآن الكريم في العصر الحاضر وقد تباينت تلك الجهود العلمية في عرضها واختياراتها واختلفت نتائجها وذلك بسبب اختلاف المناهج البحثية التي سلكها المؤلفون في هذا الفن واعتمدوها.

وما من شك أن دراسة قضية الإعجاز وتحقيق أقوال العلماء فيها من أهم الأمور التي ينبغي معرفتها لدارسي العلوم الشرعية عامة، والمتصدرين طريق الدعوة إلى الله تعالى، إذ هي من أكثر المصادر مثارا.

لأجل هذا اخترت أن يكون عنوان بحثي لنيل درجة الماجستير، من قسم العلوم الإسلامية بجامعة شنقيط العصرية : **الإعجاز العلمي في القرآن بين المؤيدين والمخالفين: دراسة تحليلية نقدية.**

أسباب اختيار الموضوع

إن الانتقال العلمي الفجائي الذي شهده العالم في القرون الأخيرة، والذي أصاب الأمة الإسلامية بالذهول، والإنسانية عموما بالانسياق خلف مذاهب الإلحاد وإنكار ذات الله، شكك كثيرا من أفرادها في إيمانهم، ما تسبب في انتكاس العديد من أهل الإيمان وابتعادهم عن منهج القرآن بصورة أشد خطرا، حتى أضحى ارتباطهم بالقرآن والإسلام ارتباطا لفظيا وراثيا، كارتباطه بالقبيلة أو ما شابه من الأمور التي يرثها البشر عن أسلافهم من أمور الدنيا. وغدا الإسلام اسما محفورا في قلوب الغالبية العظمى من المسلمين غير أنهم لا يعيشونه واقعا.

إلا أن هذا الضعف الإيماني الذي أصاب الأمة المسلمة في شبابها خاصة تبين أن سببه هو البعد عن نهج الوحي وسبيل النبوة، فلما شرح الله صدور كثير منهم بالعلم ظهر ما أراد أهل الإلحاد إخفاءه من قوة برهان القرآن وصدقه وشموله، واستبان منه وفيه ما هو أعمق وأدق مما توصلت إليه أفهام الناس. وأن لولا هذا القرآن ما بلغ الإنسان من العلم ذلك المبلغ. وبدأت صحوة المسلمين في الظهور من جديد. لكنها تظل رهينة صدق عملهم وإخلاصهم لله تعالى في ذلك.

والبيِّن للناس، أن الله تعالى لما أنزل كتابه على نبيه، بدأ وحيه أمرا لنبيه: اقرأ.. اقرأ.. فجاء الأمر مرتين، ولو جاء مرة واحدة لكان الأمر من عند جلال الله تعالى كافيا. فلما كرر الأمر عُلِم منه شيء أوجب من الواجب. ثم ذكر في التنزيل أمرا ثانيا، وهو القيام بهذا الدين فقال: يا أيها المزمل قم.. يا أيها المدثر قم.. فتبين من ذلك أنه ما من سبيل أجدر أن يسلكه المسلم بعد تنفيذ أمر القراءة من أن يقوم فيطهر نفسه ثم يقوم فيبلغ الناس رسالة الله. فلما كان أمر الدعوة إلى الله واجبا محتما، عينا بأن يظهر الإسلام في أخلاق الناس ومظاهرهم، وكفاية بأن يتكلم فيه من تعلمه إبلاغا لآيات الله وإتباعا لسبيل نبيه صلى الله عليه وسلم، كان الواجب تحسس كل سبيل يمكن أن يقدم النفع للبشرية. ولما تفاوتت البشرية علما وتفكيرا واختلفت اتجاهاتها استوجب ذلك سلوك كل اتجاه لإبلاغ رسالة الله ومحاصرة من قال: لأقعدن لهم صراطك المستقيم.. في كل ثنايا هذه الصراط المستقيم، حتى لا تبقى ثغرة يمكن له أن ينفذ منها ليحول بين القرآن وأهله أو بين أهل القرآن وعموم الناس إلا وجدت من يصده. ولما كانت مشارب الناس واتجاهاتهم متعلقة بما حصلوه من العلوم طبيعية كانت أو اجتماعية أو صحيحة، تبين أن الأولى تحقيق تلك المشارب والاتجاهات بمنظار القرآن، إما إظهارا لتحققها فيه أو لدعوته إليها.

وفي ظل تهافت كثير ممن يعوزهم العلم بالقرآن والسنة على مواضيع الإعجاز العلمي تطفلا، ومع صدق نيات البعض وإخلاصهم فإنه لا يخفى أن كثيرا منهم يريد من خلال إبحاره في مواضيع الإعجاز العلمي الظهور بصورة العالم الذي فقه كنه الخلق ونواميسه. كما يصدق الأمر بالنسبة لكثير ممن لا صلة لهم بالعلوم الصحيحة ولا يتجاوز علمهم المستوى اللغوي للكتاب فيتكلمون بلسان العلميين، ولا غرو أن تظهر إخفاقاتهم وأخطاؤهم، فهم كما قال القائل: من تكلم في غير فنه نطق بالأعاجيب.

ومعلوم أن دراسة القرآن توجب تدبره، ولابد للمتدبر من أن يأخذ ما به يمتلك ناصية البحث، ومنها إضافة إلى اللغة والأصول، العلوم المتعلقة بالطبيعة والعقل، تجريبية كانت أو صحيحة. إذ تبين أن بعض ألفاظ القرآن تحمل بواطن علمية لا تخفى على متمرس، واستوجب ذلك التمكن مما هو أكبر من اللغة الموسومة بالحروف وأصول الكلم لفهمها. واستوجب على المسلم العالم بقوانين الطبيعة أن يستعمل علمه لتجلية الحقائق الكثيرة التي تحملها ألفاظ القرآن أو تختبئ في سياق الجملة فيه.

إن الكلام بتجلية العلوم المبثوثة في آي القرآن يعتبر من أنجع سبل الدعوة إلى الله ووسائلها لافتتان الناس بما يسمونه تقدما علميا، وإظهار أن هذا التقدم العلمي ماهو إلا الحركة والتعقل والتفكر التي أمر الله بها عباده وابتدر إليها المسلمون فدفعوا عجلتها، وأنه بقوة الدفع مازال نرى سيرها إلى الآن.

ثم إنه لا يخفى أن يصور أعداء الله تعالى القرآن بكتاب الدعوة إلى القتل ويصمون المسلمين بالإرهاب، ولا يخفى ضلال كثير من الفرق التي تحمل اسم الإسلام ومحاولة الظهور بالصورة السيئة التي يريد أعداء الله بثها ونشرها في الناس. فكان لزاما إظهار صورة الكتاب الذي هو هدى للناس.. هدى في سير الأخلاق وتسيير المجتمع، هدى في نظافة القلوب وتطهير السرائر... وهو كذلك هدى في بناء المنهج العلمي الصحيح وتصريف العلوم بصورة تخدم الإنسان وتحقق خلافته في الأرض التي أُنزِل امتحانا له لتحقيقها.

إضافة إلى ذلك كله، فإن دراسة موضوع الإعجاز في القرآن تتيح لنا الاطلاع على جانب كبير من علوم القرآن، وتفتح لنا الباب واسعا للوقوف على أكثر التفاسير ومعرفة مناهجها، وتيسر لنا الطريق لمعرفة اجتهادات المفسرين حسب مدارسهم حول معاني ألفاظ القرآن وآياته.

أهمية البحث

وتظهر أهمية البحث في محاولة إجابتنا، أو على الأقل، إثارة الأسئلة القائمة على أسباب اختياره، وتتجلى في الآتي:

1- معرفة المناهج البحثية المستخدمة في إثبات الإعجاز في القرآن وذلك لتتم الإشادة بالمناهج العلمية السليمة التي تتوافق مع مسائل هذا العلم والتحذير من المناهج الخاطئة المبنية على الانتقاء والاختيار دون مستند علمي.
2- بيان بعض أخطاء المتكلمين في الإعجاز في القرآن والتنويه إلى أن سببه تطبيق مناهج غير صحيحة وإغفال للمناهج المصيبة، أو قلة علم بصاحبها.
3- التنبه إلى ضرورة معرفة الباحث في إعجاز القرآن بأقوال المفسرين في الصدر الأول اعتبارا لكون اجتهاداتهم مشعل هداية لمن رام تدبر القرآن، وعدم التعالي على أقوالهم بالتذرع بوفرة العلم في هذا الزمان، فإنه وإن أضحى العلم على وفرة فالعقول ليست كالسابقة، شغلتها الدنيا والأهواء وذهب نورها، فظهر عليها التبلد والتسرع ليست كتلك التي في الصدر الأول يغلب عليها الحلم والأناة والطمأنينة وعدم التوتر.

أهداف البحث

ونهدف من خلال بحثنا إلى:

1- حصر أكثر مناهج البحث العلمية المستخدمة في كتب الإعجاز في القرآن وبحوثه مع بيان من أخذ بها من المؤلفين.
2- التمثيل لمناهج البحث المستخدمة في كتب الإعجاز في القرآن وبحوثه.
3- نقد المناهج البحثية المستخدمة في كتب الإعجاز في القرآن، وبيان مدى مناسبتها لضروبه.
4- بيان امتداد بينة رسالة الإسلام.
5- تحفيز المسلمين ودفعهم للاكتشاف بدافع إيماني، ودفعهم للمبادرة بأخذ الزاد العلمي من منطلق تعبدهم لله تعالى.
6- بيان التوافق الدقيق بين ما في الكتاب والسنة, وما اكتشفه علماء الكون من حقائق وأسرار كونية لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القران.

الدراسات السابقة

اشتغل حول قضية الإعجاز كثير من الباحثين، ولم أر أحدا جمع بين قضايا الإعجاز بعامة في كتاب[1]. فكل ما اطلعت عليه من كتب ألفت في قضية الإعجاز تأخذ الموضوع من طرف معين وتحلله من جهة معينة. وقد حاولت جمع كل ما يثار حوله في هذه الرسالة، وإن كان تحديدها بعدد معين من الصفحات، يجعلني أقدم بعض جوانبها ملخصا للملخص، والله أسأل العون والقبول.

منهج البحث

أما منهجي في البحث فسيعتمد أساسا، إن شاء الله تعالى:

1- اعتمدت المنهج الاستقرائي المقارن وعمدت إلى التحليل والتمثيل والمناقشة للخروج برؤية كلية عن البحث.
2- عزو الكلام لقائليه ومن كتبهم المعتمدة وعدم نقل قول لأحد من كتاب غيره.

[1] لابد من الإشارة هنا إلى وجود بحوث وكتب كثيرة تكلمت في تأصيل الإعجاز، ولكنها إما أخذت موضوع الإعجاز عموما، من حيث تعريفه، وتأصيله، وتأريخه، كما في كتاب: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، للأستاذ نعيم الحمصي، حيث تتبع الدراسات والمؤلفات في إعجاز القرآن الكريم منذ بدايتها حتى عصره الذي هو فيه. وقد عرض فيه الآراء عرضا تاريخياً، وحرص أن يكون حيادياً لا ثناء فيه على ما يستحسنه، ولا ذم لما لا يرتضيه، وناقش الأقوال التي عرضها، واختصر تلك المؤلفات في أبرز ما جاء فيها من مسائل. أو من حيث أهميته، وفقهه، وشروطه، والرد على بعض المؤامرات التي حيكت حول القرآن الكريم، دون الخوض في التفاصيل العلمية وغيرها عدا تقديم بعض الأمثلة. كما هو كتاب، القرآن منهل العلوم (ط/١ صدر في بغداد عن الجامعة الإسلامية عام ٢٠٠١م، وفي طبعته الدولية عن دار الكتب العلمية ببيروت. كذلك تجده في كتابي (المنظار الهندسي للقرآن الكريم- الباب الاول).

3- عزو الآيات الكريمة، وتخريج الأحاديث النبوية.

4- ترجمة الأعلام الوارد ذكرهم في الرسالة عند وروده أول مرة.

5- وضع خاتمة تتضمن أهم نتائج البحث.

6- ختم الرسالة بثبت للمراجع وفهرس للموضوعات.

خطة البحث

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمة:

المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والأهداف المرجو تحقيقها منه، وخطة البحث، ومنهجي فيه، وذكر أهم مصادره ومراجعه.

التمهيد: ويشمل ستة مباحث:

الأول: في معنى المعجزة

الثاني: الآية

الثالث: البرهان

الرابع: الدليل

الخامس: الحجة

السادس: السلطان

الباب الأول: في نشأة مصطلح إعجاز القرآن أو معجزة القرآن: وفيه فصلان اثنان:

الفصل الأول: تاريخ فكرة إعجاز القرآن

الفصل الثاني: هل الإعجاز وسيلة لمعرفة الحق ؟

الباب الثاني: إنكار الإعجاز: وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: وصف القرآن

الفصل الثاني: معنى المعارضة

الفصل الثالث: المعارضون

الفصل الرابع: المتهمون بالمعارضة

الفصل الخامس: القول بالصرفة

الباب الثاني: في أسماء القرآن وأوصافه: وفيه أربعة فصول:

الفصل لأول: في علاقة القرآن باللغة

الفصل الثاني: في علاقة القرآن بالعلم

الفصل الثالث: هل القرآن كتاب علم ؟

الفصل الرابع: تاريخ الأنبياء وتاريخ العلم

الباب الثالث: في تحدي القرآن: وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: وجوه التحدي في القرآن

الفصل الثاني: وجوه التحدي بالقرآن

الفصل الثالث: من هم الذين تحداهم القرآن ؟

الفصل الرابع: تعقيب حول مسألة التحدي.

الباب الرابع: في إعجاز القرآن: وفيه فصلان اثنان:

الفصل الأول: في السؤال، لماذا لم يكتشف المسلمون ما بث في القرآن من دقيق العلم ؟

الفصل الثاني: في التوجيه العلمي للقرآن،

الباب الخامس: أمثلة من إعجاز القرآن والسنة: ويتضمن فصلين اثنين:

الفصل الأول: في إظهار التوافق الدقيق بين ما في القرآن والحقائق العلمية اليقينية.

الفصل الثاني: في تثوير القرآن واستنباط مسائل منه.

وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع، وفهرست.

التمهيد

لعل من المفيد منهجيا أن نبدأ هذه الدراسة بمدخل لغوي يلقي ضوءا مناسبا على أهم مصطلح يتردد ذكره في هذا العمل، وهو مصطلح المعجزة، وما يتفرع منه أو ما يتصل به كالآية والحجة والسلطان والبرهان والبيان والدليل.

في معنى المعجزة:

والمعجزة لغة، اسم فاعل من الفعل أعجز، ومصدره الإعجاز[1].

ومعنى العجز لغة: الضَّعْف وأصله في اللغة التأخر عن الشيء، وهو نقيض القدرة. ويقال: أعجزه الشيء: فاته وقصر عن فعله. وأعجزت فلاناً وعجّزته: جعلته عاجزاً، واسم الفاعل منه معجز، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [2]. والعجز الضعف[3]، وعاجزته: أردت تعجيزه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ [4]، معناه ظانين أنهم يعجزوننا، لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون، وأنه لا جنة ولا نار.

فالعجز إذن، هو الضعف والوهن، وهو عدم القدرة، وهو اليأس:

فهو بالمعنى الأول، أي الضعف والوهن، ومعناه أيضا ضد النشاط والحذق بالأمور والكيس، فدليله ما نقله مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا. ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح باب الشيطان[5].

---

[1] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، الجزء 6، ص97-98.

[2] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 22.

[3] مختار الصحاح، زين الدين الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م, ص413.

[4] سورة الحج، السورة 22، الآية 51.

[5] رواه مسلم، رقم الحديث 2052.

وما نقل الترمذي، عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[1].

وهو بالمعنى الثاني، أي عدم القدرة، فدليله ما نقله ابن أبي شيبة في كتاب الأدب، عن أبي بكر قال حدثنا ابن عياش عن عاصم عن أبي العدبس قال، سمعت عمر يقول: أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم، وانتضلوا وتمعددوا واخشوشنوا واجعلوا الرأس رأسين، وفرقوا عن المنية، ولا تلثوا بدار معجزة، وأخيفوا الحيات من قبل أن تخيفكم وأصلحوا مثاويكم[2].

يقول أبو تمام في النظر إلى المحبوب :

إذا ما انتضى سيف الملاحة طرفه *** ونادى قلوب القوم هل من مبارز

عجزت فألقى السلم قلبي لطرفه *** على أنه عن غيره غير عاجز

ويقول بهاء الدين زهير في المعاتبة :

أأحبابنا بالله كيف تغيرت *** خلائق غر فيكم وغرائز

لقد ساءني العتب الذي جاء منكم وإني عنه لو علمتم لعاجز

لكم عذركم أنتم سمعتم فقلتم ومحتمل ما قد سمعتم وجائز

---

[1] إسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، وباقي رجال الإسناد ثقات. علي بن إسحاق: هو المروزي، وضمرة بن حبيب: هو ابن صُهيب الزُّبَيدي أبو عتبة الحمصي. وهو عند ابن المبارك في الزهد (171) ، ومن طريقه أخرجه الطيالسي (1112)، والترمذي (2459)، والطبراني في الكبير (7143)، وفي مسند الشاميين (1485)، والحاكم 57/1 و251/4، وأبو نعيم في الحلية 267/1 و174/8، والقضاعي في مسند الشهاب (185)، والبيهقي في السنن 369/3، وفي الشعب (10546)، والخطيب في التاريخ 50/12، والبغوي في شرح السنة (4116)، وفي التفسير 305/2. قال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الحاكم في الموضعين، فتعقبه الذهبي في الموضع الأول بقوله: لا والله، أبو بكر واه، ولم يتعقبه في الموضع الثاني.
وأخرجه الترمذي (2459)، وابن ماجه (4260)، والبيهقي في الآداب (991)، والبغوي في شرح السنة (4117) من طرق عن أبي بكر بن أبي مريم، به. وأخرجه الطبراني في الكبير (7141)، وفي الصغير (863)، وفي مسند الشاميين (463) من طريق عمرو بن بكر السكسكي، عن ثور بن يزيد وغالب بن عبد الله، عن مكحول، عن ابن غَنْم، عن شداد، به. وعمرو بن بكر السكسكي متروك اهـ. فالحديث في إسناده نظر، ومعناه صحيح .

[2] أخرجه أبو بكر ابن أبي شيبة في المصنف في الأدب (23-9: 6379)، عن ابن عياش عن عاصم عن أبي العديّس، قال: سمعت عمر يقول فذكره. في هذا الأثر أبو العديس الأكبر روى عن عمر، قال ابن حجر: مقبول، والموقو أحسن حالا من المرفوع.

وهو بالمعنى الثالث، اليأس أوالتسويف، ودليله ما نقله مسلم في صحيحه، عن عبد الأعلى بن حماد. قال: قرأت على مالك بن أنس. وحدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك، فيما قرئ عليه، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس، أنه قال: أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: كل شيء بقدر. قال وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل شيء بقدر. حتى العجز والكيس. أو الكيس والعجز. قيل: أَراد بالعَجْز ترك ما يُحبُّ فعله بالتَّسويف وهو عامّ في أُمور الدنيا والدين.

ويكون بمعنى الظن الكاذب، كما في قول الخنساء تفتخر بقومها :

جززنا نواصي فرسانها *** وكانوا يظنون أن لا تُجَزَّا

فمن ظن ممن يلاقي الحروب *** بأن لن يصاب فقد ظن عجزا

نعف ونعرف حق القرى *** ونتخذ الحمد ذخرا وكنزا

ويكون بمعنى الآخر، كما قال أَبو خِراش يصف عُقاباً:

بَهِيماً ، غيرَ أَنَّ العَجْزَ منها *** يَخالُ سَرَاتَه لَبَناً حَلِيبا

وأَعْجاز الأُمور: أَواخِرُها. وعَجْزُ الشيء وعِجْزُه وعُجْزُه وعَجُزُه وعَجِزُه: آخره، يذكر ويؤنث. قال رجل من ربيعة بن مالك: إن الحق بِقَبَلٍ، فمن تعدّاه ظلَم، ومن قَصَّر عنه عَجَزَ، ومن انتهى إِليه اكتفى، قال: لا أَقول عَجِزَ إِلاَّ من العَجِيزَة، ومن العَجْز عَجَز. وقوله بِقَبَلٍ أَي واضحٌ لك حيث تراه، وهو مثل قولهم إِن الحق عاري[1].

وأَعْجَزَه الشيءُ: عَجَزَ عنه. والتَّعْجِيزُ: التَّثْبِيط، وكذلك إِذا نسبته إِلى العَجْز. وعَجَّزَ الرجلُ وعاجَزَ: ذهب فلم يُوصَل إِليه[2].

قال أَبو جُنْدب الهذلي:

جعلتُ عُزَانَ خَلْفَهُم دَلِيلاً *** وفاتُوا في الحجازِ ليُعْجِزُوني

[1] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، الجزء 10، ص 44.

[2] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، الجزء 10، ص43.

والمِعْجِزَةُ والمِعْجَزَة : العَجْزُ. قال سيبويه : هو المِعْجِزُ والمِعْجَزُ، بالكسر على النادر والفتح على القياس لأنه مصدر. والعَجْزُ: الضعف، تقول: عَجَزْتُ عن كذا أَعْجِز. والمِعْجِزَةُ، بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العَجْز: عدم القدرة.

والمُعْجِزَةُ : واحدة مُعْجِزات الأَنبياء، عليهم السلام. ومعناها الأمر الخارق للعادة، الذي لا يستطيعه البشر. ويفوق طاقة المخلوق، و لا يمكن أن يأتيه إلا الله وحده. وقد يجريها على يد نبيه ليشهد له في نبوته و رسالته، فتكون دليلا على صدقه وبرهانا. فكأنها بمثابة قول الله تعالى للبشر : هذا الشخص هو رسول من قبلي صادق فاتبعوه، وأطيعوا أمره ولا تعصوه.. وفي ذلك أمور :

ـ رجل يقوم بين الناس يدعي انه نبي ، أو يدعي أنه رسول ، فيقول : أيها الناس.. أنا رسول الله، أرسلني الله إليكم.

ـ سيصدقه أناس ويؤمنون به ، ويكذبه آخرون.

ـ أما المكذبون فيطالبونه بدليل وبرهان على صدق دعواه.

ـ فيطلب من الله الآية والدليل والبرهان ، فإن كان صادقا أيده الله بمعجزة خارجة عن قدرة البشر، خارقة للعادة، لا تحتمل التكذيب، فيصدقه قوم ويؤمنون به، ويكذبه آخرون.

ـ فأما هؤلاء المكذبون بعد حصول المعجزة فهم الجاحدون ، والجاحد هو الذي يعلم الحق بقلبه ولكنه يصر على تكذيبه بلسانه، وعدم الانقياد له عملا، كما قال تعالى مخاطبا رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [1].

و المعجزة على ضربين : ضرب من نوع قدرة البشر وضرب خارج عن قدرتهم.

أما المثال على الضرب الأول، فمنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [2].

وأما المثال على الضرب الثاني، فمنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [3].

---

[1] سورة النمل، السورة 27، الآية 14.
[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 94.
[3] سورة الملك، السورة 67، الآية 30.

والمعجزة دليل صدق النبي، يقول الإمام الجويني: لا دليل على صدق النبي غير المعجزة، فإن قيل: هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة ؟ قلنا: ذلك غير ممكن.. فإن ما يُقَدَّرُ دليلاً على الصدق لا يخلو إمَّا أن يكون معتادًا، وإمَّا أن يكون خارقًا للعادة، فإن كان معتادًا يستوي فيه البَرُّ والفاجر، فيستحيل كونه دليلاً، وإن كان خارقًا للعادة يجوز تقدير وجوده ابتداءً من فعل الله تعالى، فإذا لم يكن بُدٌّ من تعلُّقه بالدعوى، فهو المعجزة بعينها[1].

وقد وردت مشتقات مادة "ع..ج..ز" في ستة وعشرين موضعا في كتاب الله تعالى[2]، نذكرها تباعا:

أَعَجَزْتُ:

قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [3]. أي: أضعفت أن أستر جثة أخي [4].

قلت: وهذا أول من تبرأ من العجز من بني آدم، والبراءة من العجز تفيد ولابد استنقاص العاجز لنفسه. ثم إنه بين عجزه من حيث ظهر له التفوق، إذ أنه تعلم ممن دونه، بل من حيوان. وتعلمه من الحيوان يعلم به أمران:

الأول توهمه التفوق في نفسه حتى توهم أنه لا يعجز، فقال: أعجزت أن أكون..

والثاني: تحقق العجز فيه، من حيث أنه لم يفقه كيف يفعل بجريمته حتى جاء غراب فدله على ذلك[5].

---

[1] الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، إمام الحرمين الجويني، تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، طبع بمطبعة السعادة – مصر – 1369 هـ – 1950م، ص 331.

[2] المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرءان الكريم ، للأستاذ عبدالله إبراهيم جلغوم، الصادر عن مركز تفسير للدراسات القرءانية –الرياض– السعودية، الطبعة الأولى 1436 هـ 2015 م. الجزء 2، ص745.

ويقع المعجم في مجلدين من الحجم الكبير، ويعتبر أدق وأوفى معجم لألفاظ القرءان، إذ اشتمل على 77432 لفظة، بما في ذلك الأدوات. ومما يميز المعجم نسخ الآيات فيه من مصحف المدينة النبوية، أي كما هي في رسم المصحف، إضافة إلى إحصاءات وجداول كثيرة، وإثبات جذور الألفاظ الواردة في كل صفحة في رأس الصفحة، إضافة إلى الطباعة الفاخرة الملونة، والتنسيق الجميل. وقد استعنت به في أغلب إحصاءاتي في هذه الرسالة. والله أسأل لي ولصاحبه الهدى والثبات على الحق.

3 سورة المائدة، السورة 5، الآية 31.

4 صفوة التفاسير ، الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع– القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م، ص 339.

5 والحق أن هذه الآية ومثيلاتها في القرآن، تدل على بيان ضرورة التعلم والاعتبار بكل ما يحيط بنا، حتى من الحيوان. ثم إنها تنص على العلاقة التي يجب أن تكون للإنسان مع بقية الكائنات، فكان أول هذه العلاقة: التعلم منها، والثاني: الإحسان إليها، كما هو قوله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه البخاري: بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا

نُعجِزَ – نُعْجِزَهُ:

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾[1]،

والعجز طريق إلى الهروب أو الانقياد.

لِيُعْجِزَهُ:

فشرب منها، ثم خَرَج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خُفّه ثم أمسكه بفيه ثم رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله: وإنّ لنا في البهائم أجرا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر. والثالث: السخط على من آذاها ظلما، كما هو قوله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الشيخان: عُذبت امرأة في هرّة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها ولا سقتها، إذ حبستها، ولا هى تركتها تأكل من خُشاش الأرض. والرابع: حسن استعمالها: ومنه حديث مرور رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه من شدّة ضعفه وهزاله، فقال: اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة، وفي رواية: اركبوها صحاحا، وكلوها سمانا. وقوله الله صلى الله عليه وسلم فيما روى أبو داود: بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنّا لم نُخلق لهذا، بل خُلقنا للحرث. ومنه ما روى أبو داود وأحمد عن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه أنه قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم، فأسرّ إليّ حديثا لا أحدّث به أحدا من الناس، وكان أحبّ ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته: هدف أو حائش النخل، فدخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا جمَل، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ص فمسح سراته إلى سنامه وذفراه، فسكن، فقال: من ربّ هذا الجمل؟، فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها؟! فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه. والخامس: عدم اذيتها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله تعالى إنما سخّرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجاتكم. والسادس: النهي عن قتل بعضها، من ذلك ما أخرجه أبو داود وابن ماجه والدارمي، ورواه ابن عباس رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم: نهى عن قتل أربع من الدواب: النمل، والنحلة، والهدهد، والصّرد. والسابع: الأمر بقتل بعضها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع كلهن يقتلن في الحلّ والحَرَم: الحدأة، والغراب، والفأرة، والكلب العقور، أخرجه البخاري ومسلم. والثامن: تحريم اتخاذها غرضا: ومنه ما روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله قال: لا تتخذوا شيئا فيه روح غرضا. والتاسع: الأجر عما طعم منها، كما هو قوله صلى الله عليه وسلم، فيما روى مسلم: ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلاّ كان له به صدقة.

ثم لا يعدم أحد أن يسأل: لماذا أختاره سبحانه وتعالى من دون المخلوقات ليكون المعلم الأول للأنسان ؟

فقد أثبتت الدراسات العلمية أن الغراب هو أذكى الطيور وأمكرها على الإطلاق، ويعلل ذلك بأن الغراب يملك أكبر حجم لنصفي دماغ بالنسبة إلى حجم الجسم في كل الطيور المعروفة. ومن بين المعلومات التي أثبتتها دراسات سلوك عالم الحيوان محاكم الغربان وفيها تحاكم الجماعة أي فرد يخرج على نظامها حسب قوانين العدالة الفطرية التي وضعها الله سبحانه وتعالى لها ولكل جريمة عند جماعة الغربان عقوبتها الخاصة بها.

[1] سورة الجن، السورة 72، الآية 12.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [1]. أي: ما كان ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء كائناً ما كان فيهما[2].

لَا يُعْجِزُونَ:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [3].

عَجُوزٌ:

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [4].

قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [5].

عَجُوزًا:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [6].

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [7].

أَعْجَازُ:

قال تعالى: ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [8].

قال تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [9].

مُعَاجِزِينَ [1]:

---

[1] سورة فاطر، السورة 35، الآية 44.

2 فتح القدير ، للشوكاني 356/4 .

[3] سورة الأنفال، السورة 8، الآية 59.

[4] سورة هود، سورة 11، الآية 72.

[5] سرة الذاريات، سورة 51، الآية 29.

[6] سورة الشعراء، سورة 26، الآية 171.

[7] سور الصافات، سورة 37، الآية 135.

[8] سورة القمر، سورة 54، الآية 20.

[9] سورة الحاقة، سورة 69، الآية 7.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [2]،

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [3]،

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [4]،

معاجزين، أي: ظانين ومقدرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم ، قاله الزجاج[5]، فلما التبس عليهم الأمر سعوا معاجزين في آيات الله، وما زادهم من الحق إلا بعدا وعليه إلا تكبرا[6].

بِمُعْجِزٍ:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [7]،

وأعجز العجز عجز النفس عن توحيد خالقها من بعد ما تبين لها[8].

مُعْجِزِي [9]:

قال تعالى: ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [1]،

---

[1] قال الزجاج: معناه ظانّين أنهم يُعْجِزُوننا لأنهم ظنوا أنهم لا يُبعثون وأنه لا جنة ولا نار، وقيل في التفسير: مُعاجزين معاندين وهو راجع إلى الأوّل، وقرئت مُعَجِّزين، وتأْويلها أنهم يُعَجِّزُون من اتبع النبي، صلى الله عليه وسلم، ويُثَبِّطُونهم عنه وعن الإيمان بالآيات وقد أَعْجَزهم.

[2] سورة الحج، السورة 22، الآية 51.

[3] سورة سبأ، السورة 34، الآية 5.

[4] سورة سبأ، السورة 34، الآية 38.

[5] فتح القدير ، للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة 1، 1414هـ، الجزء 3، ص 460.

[6] قال ابن عرفة في قوله تعالى مُعاجِزِينَ أَي يُعاجِزُون الأَنبياءَ وأَولياءَ الله أَي يقاتلونهم ويُمانِعُونهم ليُصَيِّروهم إِلى العَجْزِ عن أَمر الله، وليس يَعْجِزُ اللهَ، جل ثناؤه، خلقٌ في السماء ولا في الأَرض ولا مَلْجَأَ منه إِلا إِليه.

[7] سورة الأحقاف، السورة 46، الآية 32.

[8] و لعل النفس الانسانيه اذا استغرقها العجز عن ادراك كمال العجز، فقد صارت مدركه للعجز من طريق المعرفه لا من طريق المقدمات. وقديما قيل: العجز عن درك الادراك ادراك، و قيل من عرف الله كل لسانه، و الله تعالى محيط بالعقل، وفوق العقل، فكيف يتصور ان يحيط العقل به، وبصفاته واحاطه الجزء بالكل فى غايه البعد، ومن قصر فهمه عن ادراك هذا العجز فهو لقلة استعداده لادراك عجزه وليس لقصوره مستند الا غروره وعجبه. ولو نظر المرء لتبين له أن من يعجز عن صفات ذى الهيئه والأدوات، فهو عن صفات خالقه اعجز، ويبقى فى الاعتراف بالعجز عن ادراك هذه المعانى تفاوت عظيم.

[9] تعلق إدراك العجز بالعلم، وهو قوله تعالى: واعلموا أنكم غير معجزي الله.. فاعلموا أنكم غير معجزي الله. وهذا من أشد ضروب العجز أن يتعلم المرء ليتقوى بعلمه على الأشياء فإذا علمه الذي أراد به التقوي يجده دلالة على عجزه.

وقال تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [2].

مُعْجِزِينَ:

قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [3]،

وقال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [4].[5].

بِمُعْجِزِينَ:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [6]، أي: بفائتين، يعني: يدرككم الموت حيث ما كنتم[7].

وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [1]،

---

[1] سورة التوبة، السورة 9، الآية 2

[2] سورة التوبة، السورة9، الآية 3.

[3] سورة هود، السورة 11، الآية 20.

[4] سورة النور، السورة 24، الآية 57.

[5] تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس، الدرس 101.

قال: قوله: (لا تَحْسَبَنَّ)، جاءت بالخطاب وجاءت بالغائب، فقوله: (لا تَحْسَبَنَّ)، هي قراءة عاصم وقراءة أبي جعفر، أي: يقول هنا للنبي صلى الله عليه وسلم: لا تظن ولا تحسب أن هؤلاء المشركين يعجزون الله سبحانه وتعالى في الأرض. وأما قراءة ابن عامر وقراءة حمزة: (لا يحسَبن الذين كفروا معجزين في الأرض)، وقراءة باقي القراء: (لا تحسِبَن الذين كفروا معجزين في الأرض)، ففي كل القرآن يقرأ: (تحسَب) عاصم وابن عامر وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، وأما باقي القراء فيقرءون (تحسِب) بالكسرة. إذاً: أربعة يقرءونها في كل القرآن: (تحسَب) أو (يحسَب) أو (تحسبَن) أو (يحسبَن)، كلها بفتح السين، وهؤلاء هم: ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر، وأما باقي القراء فيقرءون هذه الألفاظ كلها: (تحسِب) و(يحسِب) و(تحسِبن) و(يحسِبن) بكسر السين. قوله: (لا تحسبن) هي على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي تنصب مفعولين، فقوله: (لا تَحْسَبَنَّ) أي: هؤلاء الكفار، ((مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ)) أي: لا تحسب أنت، فهنا الفاعل هو النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: (الذين كفروا) هذا المفعول الأول، وقوله: ((مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ)) هذا هو المفعول الثاني لتحسب. والقراءة على الغائب: (لا يحسبَن) قراءة ابن عامر وقراءة حمزة وقراءة إدريس عن خلف، والمعنى: لا يحسبَن الذين كفروا أنفسهم يعجزون الله سبحانه وتعالى في الأرض، فهنا قوله: أنفسهم هو المفعول الأول، و (مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ) هو المفعول الثاني...

[6] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 134.

[7] معالم التنزيل، البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1417 هـ – 1997 م، الجزء3، ص191.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [2]

وقال تعالى: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [3]،

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [4،5]،

وقال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [6]،

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [7].

ولا يغيب عنا ونحن نستعرض مادة "ع..ج..ز" ومشتقاتها في القرآن الكريم أن نشير إلى عدم ورود لفظ المعجزة، ولا وصف القرآن بالإعجاز.

غير أن ممعن النظر في آيات القرآن يجد ألفاظا تدل على ما نحن بصدد التقديم له. منها، كما ذكرنا، الآية والحجة والبرهان والسلطان والبيان والدليل.

الآية:

والآية، في اللغة، العلامة الظاهرة. وهي مشتقة من تأي، بمعنى تثبت. يقال: قد تأييت، أي: تلبثت وتحسبت[8]. وتأييت الأمر: انتظرت إمكانه. ويقال: هذه آية مأياة، أي: هي علامة معلمة. واختلفوا في بنائها على أقوال، كفعلة وفاعلة[9].

---

[1] سورة يونس، السورة 10، الآية 53.

[2] سورة هود، السورة 11، الآية 33.

[3] سورة النحل، السورة 16، الآية 46.

[4] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 22.

[5] وقد يقول القائل كيف وصفهم بأنهم لا يُعْجِزُونَ في الأَرض ولا في السماء وليسوا في أَهل السماء؟ فالمعنى ما أَنتم بِمُعْجِزِينَ في الأَرض ولا من في السماء بِمُعْجِزٍ، وقال أَبو إِسحق: معناه، والله أَعلم، ما أَنتم بِمُعْجِزِين في الأَرض ولا لو كنتم في السماء، وقال الأَخفش: معناه ما أَنتم بِمُعْجِزِين في الأَرض ولا في السماء أَي لا تُعْجِزُوننا هَرَباً في الأَرض ولا في السماء، قال الأَزهري: وقول الفراء أَشهر في المعنى ولو كان قال: ولا أَنتم لو كنتم في السماء بِمُعْجِزِينَ لكان جائزاً.

[6] سورة الزمر، السورة 39، الآية 51.

[7] سورة الشورى، السورة 42، الآية 31.

[8] مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار النشر– دار القلم . دمشق، الجزء 1، ص 61.

[9] يقول العلامة سيدنا بن الشيخ سيدي الكبير الشنقيطي:

في آية خلف على أقوال *** ما وزنها من قبل ذا الإعلال

فقيل: أية وقيل: أيية *** وقيل: بل أيية أو أيية

كتوبة نبقة وسمره *** قصبة وذا الخليل شهرة

وقد ورد لفظ الآية، في القرآن الكريم، مفردا ومثنى وجمعا[1]، وذلك لمعان مخصوصة[2].

فجاء مفرداً في ستة وثمانين موضعاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [4].

وجاء مثنى في موضع واحد، وهو قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [5].

وجاء جمعاً في خمسة وتسعين ومائتي موضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [6]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [7]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [8]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [9]، وقوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [10]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [11]، وقوله تعالى: ﴿ إ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ

وعندهم أن المعل الأول *** كما هم في غاية قد جعلوا

وقيل: بل آيية كفاعلة *** وحذف العين ولا موجب له

[1] المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرءان الكريم ، للأستاذ عبدالله إبراهيم جلغوم، الصادر عن مركز تفسير للدراسات القرءانية –الرياض– السعودية، الطبعة الأولى 1436 هـ 2015 م. الجزء 1، ص 288–ص295.

[2] درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م، ص 435 – 436.

[3] سورة البقرة، السورة 2، الآية 106.

[4] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 41.

[5] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 12.

[6] سورة البقرة، السورة 2، الآية 99.

[7] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 199.

[8] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 190.

[9] سورة البقرة، السورة 2، الآية 129.

[10] سورة البقرة، السورة 2، الآية 151.

[11] سورة السجدة، السورة 32، الآية 15.

يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [3].

وقد ذكر أهل التفسير، بعض المعاني التي يفيدها لفظ الآية، جمعنا بعضها في ما يلي:

الأول: بمعنى الحجة والدليل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ .:. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .:. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ .:. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .:. وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .:. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [4]، أي: ومن حجج الله تعالى وأدلته على قدرته[5].

الثاني: بمعنى الجملة من القرآن، أو الوحدة القرآنية المنفصلة عمّا قبلها وبعدها بعلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [6].

الثالث: بمعنى المعجزة الخارقة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [7]، واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء[8]. أي: ما آتاه الله من المعجزات والخوارق الباهرة ما دل على صدقه فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده، واتباع أوامره. ومجيء الآية على هذا المعنى كثير في القرآن.

---

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآية 73.

[2] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 32.

[3] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 37.

[4] سورة الروم، السورة 30، الآيات 20-25.

[5] جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ - 2000 م، الجزء 20، ص90.

[6] سورة البقرة، السورة 2، الآية 106.

[7] سورة القصص، السورة 28، الآية 36.

[8] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى 1420هـ -2000 م، ص 616.

الرابع: بمعنى العبرة والعظة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [1]، أي: جعلنا إغراقنا إياهم، وإهلاكنا لهم عظة وعبرة للناس، يعتبرون بها. وقوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [2].

الخامس: بمعنى القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ .:. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [3]، أي آيات القرآن.

السادس: بمعنى الأحكام الشرعية، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [4]، أي: يبيّن لكم سائر الأحكام ويعرفكم حلالها، وحرامها.

السابع: بمعنى العلامة والدلالة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [5]، أي: علامة دالة على أن لهم خالقاً خلقهم. ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [6]، أي: علامة ودلالة على صدق ما أقول: إنكم ستغلبون.

الثامن: بمعنى القوة والقدرة والعظمة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [7].

التاسع: بمعنى التبذير والتكبر، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ .:. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [8].

وتكون الآية في القرآن:

---

[1] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 37.
[2] سورة يونس، السورة 10، الآية 92.
[3] سورة الجاثية، السورة 45، الآيات 7 و8.
[4] سورة البقرة، السورة 2، الآية 219.
[5] سورة سبأ، السورة 34، الآية 15.
[6] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 13.
[7] سورة البقرة، السورة 2، الآية 164.
[8] سورة الشعراء، السورة 26، الآيات 128 و129.

أمرا وفتنة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [1].

أوتأييدا، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [3].

أو فعلا خارقا، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى .:. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى .:. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى .:. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى .:. وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [4].

أو كلاما بيّنا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [6].

أو رمزا، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [7].

أو صمتا، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [8].

أو طعاما، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [9].

وتكون حينية ظرفية، خاصة بقوم معينين، كعصا موسى عليه السلام، ومائدة عيسى عليه السلام، وناقة صالح عليه السلام، فإنها خصت القوم الذين فيهم.

وأبدية خاصة بقوم معينين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [1].

---

[1] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 73.
[2] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 15.
[3] سورة القصص، السورة 28، الآية 35.
[4] سورة طه، السورة 20، الآيات 18-22.
[5] سورة البقرة، السورة 2، الآية 99.
[6] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 49.
[7] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 41.
[8] سورة مريم، السورة 19، الآية 10.
[9] سورة المائدة، السورة 5، الآية 114.

وأبدية بينة لجميع الخلق، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [2].

وأبدية مغفول عنها عند الناس، كما هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ .:. إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [3].

البرهان:

أما البرهان، فهو في اللغة، الحجة البينة الفاصلة والدليل القاطع الواضح[4]. وهو مشتق من بره، بمعنى جعله أبيض واضحا، أو برهن، بمعنى تثبت. يقال: بَرْهَن يُبَرْهِنُ بَرْهَنةً، إذا جاء بحُجّةٍ قاطعة لِدفع الخَصم. وفي الحديث: الصدقة برهان[5]، أي: هي ما يدل على صحة إيمان صاحبها لطيب نَفْسه بإخْراجها، وذلك لعَلاقة ما بين النفْس والمال.

والبرهان في اصطلاح المنطقيين، استدلال ينتقل فيه الذهن من قضايا مسلَّمة إلى أخرى تنتُج منها ضرورةً. وهو عند المناطقة القُدامى، أسْمَى صور الاستدلال لأنه يقوم على أساس من مقدمات يقينية، وينتهي تبعا لذلك إلى نتائجَ يقينية. وفي اصطلاح الرياضيين، ما يُثْبِتُ قضيةً من مقدّمات مُسَلَّم بها. والبرهنة في الرياضيات أوضح صور البرهان. ويعرفه الفلاسفة وأهل التصوف بأنه قياس مؤلَّف من مُقدّمات يقينيَّة وينتهي تبعًا لذلك إلى نتائج يقينيّةٍ[6].

---

[1] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 35.

[2] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 91.

[3] سورة يونس، السورة 10، الآيات 6 و7.

[4] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، الجزء 13، ص51.

[5] جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة، 2001م، الجزء 2، ص5. الحديث الثالث والعشرون: عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها. رواه مسلم .

[6] جاء في معجم المصطلحات الفلسفية (النسخة الالكترونية)، بأنه استدلال ينتقل فيه الذهن من قضايا مسلمة إلى أخرى تنتج عنها ضرورة، وتسمى الاستدلالات التي يبنى عليها البرهان حججا.و يفترض في الحجة أن تكون صادقة و غير متضمنة لمعلومات تفترض القضية المراد البرهنة عليها، وإلا وقعنا في ما يسمى بالمصادرة على المطلوب. وقد يكون البرهان عرضة لأخطار معينة بسبب قبول حجج لا أساس لها أو خاطئة. و البرهان الذي يحتوي على خطإ يكون برهانا فاسدا. و لكن الكشف عن الخطإ في البرهان لا يشكل برهانا على كذب القضية، إذ من الممكن أن توجد براهين تقيم صدق قضية ما لا كيقين و إنما كاحتمال.

وقد ورد لفظ البرهان، في القرآن الكريم، مفردا ومثنى[1].

فجاء مفرداً في سبعة مواضع هي:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [2].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [3].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [4].

وقوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [5].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [6].

وقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [7].

وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [8].

وجاء مثنى في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [9].

---

[1] المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرءان الكريم ، للأستاذ عبدالله إبراهيم جلغوم، الصادر عن مركز تفسير للدراسات القرءانية –الرياض– السعودية، الطبعة الأولى 1436 هـ 2015 م. الجزء 1، ص 317.

[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 111.

[3] سورة النساء، السورة 4، الآية 174.

[4] سورة يوسف، السورة 12، الآية 24.

[5] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 24.

[6] سورة المؤمنون، السورة 23، الآية 117.

[7] سورة النمل، السورة 27، الآية 64.

[8] سورة القصص، السورة 28، الآية 75.

[9] سورة القصص، السورة 28، الآية 32.

الدليل:

والدليل، في اللغة، صيغة مبالغة من اسم الفاعل دال، من دل يدل دلاً من دل، ودلل يدل إذا هدى، وهو قول ابن الأعرابي[1]. والدليل : ما يستدل به. والدليل: الدال. وقد دله على الطريق يدله دلالة ودلالة ودلولة[2]، وهو مايتوصل به إلى معرفة الشيء،كدلالة اللفظ على المعنى.

ودَلَّه على كذا أي سَدَّده إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَه﴾ [3]، فجعل الله سبحانه وتعالى انكسار عصاه دلا على معرفتهم بموته.

وهو عند المناطقة، ما يلزم من العلم به العلم بوجود المدلول[4].

وهو عند المتكلمين، ما يمكن أن يتوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب تصديقي[5].

وعرفه الأصوليون، بما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري[6].

وقد ورد لفظ الدليل، في القرآن الكريم، مفردا في موضع واحد[7]، هو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[8]. ومعنى أن تكون الشمس دليلاً على

---

[1] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، الجزء 11، ص247.

[2] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، طبعة 2003، الجزء 5، ص 292.

ومن جميل ما قال في هذا الحرف: وفلان يدل على أقرانه كالبازي يدل على صيده . وهو يدل بفلان أي يثق به . وأدل الرجل على أقرانه : أخذهم من فوق ، وأدل البازي على صيده كذلك . ودله على الشيء يدله دلا ودلالة فاندل : سدده إليه ، ودللته فاندل ; قال الشاعر :

ما لك ، يا أحمق ، لا تندل ؟ *** وكيف يندل امرؤ عثول ؟

قال أبو منصور : سمعت أعرابيا يقول لآخر أما تندل على الطريق ؟ والدليل : ما يستدل به . والدليل : الدال . وقد دله على الطريق يدله دلالة ودلالة ودلولة ، والفتح أعلى ; وأنشد أبو عبيد :

إني امرؤ بالطرق ذو دلالات

والدليل والدليلي : الذي يدلك، قال :

شدوا المطي على دليل دائب *** من أهل كاظمة، بسيف الأبحر

[3] سورة سبأ، السورة 34، الآية 14.

[4] محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، فخر الدين الرازي , ص44 – ص45.

[5] أبكار الأفكار، سيف الدين الآمدي , مطبعة دار الكتب والوثائق القومية , الطبعة 2, 2004، الجزء1، ص188.

[6] جمع الجوامع، تاج الدين السبكي, دار الكتب العلمية, الطبعة 2, 2003، ص15. قال الناظم:

ثُمَّ الدَّلِيلُ مَا صَحِيحُ النَّظَرِ*** فِيهِ مُوَصِّلٌ لِقَصْدٍ خَبَرِي

[7] انظر المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرءان الكريم ، للأستاذ عبدالله إبراهيم جلغوم، مركز تفسير للدراسات القرءانية – الرياض– السعودية، الطبعة الأولى 1436 هـ 2015 م. الجزء 1، ص 506.

[8] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 45.

الظل، أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل، من كونه ثابتًا في مكان، زائلا عن آخر، ومتسعًا في موضع، ومتقلصًا في غيره، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على وفق ذلك. فجُعل امتداد الظل لاختلاف مقاديره، كامتداد الطريق وما فيه من علامات وإرشادات، وجُعلت الشمس، من حيث كانت سببًا في ظهور مقادير الظل، كالهادي في الطريق. ومن هذا استنبط المسلمون الساعة والتوقيت، حرصا على ميقات الصلاة.

الحجة:

والحجة، في اللغة، ما يدفع به الخصم، وفي الاصطلاح ما يدل على صحة الدعوة.

وذكروا بين الحجة والدليل فروقا:

أحدهما: أن الدليل مادل على مطلوبك، والحجة ما دفع عنك الزلل.

والثاني: الدليل مادل على صوابك، والحجة مادفع عنك قول مخالفك[1].

والثالث: أن ماشهد بمعنى حكم آخر هو حجة ،ومالا يشهد بمعنى حكم آخر هو دلالة، ذكره ابن مفلح في أصوله.

والرابع: أن الدليل خاص بما هو مُظهر للحكم فقط،والحجة يكون موجباً للحكم تارة ومظهراً له تارة أخرى، قاله السرخسي في أصوله.

والخامس: أن الأدلة يعتمد عليها المجتهدون، والحجاج يعتمد عليها الحكَّام والقضاة، قاله القرافي في فروقه.

والسادس: أن الحجة أعم، لأنها تشمل كل ما أثبت الأحكام من دليل وغيره كالآية والعلة والحال، قاله السجستاني في كتاب الغنية.

ورأى آخرون، منهم القاضي أبو يعلى، وإمام الحرمين، وأبو الوليد الباجي، وابن حزم، أن لا فرق بين الحجة والدليل، وهذا بعيد[2].

---

[1] البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، دار الكتبي، الطبعة الأولى، 1994م، الجزء 1، ص 52.

[2] جاء في معجم المصطلحات الفلسفية أن الحجة هي استدلال على صدق الدعوى أو كذبها، وهي مرادفة للدليل،وهي ما يراد به إثبات أمر أو نقضه،وهي نوعان مباشرة و غير مباشرة ومنها: المحاجة: ويراد بها طريقة تقديم الحجج و الإفادة. الحجاج: الذي يقوم على جمع الحجج لإثبات رأي أو إبطاله. حجة أخيل: هي برهان زينون ضد الحركة، و ذلك أن أخيل لا يمكن أن يلحق بالسلحفاة إذا انطلقا معا. حجة الإنسان الثالث: إحدى الحجج التي حاول أرسطو أن ينقض بها نظرية المثل الأفلاطونية.

وفي الفرق بين البرهان والحجة، قال بعضهم: إن الحجة أعم من البرهان لاختصاصه عندهم بالمقدمات المفيدة لليقين. وقال آخرون: بل البرهان أعم من الحجة، لاشتماله جميع أنواع الحجج، ذكره السجستاني. وسوى آخرون بينهما وهو بعيد.

وقد ورد لفظ الحجة، في القرآن الكريم، مفردا في ثلاثة مواضع، هي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

وورد ذكر فعل المحاجة في أحد عشر موضعا، هي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [7].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [8].

---

[1] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 83.
[2] سورة الشورى، السورة 42، الآية 16.
[3] سورة الجاثية، السورة 45، الآية 25.
[4] سورة البقرة، السورة 2، الآية 76.
[5] سورة البقرة، السورة 2، الآية 139.
[6] سورة البقرة، السورة 2، الآية 258.
[7] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 20.
[8] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 61.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [3].

وقوله تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [4].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [5].

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [6].

السلطان:

والسلطان، في اللغة، هو القوة والقهر، كما هو قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [7]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [8]. والسلط والسليط : الطويل اللسان ، والأنثى سليطة وسلطانة وسلطانة ، وقد سلط سلاطة وسلوطة ، ولسان سلط وسليط كذلك . ورجل سليط أي فصيح حديد اللسان بين السلاطة والسلوطة . يقال : هو أسلطهم لسانا ، وامرأة سليطة أي صخابة . التهذيب : وإذا قالوا امرأة سليطة

---

[1] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 65.
[2] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 66.
[3] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 73.
[4] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 80.
[5] سورة غافر، السورة 40، الآية 47.
[6] سورة الشورى، السورة 42، الآية 16.
[7] سورة النساء، السورة 4، الآية 90.
[8] سورة الحشر، السورة 59، الآية 6.

اللسان فله معنيان : أحدهما أنها حديدة اللسان ، والثاني أنها طويلة اللسان . الليث : السلاطة مصدر السليط من الرجال والسليطة من النساء ، والفعل سلطت ، وذلك إذا طال لسانها واشتد صخبها[1]. وهو أيضا الحجة الدامغة والدليل المانع والعلم الوافي، وهو أكثر ما ورد في القرآن. ولم يأت في القرآن بمعنى الحاكم، والقائم على أمر الناس.

وقد فرق بعض أهل العلم بين هذه الألفاظ، فقالوا أن الدليل إنما يقع على كل ما يعرف به المدلول، واعتبروا أن الدليل ما كان مركبًا من الظنيات، وأن البرهان ما كان مركبًا من القطعيات، وأن الحجة مستعملة في جميع ما ذُكر، وكل سلطان في القرآن فهو حجة.

وبالجملة، فهذه الألفاظ تقدم تفصيلا لوصف القرآن بأنه معجز. ومع أنها لا ترادف في المعنى بينها وبين كلمة معجزة، إلا أنها، بخلاف ما يذكره البعض، تحمل في طياتها معنى المعجزة.

[1] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، الجزء 7، ص51.

الباب الأول: في نشأة مصطلح إعجاز القرآن أو معجزة القرآن

الفصل الأول: تاريخ فكرة الإعجاز القرآني :

حري بنا أن نعلم أن كلمة المعجزة كوصف للقرآن لم تظهر فيما بلغنا من مؤلفات إلا بعد القرن الثاني، وإن كان بدأ الكلام في موضوع الإعجاز بصورة علمية منذ أواخر القرن الثاني في رسائل بعض المتكلمين، من ذلك رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن اسحاق الكندي ورد الأخير عليه[1].

وبالرغم من كوننا لا نملك تحديدا دقيقا لتأريخ ظهور مصطلح إعجاز القرآن، إلا أنه من المؤكد استعمال هذا المصطلح في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث. من ذلك استعمال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، كلمة (معجزة) دلالة على الأمر الخارق المؤيد للأنبياء. كما ظهر استعمال هذا المصطلح عند النظام، حين زعم أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، كما سيأتي بيانه إن شاء الله. وكذا الإمام محمد بن جرير الطبري، رحمه الله، ليدل هذا الاستعمال على أمر تحقق على العرب جميعاً وهو أنهم عجزوا عن معارضة القرآن، فكأن قرنين من الزمان، عند الطبري، كانا كافيين ليتحقق الإجماع على أن العجز قد حصل.

وهكذا شاع مصطلح المعجزة وقل استعمال غيره من المصطلحات الدالة على عظمة القرآن كونه الآية والبرهان والسلطان والحجة على النبوة ورسالة السماء. وصارت هذه الكلمة من الألفاظ المشتركة الدالة على مجمل معاني التحدي ونتائجه.

لابد من التنبيه بداية أن القرآن، باعتباره كلام الله تعالى، قد أحاط بطبيعة الإنسان في كله وأنشأ السبيل لإصلاحه وإسعاده. ولا ريب أنه مما يجب أن يعلم أن الرسالة الخاتمة لابد أن تكون ملمة بكل جوانب

---

[1] كان ذلك زمن خلافة المأمون، وتعتبر الرسالةُ المنسوبة لعبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى صديقه المسيحي النسطوري المسمى الكندي والتي يدعوه فيها إلى الإسلام وردّ الكندي عليه، من أقدم الجداليات الإسلامية المكتوبة في مواجهة المسيحية. غير أن كثيرا من الباحثين المحْدَثين يرون أنّ كاتب الرسالة والردّ واحد، وهو على الأرجح نسطوريّ، وأنها تعود في الحقيقة إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، لا إلى مطلع القرن الثالث/التاسع الميلادي، كما تزعُمُ الرسالة لنفسها. لكن على الرغم من ذلك فإنّ أجواء الرسالة والردّ عليها يمكن الاستنتاج منهما ما كان يعتبره المسيحيون بعامةٍ مواطن القوة والضعف والمجادلة في كلا الدينين.
تمتدح الرسالة أخلاق المسيحيين وسلوكهم وكثرة علمهم وزُهدهم، وتأخذ عليهم برفقٍ تلك الاعتقادات التي لا يتناسب الإيمانُ بها مع علمهم الغزير، وأخلاقهم الحميدة. أمّا المسلمون فتركّز الرسالة، كما يركّز الردّ، على استخدام السيف عندهم وعلى المادية واللذائذ ومخاوف الجنة والنار، وصولاً للاستنتاج، وبرفق أيضاً، أنّ هذه الأمور لا تتفق والأصل الإبراهيمي الذي يعتبره المسلمون جامعاً مشتركاً بينهم وبين المسيحيين.

الفطرة في الإنسان والطبيعة التي فيه. ومن الفطرة التي لا تخفى على أحد تعلق اللاحق بالسابق. ولا يتجلى هذا التعلق فقط بالضبط الحصين لمواريث الأموال بينهم ولكن أيضا في التعلق الفكري. وقد شرح القرآن هذه العلاقة شرحا لا يدانى، إلى حد أننا لو نكتفي بالآيات الواردة في هذا الباب لكفى دليلا وبرهانا يقود إلى الإيمان بأن هذا الكتاب من عند الله تعالى.

فأول الأمر، ونحن نبحث في دلائل الإعجاز في القرآن، أن نستبين مدى تعامل القرآن مع نفسية الإنسان عموما[1]. هذا التعامل مع تعلق الإنسان بمحيطه يبني لما بعده من ظهور الخوارق والآيات والبراهين على صحة القول.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [4].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [5].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [6].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ .:. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [7].

---

[1] بمعنى هل في الرسالة من الإحاطة بدواخل المرسل إليهم ما يجد كل واحد منهم طريقا تخاطبه الرسالة من خلاله.

[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 170.

[3] سورة المائدة، السورة 5، الآية 104.

[4] سورة يونس، السورة 10، الآية 78.

[5] سورة لقمان، السورة 31، الآية 21.

[6] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 28.

[7] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 52.

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ .:. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ .:. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ .:. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ .:. بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ .:. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ .:. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ .:. فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [4].

وبيّنٌ من خلال هذه الآيات أن الأحكام القرآنية لا تتعلق فقط بأعمال المتعبدين لله تعالى، إنما تتعلق أيضا برسم طريق الهدى لمن أراد أن يسلكه. هذا الطريق لا يكون عبثا إنما ينشأ باعتبار النواميس التي خلق الله الناس عليها. ولعل الناظر في الرسائل الإلهية لعباده يلحظ أنه ما من رسالة إلا وفيها من الشرائع ما يتعارض مع المتعارف عند الناس من العادات والتقاليد. والأمر من الرسالة ليس استعداء الماضي لمجرد الاستعداء إنما للإصلاح والخروج مما فيه من ظلمة إلى نور الإسلام.

لذلك لم يأت الإسلام لنسخ كل شيء، إنما جاء نسخا وتثبيتا. نسخ كل باطل، وتثبيت كل حق.

وذِكر القرآن لهذه العلاقة التي تربط الناس بمن سبقهم. هو الأساس الأول الذي انبنت عليه رسالة الإسلام. وهو المنهج في تحويل هذه العلاقة بمن مضى إلى العلاقة بالله تعالى، وتحويل أطلال من مات إلى إسعاد من هو في معترك الحياة.

فرسالة الإسلام، هي من هذا الباب، أن تفهم واقعك فتصيره وفق الحق لا أن تهشم أبواب الحياة بسيوف الباطل فتحيل واقعك إلى ظلام من الباطل مستمرا.

فلما كان الأمر متعلق بالفطرة البشرية في تعلق اللاحق بالسابق، نسبا ووراثة وفكرا. تأكد أنه من متعلقات الرسالة ما يتعلق بموضوعها، ومنها ما يتعلق بموصلها، ومنها ما يتعلق بمن أرسلت فيهم ومن أرسلت إليهم.

---

[1] سورة الشعراء، السورة 26، الآيات 71-74.
[2] سورة الزخرف، السورة 43، الآيات 21-24.
[3] سورة الصافات، السورة 37، الآيات 69 و70.
[4] سورة الكهف، السورة 18، الآية 55.

ولا نجد أكثر تفصيلا في ذلك من القرآن، بصورة أن كل واحد فينا لو عرض نفسه على القرآن لا يستطيع وصفا لنفسه بأكثر مما وصفه القرآن به.

والقرآن هو الرسالة الوحيدة التي يمكن أن نقف عليها لنفهم منها لماذا أرسلت ولمن أرسلت وصفات من أرسلت إليهم من حيث ردودهم تصديقا أو عنادا.. إيمانا أو كفرا أو نفاقا.

حتى تدرك وأنت تقرأ القرآن من أي جانب تدعوك هذه الرسالة وماهو الرد الصحيح الذي يعقل أن يحمله جوابك فيما يدعوك إليه.

ويقدم لك حالك، بصورة تفهم بها أخلاقك وأخطاءك.. فهو الحياة وهو البناء لنا في هذه الحياة. وهو السبيل الذي تستطيع أن تفقه به سبب كل حزن وطريق كل سعادة.. وبه ترتوي من عطش الحياة إلى الحق والعدل والسلام.

فلما كان ذلك كذلك، انبنى عليه أمور:

أولها، **من يصح أن يكون نبيا يوصل رسائل الله إلى عباده** :

ومع أن الله تعالى دلنا على أنه اصطفى أنبياء رسلا، كما في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[1]. إلا أن القرآن لم يغفل عن كل ما يمكن أن يجيب به الناس.

وأول الجواب أن يقولوا.. أبشر مثلنا ؟ فيستعظمون أن تأتيهم رسالة الله عن طريق البشر:

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ .:. فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .:. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾[5].

---

[1] سورة الحج، السورة 22، الآية 75.

[2] سورة ابراهيم، السورة 14، الآية 10.

[3] سورة الشعراء، السورة 26، الآية 154.

[4] سورة الشعراء، السورة 26، الآيات 186-188.

[5] سورة يس، السورة 36، الآية 15.

فكان هذا سببا من أسباب الإمتناع عن الإيمان. قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [1].

وإنما كان امتناعهم عن الإيمان لظنهم الخسران كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [2].

أو تعاليا واستكبارا كما في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [3].

أو حسدا كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25)﴾ [4].

والثاني: أن يقولوا لولا أنزل عليهم الملائكة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [5].

والثالث أن يصحب النبي ملك، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [6]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .:. لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [7]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [8]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [9].

فهذا مجمل ما اشترطوا في النبوة.

والأمر الثاني: **ماذا قالوا في الرسالة ؟**

---

[1] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 94.
[2] سورة المؤمنون، السورة 23، الآية 34.
[3] سورة التغابن، السورة 64، الآية 6.
[4] سورة القمر، السورة 54، الآيات 24 و25.
[5] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 21.
[6] سورة الزخرف، السورة 43، الآية 53.
[7] سورة الحجر، السورة 15، الآيات 6 و7.
[8] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 8.
[9] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 7.

فإنهم إذ كان ردهم رفض دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وإنكار نبوته، كان رفضهم للرسالة ذاتها تبعا. فقالوا أنها إفك مفترى، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [1].

وقالوا أنها سبيل صد عما كانوا فيه وأنه سحر مبين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [2].

وقالوا أنها إفك قديم كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[3].

وقالوا أنها أساطير الأولين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[5].

وقالوا بقدرتهم على قول مثلها لو شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [6].

وقالوا إنما هي أساطير اكتتبها لا وحي فيها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [7].

وأنكروها تلاوة وسمعا، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[8].

وزعموا أنها تعليم بشر، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [9].

---

[1] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 4.
[2] سورة سبأ، السورة 34، الآية 43.
[3] سورة الأحقاف، السورة 46، الآية 11.
[4] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 25.
[5] سورة النحل، السورة 16، الآية 24.
[6] سورة الأنفال، السورة 8، الآية 31.
[7] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 5.
[8] سورة المطففين، السورة 83، الآية 13.
[9] سورة النحل، السورة 16، الآية 103.

وزعموا أنها الأحلام والشعر، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾[1].

وقالوا أنه جنون الشعراء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [2].

وقالوا أنه وهنة الشعر، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [3].

وقالوا أنه الجنون، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [4].

وقالوا أنه غواية السحر، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[5].

وقوله تعالى تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [6].

وقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [7].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [8].

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [9].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [10].

---

[1] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 5.
[2] سورة الصافات، السورة 37، الآية 36.
[3] سورة الطور، السورة 52، الآية 30.
[4] سورة الحجر، السورة 15، الآية 6.
[5] سورة القمر، السورة 54، الآية 2.
[6] سورة الصف، السورة 61، الآية 6.
[7] سورة المدثر، السورة 74، الآية 24.
[8] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 91.
[9] سورة المدثر، السورة 74، الآية 25.
[10] سورة القلم، السورة 68، الآية 51.

الفصل الثاني: هل الإعجاز وسيلة لمعرفة الحق والهداية :

ومن سفه القول ولغطه وحمق القائلين به، أن يقال عن نبي الإسلام أنه نبي بلا معجزة[1]. ومع أن القرآن في كل آياته يوضح الصورة التي تبنى عليها الهداية. ويرسم السبيل الوحيد الذي يدل المرء على الله سواء كان مؤمنا أو كافرا في وحل الذنب وظلمات.

فالإيمان ليس طلبا من الذين كفروا فقط ولكنه أيضا للذين آمنوا.. لأن الإسلام إنما كان ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.. من الظلام كله إلى النور كله.. وصولا إلى الله تعالى.

ومما ظهر تمسكهم به من آي القرآن وهم ينفون المعجزة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا .:.وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا.:. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا .:. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا .:. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾[2]. فإذ خفي عليهم المراد منها، فنحن نحاول في هذا المقام تفسيرها لمن يطلب رشدا.

فقد استدلّ البعض بهذه الآيات على زعم عجز النبي صلى الله عليه وسلم عن الإتيان بالآيات وذلك سبب امتناعه وتعريضه بأنه ليس إلا بشرا رسولا. وهو أمر يدعونه بغاية القدح في نبوته أو التشكيك في تلك النبوة. وكان حريا بمن يدعي مثل هذا الإدعاء أن يرد المسألة إلى مناطها المنطقي، فإن طالبي الآيات من النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكروا طلبا كثيرا جُمِعَ بعضها في هذه الآيات. ولفهم غاية الامتناع وحكمته لابد من الوقوف على كل واحد من هذه المطالب والمقترحات، وتفصيلها:

أولا، قولهم : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾، فهب أنه أجابهم مطلوب القوم بأن يُفَجِّر لهم النبي صلى الله عليه وسلم ينبوعاً وعيناً لا ينضب ماؤها، إذا استراحوا بذلك من عناء تحصيل الماء، وذلك على خلاف سنة الله في خلقه التي لا تبديل لها. فإنّ سنة الله الحكيمة في الحياة البشرية استقرت على أن يصل الناس إلى معايشهم ومآكلهم ومشاربهم عن طريق السعي والجد، تكميلاً لنفوسهم وتربية لعزائمهم.

وقد تقتضي الأحوال والظروف قيام النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حفظا لحياة قومه، كما فعل موسى عندما شكى إليه قومه الظمأ، فاستسقى الله تعالى لهم، فأوحى إليه أنْ يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عند نبع الماء من بين أصابعه.

---

[1] كتاب المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، جورج طرابيشي، دار الساقي، ص12.

[2] سورة الإسراء، السورة 17، الآيات 89-93.

والثاني: قولهم : ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾، وليس هذا طلباً للإعجاز، وإنّما كان قولهم ذاك اعتقادا أن وجود الثروة دلالة على عظمة الرجل، وإنكارهم أن يكون يتيما فقيرا على قدر يرفعه لدرجة النبوة، ونظيره ما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾(الزخرف:31). وعلى هذا، فإجابة هذا الطلب يكون نوع اعتراف بهذا الزعم، فلما كان أنه لا تلازم بين المال ومكانة المرء إلا بقدر خواطر المحيطين به، ولما لم تكن أية رابطة، عقلية بين كون الرجل صاحب ثروة، وكونه متصلاً بالغيب، كان الامتناع عن الرد عليهم وعدم إجابتهم لما أرادوا هو آية في حد ذاتها لمن استرشد.

والثالث: قولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾، وهذا بضد هدف الإعجاز وبضد الغاية من وراء ارسال الرسل والأنبياء، فأنّ الغاية من الآيات هداية الناس لا إبادتهم وإهلاكهم. فلما كان طلبهم الإهلاك كان الامتناع وهو غاية المنطق.

والرابع: قولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾، وهو الإتيان بالله والملائكة، ونظيره في القرآن، قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]، وقوله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [2]. وهذا حكم الإمتناع فيه واضح بين.

والخامس: قولهم : ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾، وهو كونه صاحب بيت من زخرف، فيُرَدُّ بما رُدَّ به الإقتراح الثاني.

والسادس: قولهم : ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾، وهو طلب رُقِيِّهِ إلى السماء وإنزال كتاب ملموس يقرؤونه، فإنّ لحن هذا السؤال يدلّ على عنادهم وتعنتهم إذ لو كان الهدف هو الإهتداء، لكفى طلبهم الأول أعني رُقيّه إلى السماء ولم تكن حاجة إلى الثاني، ومن المعلوم أنّ النبيّ إنّما يقوم بالإعجاز لأجل الهداية والإرشاد إلى نبوته واتّصاله بعالم الغيب.

وتم بذلك أن علة الإمتناع ليس العجز كما هو حال من تحداهم الله مع القرآن، وحال الكفار مع مباهلة النبي صلى الله عليه وسلم. إنما علة الإمتناع عدم استجماع هذه المطلوبات لشروط الإعجاز، بمعنى عدم استجماعها شرائط أن تكون لطالبيها آية، إذ ليس القيام بالمعجزة من الأمور الفوضوية الّتي لا تخضع لشرط عقلي أو شرعي، وهذه المقترحات فاقدة لكل ذلك.

---

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآية 118.

[2] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 21.

بمعنى أنه ليس كل ما يطلبه الطالب متخيلا أنه آية وأنه معجزة هو في حقيقته كذلك، فإن الآية بمنزلة لا يعرف حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى، ولا تخضع لرغبات البشر وأهوائهم.

ومجمل القول أن امتناع النبيّ صلى الله عليه وسلم عن جواب مطالبهم إمّا لأجل فقدان المقتضى أو لوجود المانع. وعلى ذلك أجاب بما أمره سبحانه وتعالى أن يجيبهم به، قائلاً: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، فبين فقدان المقتضى ووجود المانع بلفظين: "بَشراً" و"رسولاً". والمراد أنّ هذه المطلوبات الّتي طلبتموها مني أمتنع على جوابها وأعلق أمرها بسبحان ربي، إمّا لكوني بشراً، أو لكوني رسولاً. وعلى الأول فلوجهين : الوجه الأول أن قدرة البشر قاصرة عن القيام بهذه الأمور، والوجه الثاني، أن المطلوبات لا توافق منطق البشر، بحثا عن الحق، إنما هي مطالب إما أن تكون بلا منطق سليم، وإما أن تكون بدافع العناد والتسلية. وعلى الثاني، فهو موقوف على إذنه سبحانه، لأنّ الرسول لا يقوم بشيء إلاّ بإذن مُرْسِلِه، وليس ها هنا إذن، لعدم استجماع هذه الطلبات شرائط الإجابة.

وبمنهج الإجابة الّتي ذكرناه في هذه الآيات، نرسم الإجابة عن كثير من الآيات الّتي اتّخذها نفاة المعجزة ذريعة لنظريتهم.

ومن عجيب ما رأيتهم يستشهدون به في دفع المعجزات عن النبي صلى الله عليه وسلم، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1]، وهذه الآية ليست متعلقة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وإنما تعلقها بالله تعالى وقدرته، لذلك كان الجواب عن طلبهم بتأكيد قدرة الله تعالى على إنزال الآيات، وتعليق مطلبهم بانعدام العلم لديهم.

ثم إن الله تعالى أحالهم للنظر في آياته إذ كانوا يريدون الآية أن تكون من الله تعالى فنبههم أن لِمَ لم ينظروا في آيات الله المبثوثة في الكون المترائية لكل عين البينة لكل قلب مطلبه الهدى.. ألم تر أنه أردف الجواب عليهم بقدرة الله تعالى ببيان ما يدل على هذه القدرة فقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [2].

فإن قيل : إن كانت المعجزة طريقا لإثبات النبوة فلماذا امتنع النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة عن الإتيان بمعجزة وقد طلبها الكفار منه، قال تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [3]، وغيرها كثير.

---

[1] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 37.

[2] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 38.

[3] سورة الأنعام، السورة6، الآية 37.

قلنا : إن إظهار المعجزات يكون لإظهار الحق وتثبيته في قلوب الناس لا لإكراههم على قبول دعوة الأنبياء وإجبارهم على التسليم بها والانقياد لها. لذلك أجابهم في بعض ما طلبوا ومثاله قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ .:. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .:. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [1]، بل وتصدر ابتداء ببيان المعجزة دون مطالبتهم في بعضها ومثاله قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .:. وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[3]، وامتنع في أخرى حين كان الواقع للتلاعب والتسلية أو مما لا يقتضي المنطق، ومثاله قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[4]. بل وقريب منه فعل الله مع أنبيائه، فمنهم من أعطاه الآية ابتداء، مثاله قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[5]، ومنهم من طلبها فأعطاه، ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [6]، ومنهم من منعه وزجره أن يطلب الآية، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [7].

ذلك أن الآيات ليست عمل الأنبياء، إنما هي إذن الله تعالى وقدرته وعلمه وملكه يصرفه كيف يشاء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

---

[1] سورة المائدة، السورة 5، الآيات 113-115.

[2] سورة طه، السورة 20، الآية 42.

[3] سورة آل عمران، السورة 3، الآيات 49 و50.

[4] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 59.

[5] سورة طه، السورة 20، الآية 42.

[6] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 41.

[7] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 35.

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1]. وهي حين تصرف، فإنها تصرف لقوم معينين، تتحقق فيهم الغاية من بعث الآيات، فلا تصرف عبثا.

لمن تصرف الآيات ؟

فأما لمن تصرف الآيات وعلى من تنزل ووفق أي غاية فتجمعها وجوه:

الأول: تصرف للمؤمنين، من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

الثاني: لقوم يتقون، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[4].

الثالث: لقوم يتفكرون، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

الرابع: لقوم يذكرون، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[6].

الخامس: لقوم يسمعون، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[7].

السادس: لقوم يعقلون، كما في قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[8].

السابع: لقوم يعلمون، كما هو قوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

[1] سورة الرعد، السورة 13، الآية 38.
[2] سورة الحجر، السورة 15، الآية 77.
[3] سورة النحل، السورة 16، الآية 79.
[4] سورة يونس، السورة 10، الآية 6.
[5] سورة الروم، السورة 30، الآية 21.
[6] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 118.
[7] سورة يونس، السورة 10، الآية 67.
[8] سورة الرعد، السورة 13، الآية 4.

الثامن: لقوم يوقنون، كما في قوله تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

التاسع: لقوم يشكرون، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[3].

العاشر: للسائلين، كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[4].

الحادي عشر: لأولي الالباب، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[5].

الثاني عشر: لأولي النهى، ومثاله قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾[6].

الثالث عشر: للمتوسمين، ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[7].

الرابع عشر: لكل صبار شكور، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[8].

الخامس عشر: لكل عبد منيب، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[9].

السادس عشر: للذين يخافون العذاب الأليم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[10].

السابع عشر: للناس، كما هو قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾[11].

---

[1] سورة النمل، السورة 27، الآية 52.
[2] سورة الجاثية، السورة 45، الآية 4.
[3] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 58.
[4] سورة يوسف، السورة 12، الآية 7.
[5] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 190.
[6] سورة طه، السورة 20، الآية 54.
[7] سورة الحجر، السورة 15، الآية 75.
[8] سورة ابراهيم، السورة 14، الآية 5.
[9] سورة سبأ، السورة 34، الآية 9.
[10] سورة الذاريات، السورة 51، الآية 37.
[11] سورة مريم، السورة 19، الآية 21.

الثامن عشر: للعالِمين، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [1].

التاسع عشر: للعالَمين، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [2].

فما من أحد إلا وله وجه من هذه الوجوه، إلا أن يكون على شاكلة فرعون ومن معه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .:. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [3].

الغاية من الآيات:

وهي بذلك تتنزل على أصناف الناس لغايات معينة:

أولها: الإيمان والهداية والاستقامة على منهج الله تعالى، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [4].

ثانيا: رفع الشك، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [5].

ثالثا: الفقه والفهم، ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [6].

رابعا: الابتعاد عن الفسق، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [7].

خامسا: الدفع للتفكر، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [8].

سادسا: لاستبيان الطريق، وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [9].

---

[1] سورة الروم، السورة 30، الآية 22.
[2] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 91.
[3] سورة الزخرف، السورة 43، الآيات 46 و47.
[4] سورة الفتح، السورة 48، الآية 20.
[5] سورة القمر، السورة 13، الآية 15.
[6] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 65.
[7] سورة البقرة، السورة 2، الآية 99.
[8] سورة البقرة، السورة 2، الآية 219.
[9] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 55.

سابعا: لبيان صدق صاحب الآية، ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

ثامنا: لغاية التذكر، ومثاله قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[2].

تاسعا: لإقامة الحجة لعلهم يرجعون، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3].

عاشرا: لغاية العلم، ومثاله قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[4].

الحادي عشر: لغاية الترغيب، ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .:. تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .:. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .:. أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ .:. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5].

الثاني عشر: لغاية الترهيب، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[7].

الثالث عشر: لغاية التنبيه، ومثاله قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[8].

الرابع عشر: لزيادة الإيمان، ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[9].

---

[1] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 106.
[2] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 26.
[3] سورة الأحقاف، السورة 46، الآية 27.
[4] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 49.
[5] سورة السجدة، السورة 32، الآيات 15-19.
[6] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 59.
[7] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 49.
[8] سورة السجدة، السورة 32، الآية 26.
[9] سورة الأنفال، السورة 8، الآية 2.

الخامس عشر: بيان قوة الله وقدرته، ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [1]. فإنهم لما كان سؤالهم عن قدرة الله تعالى، بعد أن بينوا أن غايتهم هي الطعم والإطمئنان، قال تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115)﴾ [2].

رد الناس على الرسل:

فإن كان نزول الآيات يستوجب شروطا وغايات فلابد من معرفة نتائجها على من أنزلت إليهم. وطبيعي أن تكون النتائج على وفق سعي الناس من البحث عن الحق. فإن غايات الناس تختلف في السعي للحق بين طلبه وبين محاولة إخفائه أو دفعه جملة، وعليه كان واقع أغلب الناس، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [3]. وتعددت الردود بين:

معرض، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [5].

ومستهزئ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [6].

وضاحك، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [7].

وغاضب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [8].

وجاحد، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [9].

وغافل، كما هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [10].

---

[1] سورة المائدة، السورة 5، الآية 112.
[2] سورة المائدة، السورة 5، الآية 115.
[3] سورة الشعراء، السورة 21، الآية 8.
[4] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 4.
[5] سورة القمر، السورة 13، الآية 2.
[6] سورة الصافات، السورة 37، الآية 14.
[7] سورة الزخرف، السورة 43، الآية 47.
[8] سورة الحج، السورة 22، الآية 72.
[9] سورة غافر، السورة 40، الآية 63.
[10] سورة يونس، السورة 10، الآية 7.

وخائض، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [1].

وظالم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [2].

ومستكبر، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [3].

وفاسق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [4].

ومنسلخ عن الحق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [5].

وماكر مجرم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [6].

ومعجب، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [7].

وناس، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [8].

ومعاجز، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [9].

ومؤمن، كما في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [10].

---

[1] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 68.
[2] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 9.
[3] سورة السجدة، السورة 32، الآية 15.
[4] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 49.
[5] سورة الأعراف، السورة 2، الآية 175.
[6] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 124.
[7] سورة البقرة، السورة 2، الآية 118.
[8] سورة طه، السورة 20، الآية 126.
[9] سورة الحج، السورة 22، الآية 51.
[10] سورة الزمر، السورة 39، الآية 23.

فلما كان ذلك كذلك، بات من المنطقي أن لا يستجاب لكل رغبة وكل طلب، كما لم يكن من المنطقي أن يرسل لكل فرد رسولا. فإنه إنما خلق الله البشر وكرمهم وأنعم عليهم بصحيفة العقل لاسترشاد الطرق. فإذا فريق منهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[1]، أو كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2]، أو كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3].

فأما طلب الآية فإما أن يكون سعيا وراء الحق واستبيان طرقه، أو أن يكون من باب المعاندة والمعاجزة واللهو.

غير أنه وجب التنبيه في هذا المقام أن الله تعالى، عهد إلينا في القرآن بيان آياته، كما هو قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[4]، وإنما غلبت الناس العجلة عن رؤية آيات الله تعالى، كما هو قوله تعالى:﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [5].

أين تظهر الآيات ؟

ثم إنه من المفيد استبيان في أي شيء تظهر آيات الله، طلبا للرشد، وقد فصلها القرآن في أمور:

الأول: الكتاب، ومثاله قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[6].

الثاني: الآفاق والأنفس، وهو قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[7].

الثالث: في خلق البشر من تراب، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾[8].

الرابع: في خلق الأزواج، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

---

[1] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 4.
[2] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 25.
[3] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 132.
[4] سورة النمل، السورة 27، الآية 93.
[5] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 37.
[6] سورة فصلت، السورة 41، الآية 3.
[7] سورة فصلت، السورة 41، الآية 53.
[8] سورة الروم، السورة 30، الآية 20.

الخامس: في اختلاف الألسن، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22)﴾[2].

السادس: في المنام والابتغاء، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) ﴾[3].

السابع: في البرق، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) ﴾[4].

الثامن: في الريح، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) ﴾[5].

التاسع: في الفلك، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾[6].

العاشر: في ما أنزل من السماء، وهو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[7].

الحادي عشر: في الليل والنهار والشمس والقمر، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[8].

الثاني عشر: في النبات والإنبات، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[9].

الثالث عشر: في الدواب، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[10].

---

[1] سورة الروم، السورة 30، الآية 21.
[2] سورة الروم، السورة 30، الآية 22.
[3] سورة الروم، السورة 30، الآية 23.
[4] سورة الروم، السورة 30، الآية 24.
[5] سورة الروم، السورة 30، الآية 46.
[6] سورة الشورى، السورة 42، الآية 32.
[7] سورة سبأ، السورة 34، الآية 9.
[8] سورة فصلت، السورة 41، الآية 37.
[9] سورة فصلت، السورة 41، الآية 39.
[10] سورة الشورى، السورة 42، الآية 29.

وفي كل ذلك، يحكم الأمر بقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

ثم إن المعجزة كونها دليلا على النبوة لابد وأن يكون لها وجه لوجود الارتباط الخاص بين الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم، بمعنى بيان اصطفائه له خاصة، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[2].

ولابد من الإشارة هنا، أن القرآن وهو يتنزل على النبي، صلى الله عليه وسلم، بدأ بالتدليل على نبوته وبيان ذلك الاصطفاء، فقال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[3]، فكان عليه الصلاة والسلام أول من وُجِّهَ إليه الأمر من السماء بالقراءة، قراءة باسم العلي سبحانه وتعالى.

أضف إلى ذلك أنّه كيف يمكن لأحد أن ينكر معاجز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، مع أنّ القرآن الكريم يخبر عن بعضها والسنّة متواترة بها.

ولقد حاول القوم التشكيك في القرآن من حيث تواتره، من خلال جمعه. ومن خلال التنقيب عن تناقضات فيه. ومن خلال اختلافات القصص القرآني وربطه بالاسرائيليات والشعر الجاهلي. فلما امتنع كل ذلك عنهم، انصب جهدهم على اسقاط القرآن من حيث إعطائه بعدا بشريا. وإنكار ما فيه من معجزات.

هل أثبت القرآن ما يخرق العادة ويعجز العباد؟

فإن سأل سائل: هل أثبت القرآن ما يخرق العادة ويعجز العباد؟

قلنا: لابد من الإشارة أولا إلى أن القول بإثبات القرآن ما يخرق العادة ويعجز العباد، لا يعني أن ثمة أمورا مستحيلة على العقل قبولها يوردها القرآن. فإن القرآن إذا أثبت شيئا لم يجد العقل طريقا للقول باستحالته. فلا إشكال ولا شبهة أن المعجزة في الحقيقة ليست من الأمور التي يحيلها العقل. بل هي أمور يحكم العقل بإمكانها وإن جرت العادة بغيرها واستبعدتها. وإنما نقصد بالعقل هنا، العقل الضروري البديهي، أو الفطرة.

لذلك حين قيل للصديق أن محمدا قد ادعى أنه أسري به للمقدس، زاعمين استحالة ذلك عقلا، قال أصدقه فقد صدقته فيما هو أكبر فعقلا يجب أن أصدقه فيما هو أصغر[4].

---

[1] سورة الزخرف، السورة 43، الآية 48.

[2] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 124.

[3] سورة العلق، السورة 96، الآية 1.

[4] روى البيهقي في قصة الإسراء والمعراج أنه لما رجع رسول الله إلى مكة فأَخْبَرَ أنه أُسْرِيَ به، افتُتِنَ ناس كثير كانوا قد صلَّوْا معه. قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهَّز ناس من قريش إلى أبي بكر، فقالوا له: هل لك في صاحبك، يزعم أنه قد جاء

هل المعجزات المادية الواقعة في القران الكريم تفعلها الطبيعة بواسطة أسباب؟

فإن قيل: هل المعجزات المادية الواقعة في القران الكريم تفعلها الطبيعة بواسطة أسباب؟

قلنا: اعلم أن المعجزات أو الآيات هي من عند الله، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1]. فلما كان أمر الآيات من عند الله، كان فعلها على ثلاثة وجوه:

الأول: أن يكون بأسباب ومقدمات، كما هو قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[2].

الثاني: أن يكون بلا أسباب ولا مقدمات، كما هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .:. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3].

الثالث: أن يكون بضد الأسباب وضد المقدمات، كما هو قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[4].

والواضح أن أمور الطبيعة تحكمها الأسباب. وتقع الاشياء فيها بتوسط مقدمات للوصول إليها. لكن ليس في أمور المعجزة ما تنكره عادة الطبيعة عامة بل هي مما يتعاوره نظام المادة كل حين بتبديل الحي إلى ميت والساكن إلى متحرك وإنزال ورفع.

هل يمكن الاستغناء عن الأسباب للوصول لتلك الغايات المعجزات ؟

فإن سأل سائل: هل يمكن الاستغناء عن الأسباب للوصول لتلك الغايات المعجزات، ومعرفة كيفية ذلك الاستغناء، أم تظل مرتبطة بإذن الله تعالى لمن ارتضى وقدرته الخاصة ؟

قلنا: قد فات ذلك الأنبياء فاستحال عن العامة، لقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ فقال أبو بكر: أَوَ قَالَ ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأَشْهَدُ لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتُصَدِّقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة، ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني أُصَدِّقه بأبعد من ذلك! أصدِّقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سُمِّيَ أبو بكر الصِّدِّيقَ رضي الله عنه.

[1] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 50.

[2] سورة الروم، السورة 30، الآية 48.

[3] سورة يس، السورة 36، الآيات 82 و83.

[4] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 69.

مدى ارتباط الإيمان بالمعجزة

فإن قيل: هل يعتمد الإيمان على المعجزة، وبدونها لا يكون إيمان ؟

قلنا: إن جوهر إيمان المسلم المستقيم لا يعتمد في الأساس على المعجزة أو الإعجاز، وإنما على الهدى. وبعبارة أخرى، قليل من المؤمنين برسالة الإسلام يذكر أنه آمن لأنه عجز. بل إن أغلبهم كان آمن لأنه هدي إلى الحق.

وبهذا المنطق، فحتى إن لم يكن القرآن معجزا فسيكون حقا. وبهذا المنطق أيضا، لا يحتاج النبي كي يكون نبيا إلى معجزة.

غير أنه بالمنطق المقابل يثبت إعجازه، ويثبت ضرورة مصاحبة المعجزة للنبوة، وأنه ما من نبي إلا وأرسل معه ما على مثله آمن البشر. ذلك أنه على عكس الإيمان فإن الكفر محكوم بالعجز. فكل كافر لابد أن يجابه بالعجز. وفي الإسلام، كل الأنام بعامة والكافر بخاصة عاجزون عن تحدي القرآن، وهم عاجزون عن إظهار أي خلل أو اختلاف فيه. وكفى بذلك تعجيزا لهم. وإنما عني الكافر بالعجز دون المؤمن مع استوائهم في ذلك، لأن الكافر من صفته المعاندة والمعاجزة في آيات الله، بعكس من شرح الله صدره وهدى قلبه فقد غاب وغيب عنه ذلك كله. والكلام عن معجزة القرآن أو إعجازه، بقدر ما هو موجه للذين كفروا دعوة لهم إلى الحق واستبيان الطريق، فإنه موجه أيضا للذين آمنوا تأكيدا لهم على صحة المسلك واستواء الطريق ودفعا للوساوس التي قد تطرأ على أحدهم.

وقد تكلم الكثير عن عدم جواز وصف القرآن بأنه معجز، مستدلين في ذلك أن لا آية في القرآن ولا حديث من أحاديث النبوة ولا قول لصحابي استعمل لفظ الإعجاز أو المعجزة دلالة على القرآن الكريم. فقالوا أن الأوفق الالتزام بما كان، وإلا فهي البدعة المؤدية للضلالة. ونحن إذ نتكلم عن معجزة القرآن وإعجازه لابد من تحرير المسألة وتوضيحها وبيانها. وإنما يتأتى الكلام في هذا الشأن بالنظر في رد الله تعالى على من طلب الآيات. وقد كان رده عليهم، على أربعة وجوه:

الأول. الإمتناع، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾[2].[3]

---

[1] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 35.

[2] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 59.

[3] ولعل أحدا يستغرق به العقل في هذه الآية فيسأل : إن كان كذب بها الأولون فاحتمال تصديق أولئك وارد فلم الامتناع ؟

والمتأمل في الآية يدرك أمورا منها :

-أن إرسال مثل تلك الآيات لا يكون إلا للتخويف.. فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين.

الثاني: الصرف، كما هو قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[1].

الثالث: تمكينهم من الجواب، ما حينيا، أو لاحقا، وهو قوله تعالى: ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[2].

قلت: إنما كان هذا الامتناع حينيا كما كان طلب الآيات كذلك. أما لماذا كان الامتناع في إرسال الآيات المطلوبة فجوابه من وجوه.

الأول: أنهم طلبوا آيات مرتبطة بزمن معين ومكان معين ورسالة الإسلام ممتدة على الزمان والمكان إلى يوم القيامة. فكان الامتناع في ذلك بشرى بتنزيل الآيات البينات الممتد إعجازها بامتداد الزمان وتغير المكان.

الثاني: حتى لا تنصرف أذهان الناس للآيات فتغفل قلوبهم عن القرآن الذي هو جوهر الإسلام ودستوره وقانونه وشرعته ونظامه.

الثالث: أن من الآيات ما لا تطيب ثمرتها إلا بالعلم فتأجل إنزالها أو إظهارها حتى يتعلم الناس. ودليله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. فوضح لنا أن استبيان بعض الآي لا يكون إلا بالعلم. ومتى جهل الإنسان ما استطاع استبيانها.

الرابع: أن من الآيات ما نسخت والإتيان بمثلها أو بخير منها، ومثاله قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾[5].

الخامس: أن من الآيات ما لا يصح طلبها، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾[1].

-أن امتناع إرسال الآيات التي طلبوها كأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا، لا يصح أن تكون آية للعالمين، إنما هي آية لمن حضر منهم.. كالناقة خصت بها ثمود. فلما كانت الرسالة للعالمين كان الأولى أن يؤتى بآية تشهد على كل واحد من العالمين. ومنه أن ما كذب به الأولون لا يصح أن يكون دليلا على الآخرين.

ثم لنا أن نسأل ونعجب: لماذا سكن الناس إلى القرآن بعد مطالبتهم بالآية ؟ ولم يصروا على مطلبهم إلا أن يكون القرآن أغناهم عن كل آية ؟!

[1] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 146.

[2] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 37.

[3] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 37.

[4] سورة البقرة، السورة 2، الآية 106.

[5] سورة الزخرف، السورة 43، الآية 48.

السادس: أنه لا فائدة في إرسال الآيات، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [2].

السابع. طلبهم الآيات من الرسول مباشرة، وبيانه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [3].

الثامن: أن تنزيل الآيات ليس محكوما بأهواء الناس ولكنه محكوم بالموحي الذي هو الله وهو يعلم ما ينزل وإلا لم يصر وحيا.

التاسع. أن متعلق الآيات قد يكون تبيينا أو تصريفا أو تفصيلا أو تذكيرا أو جوابا أو تخويفا أو حفظا وحماية وتغليبا أو إحكاما.

ويشهد لقوة المعجزة وضرورتها، وجوه:

الأول. رفض الإنسان للعجز، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ﴾ [4].

الثاني. سعيهم لتعجيز غيرهم وظنهم السبق في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [5].

الثالث. إلزامهم بصفة العجز، إنسا وجنا، فرادى ومجتمعين، ومثاله قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [6].

وإنما نفى عن القرآن المعجزة من لم يبلغ مراقي تدبره، أو جمعه من غير فقه فيه وفهم له. حتى زعم قوم أنه من البدعة وصفه بالمعجز، والبدعة في تكلمهم في القرآن بغير فقه فيه.

ولعلنا نطرق في ما يلي، باب من أنكر عن القرآن إعجازه، فنكتب فيمن نكث غزل إيمانه حد الكفر فادعى للقرآن معارضة ولأحكامه مجاراة.

---

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآية 118.
[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 145.
[3] سورة الرعد، السورة 13، الآية 38.
[4] سورة المائدة، السورة 5، الآية 31.
[5] سورة الأنفال، السورة 8، الآية 59.
[6] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 88.

الباب الثاني: إنكار الإعجاز:

ويحسن بنا، بدءا، أن نبين أنه بالرغم من التحدي الواضح للعالمين، فإن فريقا عجز عن تصديق ذلك التحدي استكبارا. فراموا الغفلة عنه، وزعموا حوله مزاعم على قدرتهم معارضته، وتسللت كلمات من خلال ظلام التكبر دامس، لا يأبه بها اللبيب، ويستخفها العاقل.. فلما فشل أمرهم وهان، واستوطن الكبر قلوبهم ودان، لم يجدوا من ذلك مهربا ولا ملجئا فقالوا بالصرفة عنه. وظلوا بذلك منكرين أي سمو أو علو للقرآن على غيره من الكتب، ولسانهم يكرر ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]. وأنى لهم أن يأتوا بمثله، ولكن غلبهم الهوى فضلوا.. وليسوا أول من ضل ولا آخر من يضل، ولكن هو تحقق قوله تعالى فيهم: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

وكان الناس حول القرآن وحول محل القرآن في الكتب ومحله في الآيات فِرَقا، كما كانوا فرقا حول الإيمان والكفر.. بل وفرقا في الإيمان وفرقا في الكفر.

ولعل من اللازم، وقبل ذكر المعارضين وتخاريفهم، الوقوف مع أوصاف القرآن، ثم مع مفهوم المعارضة لاستبيان مزاعم من قال بها وشبهاتهم.

الفصل الأول: وصف القرآن:

يقول الشيخ أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي[3] في كتابه الجبر والمقابلة: ولم تزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظرا لمن بعدهم

---

[1] سورة الأنفال، السورة 8، الآية 31.

[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 118.

[3] والخوارزمي هو من بيَّن طريقة استخدام الأعداد في العمليات (المسائل) الحسابية، وهو من دَوّن العملية (المسألة) الحسابية تدويناً أبرز فيه ترتيب الأعداد في مراتب (خانات أو درجات) معينة، حتى تبرز الأعداد، ويصبح جمع الأرقام بعضها إلى بعض، أو طرحها أو ضربها أو قِسمتها ممكناً سهلاً، ويُعتقد أن هذا العمل قام في ذهن الخوارزمي على إدراك واضح للنظام العُشْريّ، ذلك لأن مراتب الأعداد هي أساس النظام العشري.
ولما استخدم الخوارزمي الرموز (الأحرف) إلى جانب الأرقام منسوقة في مراتبها في المعادلة ثم جعل في المعادلة حدوداً إيجابية وحدوداً سلبيةً أصبح الجبر عنده علماً بالمعنى الذي نفهمُه نحنُ اليوم. أمّا المصطلحاتُ الجبرية، التعابيرُ والرموز، من مثل: جبر ومال وشيء وعدد مفرد وجذر ومعلوم ومجهول وأصمّ... وغيرها، فإنها مذكورة عند الخوارزمي ذكراً صريحاً ومضروبٌ عليها الأمثلةُ.

واحتسابا للأجر بقدر الطاقة ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره وذكره ويبغي لهم من لسان الصدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة ويحملونه على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه. إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجا قبله فورثه من بعده وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقا فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه وإما رجل وجد في بعض الكتب خللا فلم شعثه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه في ما زاد عليه غير مفتخر من ذلك بفعل نفسه[1].

وقد أخذ شمس الدين البابلي عنه هذه المقولة فشرحها دون أن ينبه إلى قائلها أو يشير إليه[2]، ربما لعدم علمه به، رحمهما الله تعالى فقال : لا يؤلف أحد كتابا إلا في أحد أقسام سبعة، ولا يمكن التأليف في

وقد عرف الخوارزمي الأعداد السلبية أيضا وجعلها في المعادلة كالأعداد الإيجابية، مضروبةً في أعداد إيجابية وفي أعداد سلبية (ومقسومةً ومقسوماً عليها) ومجموعةً إلى أعداد سلبية (ومطروحة ومطروحاً منها) كما وضع القواعد لذلك.

وللخوارزمي معادلات لا تزال أمثلة تصلح للتعليم إلى اليوم، منها:

المعادلة الأولى : $س^2 + 10س = 39$،

المعادلة الثانية : $س^2 + 21 = 10س$،

المعادلة الثالثة : $3س + 4 = س^2$ ،

المعادلة الرابعة : $س^2 + 9 = 6س$.

[1] كتاب الجبر والمقابلة، الخوارزمي، الجامعة المصرية، كلية العلوم، تقديم وتعليق: علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد، مطبعة بول باربيه، 1937م، ص20.

[2] وذكرها الثعلبي في بداية كتابه: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، وظنه القوم أنه الأول. وذكرها المقرّي في: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، بشيء من التفصيل والزيادة. ونظمها بعضهم فقال:

ألا فاعلمن أنَّ التأليف سبعة *** لكل لبيب في النصيحة خالص
فشرح لإغلاق وتصحيح مخطئ *** وإبداع حبر مقدم غير ناكص
وترتيب منثور وجمع مفرق *** وتقصير تطويل وتتميم ناقص

ونظمها أبو العباس الهلالي السجلماسي في قوله:

في سبعة حصروا مقاصد العقلا *** من التآليف فاحفظها تنل أملا
أبدع تمام بيان لاختصارك في *** جمع ورتب وأصلح يا أخي الخللا

وقد تتجدد بعد هذا بعض المقاصد: منها مثلا، نظم المنثور، جمع النادر، والتحقيق والضبط، والشكل لتصحيح الألفاظ فهذه أيضا من مقاصد العقلاء في التأليف.

ونظم هذه المقاصد من التأليف، الشيخ محمد علي بن عبد الودود بعد إطلاعه على شرح الشيخ المحدث محمدولد أبومدين لألفية العراقي في الحديث مقرضا إياها بقوله:

يحد ذوو التأليف مقصوده حدا *** بسبعة أقسام يعدونها عدا
وإني أرى الشيخ الإمام محمدا *** يزيد كثيرا لن يطيقوا له جحدا
كضبط لما عروا وإيضاح مشكل *** ونظم لمنثور وتقييد ما ندا
فيبديه درا في الطروس منظما *** وينظمه عقدا ويحكمه عقدا

غيرها، وهي : إما أن يؤلف من شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو طويل يختصره، دون أن يخل بشيء في معانيه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه، أوشيء مفرق يجمعه[1].

قلت : إلا القرآن فهو فوق كل هذا.. وأعظم من كل هذا.. وأبين من كل هذا.. وأمتن من كل هذا.. فيه العلم البيّن، والحكمة الباهرة، والهدى المستقيم، والنور المبين، والحق الساطع، والبرهان القاطع، والحجة الدامغة، والأدلة المانعة، والمنطق السليم، حلو ظاهره يأخذ بالألباب، عميق باطنه إليه ترفع هم العقلاء. من أراد به علما أدرك به.. ومن أراد به هدى هدي به.. ومن أراد به استدلالا وقف منه على الدليل.. ومن أراد به استبيانا وقف منه على البيان.

لم أقف على كتاب غير القرآن حفظ بمثل ما حفظ القرآن. فقد حفظه الناس تواترا مع اختلاف البلدان والأقاليم على أكثر أنحاء الأرض.

ولا يعلم كتاب واحد مثل القرآن الكريم عمل عليه دراسات وأُلِّفَ عليه وعلى علومه هذا الكم الهائل من كتب التفاسير والفقه والأحكام والقراءات والبلاغة واللغة والإعجاز والعلم وغيره ؟ بحيث يقول أي إنسان: إذا كان هذا الاهتمام بعلوم القرآن وآياته بل وحروفه، فكيف الاهتمام بالكتاب نفسه ؟

ولا عُلم كتاب واحد يتلوه هذا الكم من البشر في مشارق الأرض ومغاربها في آن واحد، غير القرآن.

ولا عُلم من كتاب على وجه الأرض، غير القرآن، إذا قرأت حرفا واحدا منه أخذت به حسنة، وارتقت روحك وكأنك في مجالس الملائكة الكرام ؟

ولا عُلم من كتاب على وجه الأرض تتنزل الملائكة بالسكينة على قارئه ؟

ولا عُلم من كتاب أكثر من القرآن قد تلقى الطعن من أعدائه منذ ألف وأربعمائة سنة وإلى الآن، ولا يزال هو الكتاب الأول في العالم انتشارا وحفظا وتلاوة ودراسة ؟

ولا عُلم من كتاب غير القرآن لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله.

ولو كان كاتبه محمدا صلى الله عليه وسلم لما قال فيه: عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى. ولما قال: ولا تكن للخائنين

وإنما ذكرت هذا، لخطإ القوم في أول من كتب في مقاصد التأليف. وإنما كان خطؤهم لاستهانة غير مقصودة بتراث علمي اسلامي كبير ما حفظوه ولا ذكروه.

ومما ينتبه له أن اعتبار هذه المقاصد في المؤلفات داع إلى الاقتصاد في المكتبة الاسلامية وعدم تكثير الأوراق بما لا يحتاج إليه.

[1] خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، دار صادر– بيروت، الجزء 2، ص453.

خصيما. ولما قال: وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه. ولما قال: عفا الله عنك لم أذنت لهم.. ولما قال: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين.. ولما قال: يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك.. ولو كان افتراه على الله لما قال: لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج.. بل قال: تزوج كما تزوج سليمان بتسع وتسعين، أو: تزوج كما تشاء كما يتزوج أقل ملوك العرب في ذلك العصر.

وكلما وصفته كان وصفه أكبر.. وكلما استكثرت منه كان هو الأكثر. وما يغنيك لفظي عن لفظه ولا وصفي عن وصفه.. فانظر كيف صفته في كلماته وكيف نعته في لفظ آياته.. فإنه من أعجب العجائب ما ستقف عليه منه.

نسبة القرآن:

واعلم أن القرآن هو الكتاب الوحيد في العالم الذي صح أن يسمى قرآنا وأن يوصف كذلك ولم يسبق أي كتاب قبله أن يصف نفسه بين كلماته كذلك. يقول تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[3] ويقول تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[4]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[5]، ويقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]، وغير ذلك من الآيات.

ولم يُسمَّ بالقرآن كتابٌ آخر، غير الوحي المنزل من الله تعالى على خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وسلم، كما لم يُسمَّ بلفظ الجلالة الله أحد إلا الله.

وعن لفظ القرآن، قال الشافعي إنَّه اسم جامد غير مشتق، وتقرأ بالتسهيل، هكذا: القران. وقال آخرون: هو مصدر من الفعل الماضي قرأ، على معان ثلاثة: التلاوة والجمع والاتباع.

---

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآية 185.
[2] سورة النساء، السورة 4، الآية 82.
[3] سورة المائدة، السورة 5، الآية 101.
[4] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 19.
[5] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 204.
[6] سورة يونس، السورة 10، الآية 37.

فعلى المعنى الأول: تلاوة وتلفُّظ الحروف المرسومة، والنطق بها على هيئتها التي كتبت بها. وعلى هذا المعنى قول جبريل عليه السلام لنبينا صلى الله عليه وسلم : إقرأ، أول نزوله بالوحي على نبينا صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا المعنى أيضا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[1].

وعلى المعنى الثاني: الجمع، وضم الشيء إلى الشيء الآخر. وضم الحروف والآيات والسور بعضها ببعض، شيء من هذا المعنى. تقول العرب: قَرَأْتُ الشيءَ قرآنا: جمعته وضممْتُ بعضَه إلى بعض. ومنه قولهم: ما قَرَأَتْ هذه الناقةُ سَلىً قَطُّ، وما قَرَأَتْ جَنِيناً قطُّ، أَي لم يَضْطَمّ رَحِمُها على ولد، كقول الشاعر:

هِجانُ اللَّوْنِ لم تَقْرَأْ جَنِينا

قال أَكثر الناس معناه لم تَجْمع جَنيناً أَي لم يَضطَمّ رَحِمُها على الجنين[2]. وفيه قول آخر: لم تقرأْ جنيناً أَي لم تُلْقه. فالقرآن، هو المجموع غير المتفرق، والمحفوظ غير المبدد، والمصون غير المضّيع، وهو الجامع لآيات الوعد والوعيد، والحِكَم والأمثال، والقصص والأحكام...

وعلى المعنى الثالث: اتباع ما فيه والعمل به، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾[3].

وجُمعت هذه المعاني الثلاثة، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ .:. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[4]، فتبين تعلق قرآنه الأولى بالجمع، فيكون مردها إلى كلمة قرأ بمعنى جمع، ومنه قَرَأْتُ القُرآن: لَفَظْت به مَجْمُوعاً أَي أَلقيته. وتعلقت قرآنه الثانية بالقراءة والإتباع فيكون مردها إلى كلمة قرأ أي ألقى وتلفظ بالكلام وعمل بما فيه.

ولا فرق في كل ذلك، فهو الجامع، المجموع، المقروء، المتلو، المتبع، المعمول بما فيه ... وهو القرآن وكفى. وإني ما وقفت على كتاب أو مقال إلا تخير له كاتبه عنوانا وتوقيعا.. أما القرآن فعنوانه : تنزيل من الرحمن الرحيم.. تنزيل من رب العالمين.. تنزيل رب العالمين.. إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون...الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان.. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام.

---

[1] سورة النحل، السورة 16، الآية 98.

[2] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، طبعة 2003، الجزء 12، ص 52.

[3] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 45.

[4] سورة القيامة، السورة 75، الآيات 17-18.

وقد اختُصَّ القرآن من شرائف الأسماء والصفات ما لم يشاركه فيه غيره[1]، من ذلك:

فهوالقرآن، وهو **الفرقان**، ومنه قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[2]. وسمي بذلك لأجل أنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء... ويقدم منهج الله للبشر المستمد من الوحي على مناهج البشر للبشر المستمدة من العقل, والتجربة، والحاجة.

وهو **الكتاب**، لقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، ونظائرها من الآي كثير.

والكتاب، اسم مصدر من كتب. نقول: كتب، يكتب، كتابةً، وكتاباً. ويطلق الكتاب في اللغة على مطلق الجمع، وعلى الغرض، وعلى الحكم والتقدير والقضاء، وعلى الإثبات، وعلى الثبوت، وعلى الرسالة، وعلى الصحف المجموعة، وعلى ما يكتب، أي المكتوب، وعلى الأجل. والكتيبة المجموعة، وهي بعض الجيش .

وسمي القرآن بالكتاب، لأمور:

الأول: لأنه المضموم بعضه إلى بعض غير المتفرق، فلم يذهب منه شيء ولم يضع ولم يحرف، ولم يستطع أحد أن يلحد فيه.

الثاني: لأنه كالكتيبة على عساكر شبهات الكفار والزنادقة، فهو الداحض للشبه، المهيمن على غيره بحيازة كمالات جنس الكتب السماوية.

الثالث : لاجتماع كل العلوم فيه.

الرابع: لأن الله تعالى ألزم فيه التكاليف على الخلق.

الخامس: لأنه مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ.

وهو، **كلام الله**، لقوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا

---

[1] وقد تعددت أسماؤه وصفاته. ومعلوم أن في تعدد الأسماء دلالة على الشرف والعظمة، كما بيَّن ذلك كل من ألَّف في جمع أسماء القرآن. وهي كذلك فتحُ أبوابٍ من أبوابِ استنطاقه وتدبره والنظر فيه.

[2] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 1.

[3] سورة البقرة، السورة 2، الآية 2.

[4] سورة البقرة، السورة 2، الآية 75.

[5] سورة التوبة، السورة 9، الآية 6.

انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

فهو عديم النظير، ويكفي له وصفا.

وهو **النور**، لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

والنور في اللغة للشيء الظاهر في نفسه والمظهر لغيره، كالشمس، لأنّها ظاهرة بنفسها ومظهرة للاشياء بإشراقها وضيائها. وهي لا تحتاج إلى مُظهر تكتسب من خلال إنارته قابليّة الظهور والتجلّي، فهي مضيئة مشرقة بنفسها، ولها نور وإشراق لا ينفك عنها تُضيء به الموجودات الواقعة في معرض إشعاعه .

وبإشعاع النور يري الإنسان الأشياء، لا يخفي عليه منها شيء، لكنّه يري النور نفسه بلا حاجة إلى مُظهر له أو دليل عليه، إذ النور نفسه مُظهر لنفسه دليل عليها، على العكس من الظُّلمة التي ذاتها عبارة عن الإبهام والجهل، علاوة على منعها رؤيةَ الموجودات الماثلة فيها القابعة تحت أُفقها

وهو **الهدى**، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[5].

وهو **الذِكْر**، كما في قوله تعالى :﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾[6]، وقوله تعالى:﴿...وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[7]، وقوله تعالى :﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[8]. والذِكْر: الشرف.

وهو الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور..

وهو التذكرة لمن يخشى..

وهو الهدى لمن أراد هدى.. يقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [1].

---

[1] سورة الفتح، السورة 48، الآية 15.
[2] سورة النساء، السورة 4، الآية 174.
[3] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 157.
[4] سورة البقرة، السورة 2، الآية 2.
[5] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 138.
[6] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 50.
[7] سورة النحل، السورة 16، الآية 44.
[8] سورة الزخرف، السورة 43، الآية 44.

وحاصل المعنى أنّ القرآن كتاب هداية لمن يسعي في تحصيل رضا الله ويسلك طريق القربة إليه. وهذه نكتة في غاية الأهمّيّة، ومعناها أنّ القرآن لا يسُوق الناس قهراً واضطراراً إلى سبيل الهداية، بل إنّه يهدي ويرشد ويوصل إلى الغاية من كان بصدد تهذيب نفسه وتزكيتها. ولو حصل ذلك بالقهر لفقد التكليف معناه.

وهو **الكتاب المُبين**، أي الكتاب الواضح الجليّ، باعتبار أنّ مادّة أبان يبين إبانةً تُستعمل متعدّيةً، كأبان الشيء إذا أظهره وأوضحه، أو لازمةً كأبان الشيء إذا ظهر واتّضح ، لذا فإنّ اسم الفاعل مبين باعتبار مجيئه صفةً للكتاب وعدم أخذه مفعولاً فإنّه يعطي معني اللازم ، فكتابٌ مبين، أي كتاب ظاهر بيّن جليّ.

أمّا جهة تسمية القرآن بالكتاب المبين، فلخلوّه من الالتواء والاعوجاج في الفهم، والإبهام في المعني، وتعقيد المطالب وتعسّر تحصيلها وإدراكها. فهو كتاب بيّن واضح سهل المؤنة خالٍ من الألغاز في التعبير، والعيّ والالتواء في البيان، وهو أُسلوب في الكلام بديع لا يُتعب القاري ولا تزيد قراءته إلاّ نشاطاً، والأخذ من ماء معينه ونبع حياته الزلال إلاّ ارتواءً.

وهو المبين للناس والموعظة للمتقين، يقول الله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [2].

وهو الشفاء والرحمة للمؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [3]. وهو مع ما فيه من صفة الشفاء والرحمة لأهل الإيمان.. لا يزيد الظالمين إلا خسارا.

واعلم أني لم ألتمس في هذا الباب، أن آتي على استقراء ما وصف به القرآن نفسه، فإن ذلك بعض ما لا يطمع فيه.. وإنما حسبي أن أوردت بعض الشذرات، وقدمت بعض الزهرات.. والكلام ليس له حد، وإن شئت قلت هو البحر.. غير أن البحر ساحله قريب والقرآن بعيد ساحله عميق قاعه بل هو فوق ذلك.. وأعظم من ذلك.. وحسبي وحسبك أن نقول أنه كلام الله.

كيف وصف النبي صلى الله عليه وسلم القرآن:

ذكر ابن أبي شيبة، في كتاب فضائل القرآن، حدثنا حسين بن علي عن حمزة الزيات عن أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الاعور عن الحارث عن علي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الاهواء: ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط

---

[1] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 9.

[2] سورة آل عمران، السورة 2، الآية 138.

[3] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 82.

المستقيم، هو الذي من عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، خذها إليك يا أعور[1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجَّة ريحها طيِّبٌ وطعمها طيِّبٌ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيبٌ ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيبٌ وطعمها مرٌّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرٌّ ولا ريح لها[3].. ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيءٌ أصابك من ريحه، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه[4].

ونقل ابن ماجة، حدثنا أحمد بن الأزهر. حدثنا عبد الرزاق. أنبأنا معمر عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل القرآن مثل الإبل المعقلة. إن تعاهدها صاحبها بعقلها أمسكها عليه. وإن أطلق عقلها ذهبت[5].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله، وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به، ونجاة من اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم حرف ولكن أقول ألف حرف ولام حرف وميم حرف. ولا ألفين أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة، وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله[6].

---

[1] رواه الترمذي(2908) والدارمي(435/2) والبغوي في شرح السنة(1181)، وأخرجه من طريق أخرى الطبراني في الكبير (160/84/20)، وفي مسند الشاميين (2206)، وأبو نعيم في الحلية (253/5) من طريق أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل، وفيه عمرو بن واقد وهو متروك، قاله (الهيثمي في المجمع 165/7).

[2] سنن الترمذي – فضائل القرآن (2913)، مسند أحمد – من مسند بني هاشم (223/1)، سنن الدارمي – فضائل القرآن (3306).

[3] الراوي: أبو موسى الأشعري، صحيح البخاري، الرقم: 5059.

[4] الراوي: أنس بن مالك، صحيح الترغيب، الألباني، الرقم: 3065.

[5] الراوي : عبدالله بن عمر، مسلم، صحيح مسلم، الرقم: 789.

[6] هذا الحديث الصواب فيه على الصحيح أنه موقوف على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من قوله، ومن رفعه فقد وهم فيه. قال الدار قطني عن الوجه الموقوف: وهو الصواب. وقال ابن الجوزي رحمه الله: يشبه أن يكون من كلام ابن

وأخرج الترمذي والدارمي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب انه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله ! وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك و تعالى، فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين و ذكره الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم[1].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه[2].

كيف وصف الصحابة رضي الله عنهم القرآن:

أخرج ابن الأثير في جامع الأصول، عن أمي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت : القرآن أكرم من أن يزيل عقول الرجال[3].

وذكر الدارمي، عن كعب رضي الله عنه، قال: عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهدا[4].

مسعود. إذا عرفت هذا: فاعلم رحمك الله أن هذا الكلام لا يقال من قبيل الرأي؛ فإن له حكم الرفع حكماً. وهو يرتقي بمجموع طرقه إلى درجة الصحيح لغيره والله تعالى أعلم.

[1] هذا الحديث رواه أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (29421) الترمذي في سننه(2967) والمروذي في قيام الليل (213) و الدارمي في سننه (3284)، ورواه البزار (750) وأبو يعلى (351) من طريق يعقوب بن إبراهيم بن سعد قال نا أبي عن ابن إسحاق قال نا محمد بن كعب القرظي عن الحارث بن عبد الله الأعور عن علي به ويختلف عن لفظ الترمذي بجعله الكلام من لفظ جبريل و السائل هو النبي صلى الله عليه وسلم، وسنده صحيح إلى الحارث.

[2] رواه مسلم (2699) بهذا اللفظ ؛ ورواه بنحوه أحمد : 2 / 252 ، والترمذي (2945)، وابن ماجة (225).

[3] جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني- مطبعة الملاح- مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، 1969م، الجزء 2، ص 466.

[4] رواه الدارمي في سننه، حديث رقم 3327.

وذكر، أعني الدارمي، عن قتادة رضي الله عنه، قال : ما جالس القرآن أحد فقام عنه إلا بزيادة أو نقصان، ثم قرأ قوله تعالى : وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين وما يزيد الظالمين إلا خسارا[1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: عليك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك في أهل السماء، وذكرك في أهل الأرض، وعليك بالصمت إلا في حق، فإنك تغلب الشيطان[2].

وفي نزهة الفضلاء، عن جندب، قال: أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن فإنه نور بالليل المظلم، وهدى بالنهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة، فإن عرض بلاء فقدم مالك دون دينك، فإن تجاوز البلاء فقدم مالك ونفسك دون دينك فإن المخروب من خرب دينه، والمسلوب من سلب دينه، واعلم أنه لا فاقة بعد الجنة ولا غنى بعد النار[3].

وروي عن أبي موسى، رضي الله عنه، أنه قال: إن هذا القرآن كائن لكم أجرا وكائن لكم ذكرا، وكائن بكم نورا، وكائن عليكم وزرا، اتبعوا هذا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط به في رياض الجنة، ومن أتبعه القرآن يزخ في قفاه فيقذفه في جهنم. قال أبو محمد : يزخ يدفع.

ونقل الدارمي، عن إياس بن عامر، قال : أخذ علي ابن أبي طالب بيدي ثم قال: إنك إن بقيت سيقرأ القرآن ثلاثة أصناف : فصنف لله، وصنف للجدال، وصنف للدنيا، ومن طلب به أدرك[4].

ونقل عن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه في نهج البلاغة : واعلموا ان هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش, والهادي الذي لا يضل, والمحدث الذي لا يكذب وما جالس هذا القرآن احد الا قام عنه بزيادة او نقصان : زيادة في هدى أو نقصان في عمي واعلموا انه ليس على احد بعد القرآن من فاقة, ولا لاحد قبل القرآن من غني فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم, فان فيه شفاء من اكبر الداء وهو

---

[1] فتح المنان، الدارمي، دار البشائر الإسلامية-بيروت-المكتبة المكية-مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1999م، الجزء 10، ص 448.

[2] روى الحديث ابن ابي عاصم في الجهاد برقم 28 عن الحسين بن الحسن المروزي، قال : حدثنا ابن المبارك، عن إسماعيل بن عياش، قال : حدثني عقيل بن مدرك، يرفعه إلى أبي سعيد الخدري أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أوصني ، فقال: عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام...

[3] نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي-محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، تحقيق: محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، الجزء 1، ص 258.

[4] سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، حديث رقم 3195.

الكفر والنفاق والغي والضلال فاسألوا الله به وتوجهوا اليه بحبه ولا تسالوا به خلقه انه ما توجه العباد إلى الله بمثله[1].

وقال رضي الله عنه : واعلموا انه شافع مشفع, وقائل مصدق, وانه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه, ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه, فانه ينادي مناد يوم القيامة : الا ان كل حارث مبتلي في حرثه وعاقبة عمله, غير حرثة القرآن فكونوا من حرثته واتباعه, واستدلوه على ربكم, واستنصحوه على أنفسكم, واتهموا عليه آراءكم, واستغشوا فيه أهواءكم العمل العمل..

وان الله سبحانه لم يعظ احدا بمثل هذا القرآن, فانه حبل الله المتين وسببه الامين, وفيه ربيع القلب, وينابيع العلم, وما للقلب جلاء غيره..

والله سبحانه يقول ما فرطنا في الكتاب من شئ فيه تبيان كل شئ وذكر ان الكتاب يصدق بعضه بعضا وانه لا اختلاف فيه فقال سبحانه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وان القرآن ظاهره انيق, وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات الا به...

ويقول رضي الله عنه : ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه، وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يدرك قعره، ومنهاجا لا يضل نهجه، وشعاعا لا يظلم ضوءه، وفرقانا لا يخمد برهانه، وتبيانا لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزما لا تهزم أنصاره، وحقا لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاجا لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمة، وحبلا وثيقا عروته، ومعقلا منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذرا لمن انتحله، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلجا لمن حاج به، وحاملا لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسم، وجنة لمن استلم، وعلما لمن وعى، وحديث لمن روى وحكما لمن قضى..

ونقل الترمذي، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال : إن أصغر البيوت بيت ليس فيه من كتاب الله شيء، فاقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه. بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم الم، ولكني أقول ألف ولام وميم[1].

[1] شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، 18-10.

كيف وصف القرآن غيرهم:

قال الاستاذ مصطفى صادق الرافعى رحمه الله تعالى : القرآن الفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها، وتصف الآخرة فمنها جنها وضرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب، وان أوعدت جعلت الالسنة ترعد من حمى القلوب، ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الايمان وجه الامان، وبينا هي ترف بندى الحياة على زهرة الضمير، وتخلق في اوراقها من معاني العبرة معنى العبير، وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير، ثم بيناهى تتساقط من الافواه تسافط الدموع من الاجفان، وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوح عليها اللسان، وتمثل للمذنب حقيقة الانسانية حتى يظن انه صنف آخر من الانسان، إذا هي بعد ذلك اطباق السحاب وقد انهارت قواعده، والتمعت ناره وقصفت في الجو رواعده، وإذا هي السماء وقد اخذت على الارض ذنبها واستأذنت في صدمة الفزع ربها، فكادت ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، وانما هي عند ذلك زجرة واحدة، فإذا الخلق طعام الفناء وإذا الارض مائدة[2].

وقال الامام الشاطبي:

وإن كتاب الله أوثق شافع *** وأغني غناء واهبا متفضلا

وخير جليس لا يمل حديثه *** وترداده يزداد فيه تجملا

وحيث الفتى يرتاع في ظلماته *** من القبر يلقاه سنا متهللا

هنالك يهنيه مقيلا وروضة *** ومن أجله في ذروة العز يجتلا

يناشد في إرضائه لحبيبه *** وأجدر به سؤلا إليه موصلا

فيا أيها القاري به متمسكا *** مجلا له في كل حال مبجلا

هنيئا مريئا والداك عليهما *** ملابس أنوار من التاج والحلا

فما ظنكم بالنجل عند جزائه *** أولئك أهل الله والصفوة الملا

---

[1] أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب : ماجاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر رقم (2910) 161/5 من حديث عبدالله بن مسعود ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم (2327) 9/3 : صحيح . وقد قرر الدكتور خالد أن الصحيح وقفه.

[2] تاريخ القرآن الكريم، محمد طاهر الخطاط، ملتزم بطبعه: مصطفى محمد يغمور، مطبعة الفتح بجدة– الحجاز، 1946م، الجزء1، ص14.

أولو البر والإحسان والصبر والتقى *** حلاهم بها جاء القران مفصلا

عليك بها ما عشت فيها منافسا *** وبع نفسك الدنيا بأنفاسها العلا

وقال حاتم الأصم :

تركت الأنس بالإنس *** فما في الإنس من أنس

وأقبلت على القرآن *** درسا أيما درس

عسى يؤنسني ذاك *** إذا استوحشت في رمسي

وقال آخر:

إلهَ العرش يا من مدَّ بَحرا *** من الغفرانِ أرجو منك غَفْرا

خلقتَ الكونَ من عَدم فأضحى *** بفضلِ يديكَ آلاءً وسَحرا

وهَيأتَ الثَرى رِزقا ومَأوى *** وللأخرى جَعَلتَ الرزقَ أَجرا

الفاتحة

وأنزلتَ الكتابَ هُدىً ونورا *** بفاتحةٍ تزيدُ القلب بشرا

حَمدنا واعتمدناهُ كِتابا *** يَجودُ برحمةٍ ويردُّ شرّا

البقرة

أُمرنا لم نُكابرْ ثُمَّ زدنا *** ببقرةِ آلِ إسرائيلَ ذكرا

مَضى مُوسى بهديهمُ فطاشوا *** وهمّوا في رسولِ الله نُكرا

فكان جزاؤهُم تيهاً ولعناً *** ونبذا من بَني حوّا وحجرا

آل عمران

وكانت آلُ عُمرانٍ وفاءً *** تَمدُّ نساءَنا بِرّا وطُهرا

النساء

فالآءُ النساء تجلّ فعلا *** وتمنحُ قلبنا حُبا وقدرا

المائدة

وتنفحنا بمائدةٍ تجلّى *** بها عفو الاله هُدى ونصرا

الانعام

وانعاما رأينا الخيرَ فيها *** يَزيدُ نتاجُها لله نَحرا

الأعراف والأنفال

وللأعرافِ نورٌ أي نُور *** يتمُ بها سَنا الأنفالِ بَدرا

التوبة ويونس

تُجابُ التّوبةُ المثلى بهذي *** وسورةُ يونسٍ بالحقِ عَشرا

هود ويوسف

وحسبك عبرة أصحابُ هودٍ *** ويوسفُ اذ رماه ذووه مكْرا

.....

عن بن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا قال لم قال ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله قال قد علمت قريش أني من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك إنك منكر له أو إنك كاره له قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وأنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم فاتحته قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعني حتى أفكر فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأثره من غيره فنزلت ذرني ومن خلقت وحيدا[1].

وذكر الآجري، في أخلاق أهل القرآن، الحديث 32: عن يحيى بن المختار، عن الحسن، قال: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يتأولوا الأمر من أوله، قال الله عز وجل: كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، سورة ص آية 29، وما تدبر آياته إلا اتباعه، والله يعلم، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم، ليقول قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفا، وقد والله أسقطه كله ما ترى القرآن له من خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس واحد، والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء تقول مثل هذا ؟ لا أكثر الله في الناس من هؤلاء.

[1] رواه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، الحديث رقم 3800. وهو حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجه.

الفصل الثاني: معنى المعارضة:

معنى المعارضة لغة:

والمعارضة لغة، من العرْض، بسكون الراء: خلاف الطول، وعَرُض الشيء يعرضُ عِرَضاً، فهو عريض [1]، وفي القرآن، قوله تعالى: ﴿ جنة عرضها ﴾، وقوله تعالى: ﴿ جنة كعرض ﴾.

والعُرضُ: الناحيةُ، ما لم تحدَّ طوله، يقال: ضربتُ به عُرْضَ الحائط، وعرض الجبل، وكذلك عُرض النهر، أي: ناحيته [2]. وفي القرآن، قوله تعالى: ﴿ جنة عرضها ﴾.

ونظرت إليه معارضة: إذا نظرت إليه من عُرْض، أي: من ناحية، وفي الشعر قول ابن الرومي:

إذا شمسُ الأصائلِ عارضَتها *** وقد كَرَبَتْ تَوارَى بالحجابِ

وقول الأبيوردي[3]:

عارضتها فاتَّقتْ طرفي بجارتها *** كَالشَّمْسِ عارَضَها غَيْمٌ يُواريها

وليس بعيدا عن هذا المعنى، قول الأخطل:

فعارَضَها يَهْوي وصَدَّتْ بوَجْهِها *** كما صدَّ من حسَ العدوَ المكالبُ

ويقال: أعرض لك الشيء من بعيدٍ فهو مُعرِضٌ، وذلك إذا ظهر لك، وبدا، والمعنى أنك رأيت عَرْضه[4]. وفي القرآن قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [5].

وفلانٌ يُعارضني أي: يباريني، وعارضته في السير إذا سرتُ حِياله وحاذيته، وعارَضَ الشيءَ بالشيءَ مُعارضةً قابَلَه، وعارَضْتُ كتابي بكتابه أَي قابلته[6]، ومنه ما روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة فكان جبريل عليه السلام يقرأ والنبي يسمع حينا، والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وجبريل يسمع،

---

[1] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، 2003، حرف العين، الجزء 10، ص102.

[2] جمهرة اللغة، ابن دريد، موقع الوراق، الجزء 1، ص409.

[3] البيت من قصيدة مطلعها: وَسَرْحَة بِرُبا نَجْدٍ مُهَدَّلَة *** أغصانها في غديرٍ ظلَّ يرويها

[4] مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، 2002م، الجزء4، ص220.

[5] سورة الأحقاف، السورة 46، الآية 24.

[6] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، 2003، حرف العين، الجزء 10، ص103.

حتى كان العام الذي توفي فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فعارضه جبريل بالقرآن مرتين. وما رواه بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أقبلت فاطمة تمشي، وكانت مشيتها مشى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مرحبا بابنتي، ثم أجلسها عن يمنيه، أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثا فبكت، فقلت لها: لم تبكين.. ثم أسر إليها حديثا فضحكت، فقلت ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن، فسألتها عما قال: فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم، فسألتها، فقالت: أسر إليّ: أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضور أجلي، وإنك أول أهل بيت لحاقا بي فبكيت، فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين، فضحكت.

وعارضْتُ فلاناً مِثْلَ ما صَنَعَ، إذا أتيت إليه مثل ما أتى إلي، وفعلت مثلَ ما فعل، ومنه اشتقت المعارضة، ومنه قول الخالديان:

ووالله ما عارضتُ جودك ساعة *** بشعري إلاّ كان أشعر من شعري

ومنه قول المعري:

إذا سلَقَتْ عِرْسُ الفتى في كَلامِها *** فما هيَ إلاّ سِلقَةٌ عارَضتْ سِلْقا

ومنه قول ابن الجهم:

كُلَّما غَنّى بَنانٌ *** اِسمَعي أَو خَبِّرينا

أَنشَدَت فَضلٌ أَلا حُي *** بيتِ عَنّا يا مَدينا

عارَضَت مَعنىً بِمَعنىً *** وَالنَدامى غافِلونا

أَحسَنَت إِذ لَم تُجاوب *** هُم دِيارُ الظاعِنينا

لَو أَجابَتهُم لَصِرنا *** آيَةً لِلسّائِلينا

وعارضت فلاناً: أي أخذ في طريق، وأخذت في طريق غيره ثم لقيته[1]. ومنه قوه تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾[2].

وعارضت الرجل بكذا: إذا قال قولاً، فاعترضت في جوابه، وجابهته به[3].

---

[1] كتاب العين، الفراهيدي، تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، الجزء1، ص273.

[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 224.

[3] انظر، جمهرة اللغة، ابن دريد، موقع الوراق، الجزء 1، ص411.

والعارضان للإنسان صفحتا خديه، وفي الشعر قول الأعشى:

غَرّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُها *** تَمشِي الهُوَينا كما يَمشِي الوَجِي الوَحِلُ.

وقول عنترة:

إذ تستبيكَ بذي غروب واضح *** عذبٍ مقبلهُ لذيذُ المطعم

وكأَنَّ فَارَة تاجرٍ بقسيمَة *** سبقتْ عوارضها اليكَ من الفم

وهذه المسألة عَروض هذه أي نظيرها، ومعارض الكلام ومعاريضه كلام يشبه بعضه بعضاً، والمعارضة المباراة.

وعَارَضَ فلان فلانًا : ناقضَهُ في كلامِهِ وقاومَه وخالفه ورفض قولَه أو عملَه وناقَشه فيه، وجانبه وعدَل عنه، وقاطعه ... وعَارَضَه: باراه وأتى بمثْل ما أَتى به. وعارضَهُ في الشِّعر، جاراه في شِعره وأتى بمثله أو أحسَن منه. فهذه خلاصة المعنى اللغوي. وهو حسي أولاً في السير والعمل، ومعنوي في القول ونحوه.

وبالجملة فإن الناظر في معاجم اللغة العربية، يرى أن الفروع المتشعبة من هذا البناء كثيرة جداً، أهم ما يعنينا منها المعارضة بمعنى المقابلة على سبيل الممانعة، أو إقامة الشيء في مقابلة ما يناقضه.

المعارضة اصطلاحا:

والمعارضة في الاصطلاح، وإن اختلفت العبارات في تعريفها، فإنها تبنى على إقامة الدليل على خلاف ما أقامه عليه الخصم. ودليل المعارض إن كان عين دليل المعلل يسمى قلباً، وإلا، فإن كانت صورته كصورته يسمى معارضة بالمثل، وإلا فمعارضة بالغير. وقريب منه مفهوم المناقضة والمناظرة. وليست المعارضة هي التقليد ومحض المحاكاة والمضاهاة، إنما هي مظهر من مظاهر الإبداع وصورة من صور التفوّق ومجاراة الأعلام ومضاهاتهم. وننتهي بذلك إلى أن المعارضة حالة تتجاوز التقليد إلى الإبداع والمتابعة إلى الابتكار.

وبتنزيل هذا التعريف على القرآن يكون معناه، الإتيان بكلام يقابل القرآن في الفصاحة، والبلاغة، والبيان والتفصيل، والهدى، والعلم.... بهدف المناقضة، والمغالبة.

وشأنه شأن المعجزة، لم يرد لفظ المعارضة في القرآن الكريم، غير أن مفهومه واضح في آياته، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فليَأتوا بحديثٍ مثله إنْ كانوا صادقين ﴾ [1].

وقد ورد اللفظ في السنة، ولكن على غير مفهومها الذي نورده الآن، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: إن جبريل كان يعارضني القرآن كلّ سنة، وإنه عارضني العام مرّتين.

[1] سورة الطور، السورة 52، الآية 34.

وتزخر صفحات التاريخ بالمعارضات الشعرية والنثرية، وإنما قصدنا أن نورد أشهرها في هذه السطور حتى يتبين وهن ما يزعم الزاعمون أنه معارضة للقرآن.

ومن أشهر ما تداولته صفحات التاريخ في هذا الباب، ما رُوي أنَّ امرئ القيس لما كان عند بني طَيء زوَّجوه منهم أم جندب وبقي عندهم ما شاء الله، وجَاءهُ يوما علقمة بن عبدة التَّميمي وهُو قاعدٌ في خيمته، وخلفهُ أم جندب فتذاكرَا الشعر. فقالَ امرؤ القيس : أنَا أشعرُ منك، وقال علقمة : بل أنَا أشعر منك، فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خَليلَيَّ مُرَّا بِي عَلى أُمّ جُنْدَبِ *** نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المعَذَّبِ

ثم قال علقمة من القافية والروي قصيدته التي مطلعها:

ذَهبتَ منَ الهُجرانِ فِي غَيرِ مَذهَبٍ *** وَلم يَكُ حقّاً كلّ هَذا التَّجَنّب

واستطردَ كلٌّ منهمَا في وصف ناقته وفرسه، فلما انتهيا تحاكما إليها فحكمت لعلقمة بالجودة والسبق.

فقال لها امرؤ القيس: بم فضلت شعره علي شعري ؟

قالت: لأن فرس ابن عبدة أجود من فرسك.

قال: وبماذا ؟

قالت: إنك زجرت، وضربت بسوطك. وهي تعني قوله في وصف فرسه :

فللساق ألهوب وللسوط درة *** وللزجر منه وقع أخرج مهذب

أما علقمة فقال:

فأدركهن ثانيا من عنانه *** يمر كمر الرائح المتحلب

ففرسه أجود من فرسك، لأنه قد أدرك الخيل ثانيا من عنانه من غير أن يضربه بسوط أو يحرك ساقيه. فقال امرؤ القيس: ما هو بأشعر مني، ولكنك له وامقة، فطلقها فخلف عليها علقمة، فسمي بذلك الفحل[1].

ومما يحكى من المعارضات، قول جميل:

عرفت مصيف الحي والمتربعا ***كما خطّتِ الكفُّ الكتابَ المرجعا

فقال عمر بن أبي ربيعة معارضا:

ألم تسألِ الأطلالَ والمتربعا *** ببطنِ حليات دوار سبلقعا.

[1] انظر الموشح، للمرزباني، ط . السلفية 1385 هـ ، ص 26، 27.

وكان ابن أبي ربيعة يكثر من معارضة جميل، من ذلك معارضته لرائية جميل التي مطلعها:

أغاد أخي من آل سلمى فمبكر؟ *** أبن لي أغاد أنت أم متهجر

فقال عمر بن أبي ربيعة معارضا:

أمِنْ آلِ نُعْم أنتَ غادٍ فمبكرُ *** غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجّرُ

ومما يحكى من المعارضات الشعرية، قول مسلم بن الوليد، صريع الغواني، متغزلاً واصفاً الخمر:

أَديرا عَليَّ الراحَ لا تشربا قبلي *** وَلا تَطلُبا مِن عِندِ قاتِلَتي ذَحلي

فَما حَزَني أَنّي أَموتُ صَبابَةً *** وَلَكِن عَلى مَن لا يَحِلُّ لَهُ قَتلي

فقال ابن عبد ربه معارضا:

أَتَقتُلني ظُلماً وتجحَدُني قَتلي *** وقد قامَ مِن عينيكَ لي شاهِدا عَدْلِ

أَطُلَّابَ ذَحلي ليسَ بي غَيرُ شادنٍ *** بعينيهِ سِحرٌ فاطْلبوا عنده ذحلي

وقيل تعليقا وإعجابا برصفه: ولاشكَّ في أنَّ الشاعر المجيد هو الذي يرتفع بهذا التراث ويوسع مداه ويفتح آفاقاً جديدة توجه الأجيال الوجهة الصحيحة[1].

ولو كان حال المقال في المعارضة الشعرية لأكثرنا. ولكن الأمر لا يعدو أن يكون بيان المقال بضرب المثال، فما تقدم يغني.

وفي النثر مثل ذلك، فقد عارض أبو المغِيرة عبدُ الوهاب بن حَزْمٍ بديعَ الزمانِ الهمذاني في رسالته التي كتبها ردّاً على مَنْ أبدل الزمانُ كِبْرَهُ صَغاراً، وترفُّعَهُ ضِعَةً ومهانة، فعاد يطلب مودّة مَنْ أساء إليه، ويستجدي حُسْنَ مَعْشَرِ مَنْ تطاول عليه، فقال ساخراً : وردتْ رقعتُكَ، اطال اللهُ بقاءك، فأعَرْتُها طَرْفَ التعزُّزِ، ومددتُ إليها يدَ التقزُّزِ، وجمعتُ عنها ذيلَ التحرُّزِ، فلم تندّ على كبدي، ولم تَحْظَ بناظري ويدي، وخَطَبْتَ من مودّتي ما لم أجدك لها كفؤاً، وطلبتَ من عِشْرتي ما لم أَرَكَ لها أرضاً... وتناسيتَ أيامك إذ تُكَلِّمُنا نَزْراً، وتلحظنا شذراً.. فعُرِضَتْ رسالةُ بديع الزمان على أبي المغيرة فعارضها بِرُقْعَةٍ يقول فيها: ورد كتابُكَ تَنشُدُ ضالّةَ وُدّنا، وتَرفعُ خَلَقَ عهدِنا، وتطلُبُ ما أفاتَتْهُ جريرتُكَ إلينا، وذهبتْ به جنايتُك علينا، أيّامَ غُصْنُكَ ناضِر، وبَدْرُكَ زاهر، لا نجدُ رسولاً إليك غيرَ لحظةٍ تَخْرِقُ حجابَ الدُموع، أو زَفْرةٍ تُقيمُ مُنآدَ الضُلُوعِ، فإنْ رُمْنا شكوَى يَنْفُثُ بها مصدورُنا، أو يستريحُ إليها مَهْجُورُنَا، لقينا دونها أمْنَعَ سدّ، وأفدحَ رَدّ.

[1] الأدب الأندلسي، للدكتور منجد مصطفى بهجت، ص 87.

وقال الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير، مخاطباً أحمد بن عبد الوهّاب: وأشهد بعد أنك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ، وتعاقله، ثم تطارفه وتطاوله، وتغني مع مخارق، وتنكر فضل زرزور، وتستجهل النظّام، وتستبرد الأصمعي، وتستغبي قيس بن زهير، وتستخفّ الأحنف بن قيس، وتبارز أبا الحسن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم تخرج من حدّ الغلبة إلى حدّ المراء، ومن حدّ الأحياء إلى حدّ الأموات. ولكنك تأتي بشيء تكاد السموات والأرض يتفطرن منه، وتنشقّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّا.

فماثله ابن زيدون في رسالته مخاطباً ابن عبدوس، متهكماً به:... وقيس بن زهير إنما استعان بك، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك، وسحبان إنما تكلّم بلسانك، وعمرو بن الأهتم إنما سَحر ببيانك، وأنّ الصلح بين بكر وتغلب تمّ برسالتك .

قلت: وإنك متى نظرت بصفاء جوهر، ونقاء مورد، وطهارة مصدر، إلى هذه المعارضات، لتقف على معين زاخر من التأليف، وأثر وافر من التصنيف، وأنت في كل ذلك تسمع، وتطرب لكل ما هو أروع. والحق ما قاله الله تعالى: إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله.

وإنك متى أوقفت قلبك على قراءة واعية للأصل اللغوي للفظة المعارضة باعتبارها سِمَةً من سمات التفوق وأمارة من أمارات الإجادة، تشي باحتضانها لمنظورين دلاليين يتكاملان أكثر مما يتفاضلان ، هما : المماثلة التي ترتكز على غريزة المحاكاة[1]، والمقابلة التي تُجَسِّدُ غريزةَ المنافسة التي فُطِرَ الإنسانُ عليها[2]، والمعارضة بهذين المنظورين المتكاملين، لا تحدُث إلا حين يأنس المعارِض من نفسه رغبة التحدِّي وحُبَّ الغَلبِ، وفي هذا ما فيه من شهوة التفوق والتفرُّد بالكمال[3]. بل إن المعارضة قد تعد معيارا للتفوق حتى قال أبو عامر أحمد بن شُهَيْد مترجما لعبد الرحمن بن أبي فَهْدٍ: إنه غزير المادة، واسع الصدر، حتى إنه لم يَكَدْ يُبْقي شاعراً جاهليّاً ولا إسلاميّاً إلا عارضه وناقضه، وفي كل ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمَدِ، لا يني ولا يُقَصِّرُ.

قلت: وليس لمعارض في معارضته للقرآن من ذلك شيئا، سوى سقوط الكلم، وهفوة القلم. بل لم تكن لمن ادعى أو ادعي عليه أنه حاول معارضة القرآن من بضاعة يقام لها سوق، ولكن صولة حاسد واندفاع مغتر. فما سمى لهم شرف، ولا بقي في العالمين لهم ذكر.

---

[1] شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، محمود عباس العَقّاد، ص89-90.

[2] الجارميات، علي الجارم، ص222.

[3] معارضات البارودي في ضوء الدراسات النقدية الحديثة، لمحمد فتّوح أحمد، ص4.

وإن كل كلام إذا تكرر مجته الأسماع، وملته الطباع، فاستُثقِل سمعا، ومُل جنانا وروعا، وصُم صداه وسُئم مداه.. إلا القرآن فكلما رددته أكثرت له استحسانا، وازددت به اطمئنانا، وتيقنت أنه استجد ولم يخلق، ولم يُعف عليه ولا تردم.

ولقد قالوا وهم يحلون القرآن في الآيات، وكذبا قالوا ووهما، أن لا آية فيه، ولا معجزة. وأنكروا عنه كل فضل. وإنما فعلوا ذلك حتى تظهر أخبارهم في الناس فينالوا شهرة، فما وجدوا في معاجزته إلا كل عثرة. وأنى لهم أن يعاجزوه، ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [1]، ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [2].

وبالجملة، فقد انقسم القوم في موضوع إعجاز القرآن على قسمين، قسم منكر وقسم مثبت. فالمنكرون ثلاثة: معارض، ومتهم بالمعارضة، ومعرض. نتناول في هذا الباب موضوع المنكرين ونعترض في الأثناء إلى موضوع الصرفة: مفهومه ومن قال به من المنكرين، ونتطرق إلى الرد العلمي المنطقي عليهم. والله نسأل التوفيق.

الفصل الثالث: المعارضون:

فإن قيل: هل عورض القرآن ؟

قلنا: إنهم وإن زعموا معارضته لا يصح أن يقول أن القرآن قد عورض، فإن كل ما توهموه لا يصح أن يكون معارضة ولا يرقى، وإنما هي جِنة العقل وشِقوة اللسان تُغرِق صاحبها. حتى أضحى مجانين العشق بشعرهم أكثر ذكرا من مجانين من ادعوا باطلا معارضة القرآن.

وأول العجز في معارضة القرآن، أنه لا يدرى من أين يؤتى فيعارض. فإن انسياب العبارة وجريانها على الوجوه اللازمة، وارتفاع قدر الكلام والبلاغة فيه، وزينة اللفظ وروعة تركيبه، فات قدرة صناع الكلم، وجلى التدبر فيه الفهم عن الوهم، حتى بدت معاجزة من توهم معاجزة القرآن زعما أو قريبا من الزعم، وأول الزعم وهم يحلون القرآن في الآيات، أن لا آية فيه، ولا معجزة. وهم في ذلك، كما ذكرنا، على ثلاثة:

الأول: المعارضون، من المعارضة، وإلا فجميعهم معارضون من الإعراض. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ

[1] سورة سبأ، السورة 34، الآية 5.

[2] سورة الأحقاف، السورة 46، الآية 32.

الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1].

والثاني: من اتهم بالمعارضة، ادعاء منه على سبيل الجد أو الهزل وإن لم يفتنه عقله فيشهرها في الناس.

والثالث: المعرضون، وادعاءاتهم.

والأول، كما ذكرنا هم المعارضون. فقد تهيأ لهؤلاء المعارضين أنهم كملوا، وأن لهم الصدارة فيما وهموا وتخيلوا، وظنوا أنهم كما قيل: سهم لا ينمى رميه، وبحر لا ينكش أذيه، ولكن رب شامخ بأنفه، ثان من عطفه، انكسر شموخه، وتقاربت حتوفه. وهم على هذا الأمر ثلاثة:

الأول: أن يفتري على الله كذبا، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾، وهذا النوع بادعائه أنه يوحى إليه، أو قدرته على الإتيان بمثل القرآن ما كان يكذب بنزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم، ولا ينكر بعثته ولا نبوته، فهو ادعاء ثبوت ما ليس موجودا دون انكار ماهو موجود. وأول من ضرب بسهم العطب، وعرف في العالمين بالكذب في هذا الباب: مسيلمة.

والثاني: وهو مدعي ما ليس له، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾، وهو اثبات ما ليس موجودا ونفي ما هو موجود.

والثالث: وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾،

النضر بن الحارث:

وهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، وقيل بن كلدة بن علقمة[2] بن عبد مناف بن عبد الدار، يكنى أبا قائد. يقال عنه أنه كان من أشد قريش تكذيبا للرسول صلى الله عليه وسلم، وأكثرهم أذى له، ولأصحابه، وكان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود، والنصارى[3]، إذ كان كثير السفر إلى فارس، والحيرة، وكان قد سمع من قصص الرهبان، وأخبار رستم وأسفنديار، فلما سمع القرآن، ورأى فيه أخبار الأنبياء، والأمم قال: لو شئت لقلت مثل هذا[4]. وكان يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في المجالس التي يجلس بها ثم يقول للناس: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلمّوا، فأنا أحدّثكم أحسن من حديثه، ثم

---

[1] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 93.

[2] قيل ابن علقمة بن كلدة وقيل ابن كلدة بن علقمة.

[3] الكامل في التاريخ، الشيباني، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة 2، 1415هـ، الجزء 1، ص594.

[4] أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام– القاهرة، الطبعة 2، 1396هـ، ص 169.

يحدثهم عن ملوك فارس، ورستم ،وأسفنديار، ثم يقول: ما محمد أحسن حديثاً منّي[1]. وكان يحدث بأخبار الأعاجم، فيقرؤها في أندية قريش فيستملحونها، ويقول: إنما يأتيكم محمد بأساطير الأوّلين.

ومما ينسب إليه من المعارضة، قوله: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً[2]. وروى الطبريّ في تاريخه ما يقرب من هذه السخافات، وعزاها لمسيلمة[3] .

أُسِر يوم بدر، ومات. واختلف الناس في أمر موته، فذكر قوم أنه لما أسر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه، إذ كان من شر عباد الله، وأكثرهم كفراً ، وعناداً ، وبغياً ، وهجاءً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله[4]، وهذه رواية لا إسناد تقوم عليه، وأكثر الباحثين على أنها لا تصح[5]. وذكر ابن سلام في الطبقات عن ابن جعدبة أنه أصيب بجراحة وكان فيه كبر وطغيان فقال: ما أكلت ولا شربت ما دمت في أيديهم، حتى ارتث به جرحه وتمادى، فمات من جرحه.

مسيلمة الكذاب:

وهو، مسلمة بن حبيب الحنفي، المعروف بالكذاب. وكفى بما عرف به لقبا. وقد رام لغلط في نفسه معارضة القرآن فانظر ماذا جنى، ومن غروره ما ونى. فلو أنه عرف قدر نفسه لزكاها.. ولكن سبق عليه القول فضلته.. وإن أشد عدو للمرء نفسه، ولو علم لتجنب مدارك العطب. وربما هو تكبره صيره في هذه المزالق حتى صار في الناس معيرة.

وقد ظهر مسيلمة الكذاب هذا في اليمامة، وادعى النبوة وادَّعى هبوط الوحي عليه، وأنه في ذلك قد جاءهم بقرآن كالذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتناقلت كتب التاريخ كلامه على وجه السخرية والاستهزاء لضحالته وضآلته.

ومما نسب إليه قولا:

قوله: سبح اسم ربك الأعلى، الذي يسر على الحبلى، فأخرج منها نسمه تسعى، من بين أحشاء ومعى، فمنهم من يموت ويدس في الثرى، ومنهم من يعيش ويبقى إلى أجل ومنتهى، والله يعلم السرّ وأخفى، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى.

---

[1] جامع البيان، الطبري، دار المعارف، الجزء 19، ص 239.

[2] ذكره السيوطي في الدرّ المنثور، دار الفكر-بيروت، طبعة 1993م، الجزء 3، ص 318.

[3] تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة 1، 1407هـ، الجزء 2، ص 276.

[4] الكامل، للشيباني، الجزء1، ص 594.

[5] يقول الألباني: هذه القصة على اشتهارها في قصص السيرة ودورانها أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لعلي أو أمره بقطف رأس النضر بن الحارث رواها ابن اسحاق بلا اسناد، بلاغا مرسلا، ورواها الواقدي وهو متروك.

وقوله: إذكروا نعمة الله عليكم وأشكرها، إذ جعل لكم الشمس سراجًا، والغيث ثُجاجا، وجعل لكم كباشًا ونعاجا، وفضة وزجاجاو وذهبًا وديباجا. ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رمانًا وعنبًا وريحانًا، وحنطة وزؤانا.

وقوله: والشمس وضحاها. في ضوئها ومنجلاها، والليل إذا عداها، يطلبها ليغشاها، فأدركها حتى أتاها، وأطفأ نورها فمحاها[1].

وقوله: ياضفيدع نقّي كم تنقين، نصفك في الماء، ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين[2].

ونقل القزويني قوله: والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فُضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فأمنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه[3].

وقوله : والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، أنه لعجب محض، وقد حُرّم المذق، فما لكم لا تمجون[4].

وقال: الفيل وما أدراك ما الفيل، له ذنب طويل، ومشفر وثيل، وإن ذلك من خلق ربنا النبيل[5].

وقال: إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وهاجر، إن شأنيك هو الكافر[6].

ونقل عنه كلامه في فض خلاف وقع في قوم من أصحابه مدعيا أنه أوحي به إليه قال: والليل الأطقم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من أحرم.

وقال: والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس.

واسمع قولا آخر منه ادَّعى أنه أوحي به إليه: لقد أنعم الله علي الحبلي أخرج منها نسْمة تسعي من بين صفاق وحشي.

---

[1] ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الأولى، 1965م، ص 147.

[2] المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جواد علي، دار الساقي، الطبعة 4، 2001م، المجلد 16، ص 391.

[3] كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، تحقيق : علي حسين البواب، دار الوطن – الرياض – 1418هـ – 1997م، الجزء1، ص878.

[4] سيف الله: خالد بن الوليد، تركي بن الحسن الدهماني، أمواج للنشر والتوزيع، ص 63.

[5] كشف المشكل من حديث الصحيحين، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، دار الوطن – الرياض – 1418هـ – 1997م، تحقيق : علي حسين البواب، الجزء1، ص878.

[6] آثار البلاد، القزويني، ص91.

وهو في كل ذلك، يمزج انحطاط المعنى وانقطاع اللفظ. فلا يعلم لما يقول حكمة، ولا يقوم قاربه على مرسى. ولعل ما نسب إليه ليس كله منه، ولكن لما أضحى سخرية الساخر وهزأة البر والفاجر روي ذلك عنه، ونسب كل وضيع إليه لوضاعته.

ويعجب المرء أن يتبعه أحد لأجل هذا الكلام، لكن ربما هو التعنت والتكبر والعصبية. فقد ذكر قول قائلهم: والله يا مسيلمة إنك لتعلم إننا لنعلم إنك لكذاب ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.

ثم وفوق كل هذا لم يعلم له من الشريعة إلا كل مخرم، فإنه أباح لهم الزنا وأحل الخمر ووضع لهم من الصلاة[1]، حتى روي عن الأعشى أنه قال قبيل عزمه الرحيل إلى الحجاز للدخول في الإسلام: ارجع إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين، يقصد الخمر والزنا[2].

وقد قتل مسيلمة، وانتهي إلى لا شيء، ولم يحفظ مما كتبه وانتحله إلا ما يضحك الثكلى، ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3].

عبد الله بن أبي السرح:

وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب بن خزيمة، أسلم قديماً، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأزله الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل يوم الفتح، ففر إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه من الرضاعة، أرضعت أمُّه عثمانَ، فغيّبه عثمان حتى أتى به إلى محمد بعد ما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له، فصمَت طويلاً ثم قال: نعم، فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما انصرف عثمان قال محمد: ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه. فقال رجل من الأنصار: فهلاّ أومأتَ إليَّ؟ فقال: إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين[4]، وحسُن إسلامه بعد ذلك. شهد فتح مصر، وكان والياً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه على الصعيد، وولاه عثمان رضي الله عنه مصر كلّها، وكان محموداً، غزا إفريقية، وذات الصواري، وأقام بعسقلان بعد مقتل

---

[1] السيرة النبوية، لابن هشام، الجزء4، ص245.

[2] كتاب الأغاني، للأصفهاني، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وآخرون، القاهرة: دار الكتب، 1932- 1959م، الجزء 9، ص127.

[3] سورة الشورى، السورة 42، الآية 24.

[4] سنن أبي داود ، لأبي داود، دار الفكر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد:كتاب الحدود ، باب : الحكم فيمن ارتد، رقم (4358) (128/4).

عثمان رضي الله عنه، وكره أن يكون مع معاوية رضي الله عنه. وكانت وفاته سنة 37هـ[1]، بالرملة فارّاً من الفتنة، وهو في الصلاة[2].

أما قصته مع معارضة القرآن فهي فيما ذكره المفسرون أنه لما نزلت الآيات من سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ .:. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ .:. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[3]. دعاه النبي فأملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾. عَجِب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال: تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هكذا أُنزلت عليّ ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. فشكّ عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً، لقد أُوحي إليّ كما أُوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال، أو قال: ,عن كان كاذبا فقد عارضته[4].

سجاح :

وهي سجاح بنت الحارث بنت سويد بنت عقفان التغلبية[5]، تُكنى أم صادر، وزوجها أبو كحيلة، كان كاهن اليمامة، تنبأت في بني تغلب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم، وكانت ساحرة من نصارى العرب، وتبعها خلقٌ كثير، وتزوجت بعد أبي كحيلة بمسيلمة الكذاب، وكان صداقها أن مسيلمة وضع عن قومها صلاتين، صلاة الفجر، وصلاة العشاء، بعد مقتل مسيلمة هاجرت إلى البصرة، وعاشت إلى خلافة معاوية رضي الله عنه[6].

ومما نقل أنها ادعت أنه أنزل عليها، قولها: يأيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يبغون.

وقولها: إن رب السحاب يأمركم أن تغزوا الرباب.

وقولها: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب.

---

[1] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، الجزء 5، ص 144.

[2] التاريخ الكبير، البخاري، دار الفكر، تحقيق: هاشم الندوي، بلا سنة نشر ولا رقم طبعة، الجزء 5، ص 29.

[3] سورة المؤمنون، السورة 23، الآيات 12-14.

[4] معالم التنزيل، البغوي، دار المعرفة- بيروت، الطبعة 2، 1407هـ، تحقيق: خالد العك مروان سوار، الجزء 2، ص116.

[5] المنتظم، ابن الجوزي، الجزء 4، ص 22.

[6] الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، دراسة وتحقيق عادل أحمد، والشيخ علي معوض، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة 2، 2002م، كتاب النساء رقم (11367)، الجزء 8، ص 198.

وقولها لما أن قال لها قومها أن شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد غلظ أمر مسيلمة: عليكم باليمامة، ودفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة[1].

ابن الراوندي:

وهو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، ونسبته إلى راوند، قرية من قرى قاسان بنواحي أصفهان، أحد مشاهير الزنادقة، كان أبوه يهودياً، فأظهر الإسلام، ويقال: إنه حرّف التوراة كما عادى ابنه القرآن، وألحد فيه. له من الكتب المصنفة نحو مائة وأربعة عشر كتاباً، منها الزمرّدة يزري فيه على النبوات، وله كتاب الفريد، وكتاب إمامة المفضول الفاضل، ووضع كتاباً فى الرد على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعة عشر موضعاً، ونسبه إلى الكذب عني النبي صلى الله عليه وسلم ووضع كتاباً لليهود والنصارى، وفضل دينهم على المسلمين والإسلام، توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين[2].

يقول ابن الراوندي في كتاب الزمردة: إن الذي يأتي به الرسول إما يكون معقولا أو لا يكون معقولا. فإن كان معقولا فقد كفانا العقل بإدراكه، فلا حاجة لرسول. وإن كان غير معقول فلا يكون مقبولا.

وهذه عادة في استدلالات الفلاسفة السفسطائية، إذ من عادتهم حسن اختيار العبارة في النظم والأقيسة، حتى يبدو حكمهم للوهلة عند البعض صحيحا منطقيا. فينخدع بها السذج من الناس لعدم وقوفهم على مكامن الخلل في مقدمة الاستدلال وجوهره ومؤداه.

ذلك أن العقل لا يدرك كل الأشياء استقلالا، وإنما يدرك بعضها استقلالا، وبعضها بواسطة تثير دفائنه، وبعضها يستعجم عليه إدراكه لها جملة. إنما العقل كالعين، لا يبصر كل شيء إلا إذا استوضحها الضوء.

ومجمل كتابه الزمردة، وإن زعم البعض أنه يريد به معارضة القرآن، ليس فيه معارضة للقرآن وإنما طعن في القرآن بادعاء أنه بإمكان أي أديب الإتيان بمثله، وأنه إنما شغل العرب عن ذلك الحروب.

قال ابن الجوزي: وقد نظرت في كتاب الزمرد، فرأيت فيه الهذيان البارد الذي لا يتعلق بشبهة حتى إنه يقول فيه: ،نجد في كلام أكثم بن صيفي أحسن من إنّا أعطيناك الكوثر. ويضيف ابن الجوزي عن ابن الراوندي أنه أخذ يعيب القرآن، ويدّعي فيه لحناً، واستدرك ذاك الخلف بزعمه على الأعادي الفصحاء الذين سلموا لفصاحته[3].

ويقول ابن الراوندي في كتابه الفريد: إن المسلمين احتجوا بكتابهم القرآن الذي أتى به النبي محمد، بأنه معجز لم يأت أحد بمثله ولن يقدر أحد أن يعارضه، فيقال لهم: غلطتم، وغلبت العصبية على قلوبكم فإن

---

[1] فتوح البلدان، البلاذري، دار ومكتبة الهلال- بيروت، 1988م، ص 307.

[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م، الطبقة 16، المسألة 14، ص 60.

[3] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية-بيروت، ، 1992، الجزء 4، ص 74.

مدعيا لو ادعى أن اقليدس لو ادعى أن كتابه لا يأتي أحد بمثله لكان صادقا، وأن الخلق قد عجزوا عن أن يأتوا بمثله.. أفإقليدس كان نبيا ؟

وهذا استدلال فاسد من وجوه:

الأول: أن اقليدس قد ألف كتابه في الهندسة، والهندسة علم لا يتقنه إلا نفر قليل من الناس، أما القرآن فهو كتاب مادته لغة للبشر جميعا.

والثاني: لو أن اقليدس ادعى أن لا أحد يستطيع معارضته، لوجه لمن درس الهندسة. ولكن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم لما تحدى البشر لم يجز أن يقال له ذلك، لأنه ما من أستاذ تعلم ولا على فيلسوف درس.

والثالث: أن اقليدس يعلم مسبقا أن علم الهندسة علم مكتسب، فلم يتجرأ على التحدي، وهو يعلم أن كل علم مكتسب يتطور. وأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم يعلم أن علمه إنما كان وحيا يوحى، فلما كان وحيا لا يتسنى لأحد أن يكتسبه بمحض عقله ونظره في الكون.

والرابع: مع خوضه حق الخوض في كل حقيقة يحوم حولها العارف الإلهي، والمصلح الديني، والمصلح السياسي، والمصلح المدني الاجتماعي، والمصلح التأريخي، والنبي المتعرض للغيب، فيوفّي كل حقيقة حقّها على النحو الباهر، مع الاستقامة في المسلك، والاطّراد في المجرى، والانسجام في البيان.

والخامس: أنه لو فعل، لعارضه كثير من الرياضيين، فإن اكتشافات العلماء في الرياضيات لم تأفل بعد اقليدس ولا غير اقليدس، وفوق كل ذي علم عليم.

يقول ابن الراوندي في كتابه الدامغ: إنما أهلك الله ثمود لأجل ناقة وما قدر ناقة !

وكأنه في ذلك يستعظم أن يكون ذلك في القرآن كونه، بحسب ما توهم، ينافي المنطق. وفي كل كتبه لم يعارض القرآن.

ومما يروى أنه ألف هذا الكتاب في الرد على القرآن، صنفه لابن لاوي اليهودي الذي لجأ إليه بعد أن فر من سجنه، ولم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات[1]. وقد قيل فيه: وأما الدامغ: فما إخاله دَمَغَ إلا من ألفه، وبسوء الخلافة خَلَفه...[2].

وقد زعم قوم أن ابن الراوندي حاول في كتابه التاج محاكاة القرآن.

[1] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية-بيروت، ، 1992، الجزء 4، ص 69.

[2] رسالة الغفران، المعري، تحقيق وشرح: محمد عزّت نصر الله، المكتبة الثقافية-بيروت، د.ط و د.ت، ص: 239-240.

ويرد المعري هذا الزعم فيقول: وأما تاجه فلا يصلح أن يكون فعلا ... وهل تاجه إلاّ كما قالت الكاهنة: أفٍّ وتُفّ وجوربٌ وخفّ . قيل: وما جورب وخف؟ قالت: واديان بجهنّم.

قال العباسي: ومما ألفه من كتبه الملعونة كتاب التاج يحتج فيه لقدم العالم[1].

فمحاولة ابن الراوندي في التاج إنما كان من هذا الوجه الوضيع. وهذه ليست بمعارضة.

قال ابن كثير: وصنف كتاباً في الرد على القرآن سماه الدامغ، وكتاباً في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سماه الزمردة، وكتاباً يقال له التاج في معنى ذلك[2].

روي أن ابن الراوندي هو اجتمع بأبي علي الجبائي يوماً على جسر بغداد، فقال له: يا أبا علي ألا تسمع شيئاً من معارضتي للقرآن، ونقْضي له، فقال له: أنا أعلم بمخازي علومك، وعلوم أهل دهرك، ولكن أحاكمك إلى نفسك فهل تجد في معارضتك له عذوبة، وهشاشةً، وتشاكلاً وتلازماً، ونظماً كنظمه، وحلاوةً كحلاوته؟ قال: لا والله، قال: قد كفيتني، فانصرف حيث شئت[3].

ويكفينا حكمه على نفسه.

عبد الكريم بن أبي العوجاء:

روي عن هشام بن الحكم أنه قال: اجتمع في بيت الله الحرام أربعة من مشاهير الدهرية، وأعاظم الأدباء في العصر العباسي، وهم: عبد الكريم بن أبي العوجاء، وأبو شاكر الديصاني، وعبد الله بن المقفع، وعبد الملك البصري. فخاضوا في حديث الحج ونبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وما يجدونه من الضغط على أنفسهم، من قوة أهل الدين، ثم استقرت آراؤهم على معارضة القرآن، الذي هو أساس الدين ومحوره، ليسقط اعتباره من معارضتهم إياه، ومباراتهم له. فتعارض كل واحد منهم أن ينقض ربعاً من القرآن إلى السنة التالية، فإذا انتقض كله . وهو الأصل . انتقض كل ما يبني عليه أو يتفرع منه. فتفرقوا على أن يجتمعوا في العام القابل.

---

[1] معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، العباسي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب-بيروت، الطبعة1، 1367هـ،الجزء 1، ص 156.

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الاولى، 1988م، الجزء 11، ص112.

[3] معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، العباسي، عالم الكتب-بيروت، الطبعة1، 1367هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء 1، ص 157-158.

ولما اجتمعوا في الحج القابل. وتساءلوا عما فعلوه، اعتذر ابن أبي العوجاء قائلاً: أدهشتني آية ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]، فشغلتني بلاغتها وحجتها البالغة.

واعتذر الثاني وهو الديصاني قائلا: أدهشتني آية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[2]، فشغلتني عن عمله.

وقال ابن المقفع: أدهشتني آية نوح: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[3]، فشغلتني عن الفكرة في غيرها.

وقال رابعهم وهو البصري: أدهشتني آية: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[4]، فشغلتني بلاغتها الموجزة عن التفكر في غيرها.

المتنبي:

وهو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي الأديب الشهير بالمتنبّي[5]. قيل أنه تنبأ في بادية السماوة، ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدية، فقاتله، وأسره، وشرّد مَن كان اجتمع إليه من كلب، وكلاب، وغيرهما من قبائل العرب، وحبسه في السجن حبساً طويلاً، فاعتل، وكاد يتلف، فاستتابه، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه من النبوّة، ورجوعه إلى الإسلام، وأنه تائب منه، ولا يعاود مثله، وأطلقه[6].

ومما نسب إلى المتنبي أنه ألف سورا يعارض بها القرآن الكريم، وكان تلاها على البوادي زاعما أنها قرآن أنزل عليه، ومما يروى، منها قوله:

والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار، امض على سننك، واقف إثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضلّ عن سبيله[7].

---

[1] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 22.
[2] سورة الحج، السورة 22، الآية 73.
[3] سورة هود، السورة 11، الآية 44.
[4] سورة يوسف، السورة 12، الآية 80.
[5] سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م، الطبقة 20، المسألة 16، ص 199.
[6] مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات باشا، العدد 48، ص 171.
[7] تاريخ بغداد، البغدادي، دار الكتب العلمية-بيروت، د.ط ود.ت، الجزء 4، ص 104.

وكان يذكّر بقرآنه الذي زعمه في مجلس سيف الدولة، فينكره، وقال له ابن خالويه النحوي في ذاك المجلس : لولا أن الآخر جاهر لما رضي أن يدعى بالمتنبي لأن متنبي معناه كاذب، ومن رضي أن يدعى بالكاذب، فهو جاهل، فقال : أنا لست أرضى أن أدعى بهذا، وإنما يدعوني به مَن يريد الغض مني، ولست أقدر على الامتناع[1].

قُتل سنة أربع وخمسين وثلاثمائة[2].

وزعموا في قصة مقتله أنه اعترك مع رجل من بني أسد يقال له فاتك بن أبي جهل بن فراس بن بداد، فلما رأى أن الغلبة في غير جانبه فرّ، فقيل له: لا يتحدث عنك بفرار، وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني *** والحرب والضرب والقرطاس والقلم

فكرّ راجعاً، فقتل[3]، فهو الذي قتله شعره.

المعرّي:

وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد التنوخي، المعري، اللغوي، الشاعر، كان متضلعاً من فنون الأدب، قرأ النحو، واللغة على أبيه بالمعرة، له التصانيف الكثيرة المشهورة، والرسائل المأثورة، عمي من الجدري في صغره، سمى نفسه رهين المِحْبِسَيْن للزومه منزله، ولذهاب عينيه[4].

قال فيه ابن كثير: كان ذكياً، ولم يكن زكياً.

كان في بعض أشعاره ما يدل على زندقته، وانحلاله من الدين. ومن الناس من يعتذر عنه، ويقول: إنه كان يقول ذلك مجوناً، ولعباً، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، وقد كان باطنه مسلما. ويزعم البعض أنه كان فاسد العقيدة يظهر الكفر، ويزعم أن له باطناً، وأنه مسلم في الباطن[5]. ومن مثله يعتذر له لو كان في دار كفر، فكيف وهو في ديار الإسلام.

---

[1] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، 2010م، الجزء 1، 388.

[2] تاريخ بغداد، البغدادي، دار الكتب العلمية-بيروت، د.ط ود.ت، الجزء 4، ص 105.

[3] بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن أبي جرادة، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر-بيروت، الطبعة 1، 1988م، الجزء 2، ص 681.

[4] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت، الطبعة 1، 1994م، الجزء1، ص 113-116.

[5] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، تحقيق: محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة1، 1986م، الجزء 2، ص282.

ولست أميل، في هذا البحث، إلى محاكمة المعري، وليس هذا موضوعنا. فما يهمنا ما اتهم به من ادعائه معارضة القرآن، أو ادعاؤهم عليه ذلك.

وإنه إن ادعى أو ادعي عليه لم يبلغ للقرآن معارضة ولا محاكاة. وتوفي المعري سنة تسع وأربعين وأربعمائة بالمعرة، نسبة إلى معرة النعمان، وهي بلدة صغيرة بالشام بالقرب من حماة.

وممن اتهم أنه عارض به القرآن، مع أنه لم يصرح بذلك أنكر أن يكون كتبه في معارضة السور، كتابه الموسوم بالفصول والغايات. قال ابن الجوزي[1](153): وقد رأيت للمعري كتاباً سماه الفصول والغايات يعارض به السور والآيات، وهو كلام في نهايات الركة والبرودة، فسبحان مَن أعمى بصره، وبصيرته، وقد ذكر على حروف المعجم في آخر كلماته، فما هو على حرف الألف: طوبى لركبان النعال المعتمدين على عصى الطلح يعارضون الركائب في الهواجر والظلماء، يستغفر لهم قحة القمر، وضياء الشمس، وهنيئاً لتاركي النوق في غيطان الفلا يحوم عليها ابن داية يطيف بها السرحان، وشتان[2].

ويحكى عن أبي العلاء المعري في الكتاب الذي أملاه، وترجمه بالفصول والغايات أنه قيل له: أين هذا من القرآن، فقال: لم تصقله المحاريب أربعمائة سنة[3]. وفي رواية أنه قيل له عندما عارض القرآن العزيز: ما هذا إلا مليح إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن، فقال: حتى تصقله الألسن أربعمائة سنة، وعند ذلك انظروا كيف يكون[4].

ومما يروى أيضاً من معارضة أبي العلاء المعري للقرآن الكريم ما ذكره ابن أبي جرادة عن ابن سنان الخفاجي أن بعض أرباب الفصاحة نظموا على أسلوب القرآن الكريم، فأظهره قوم وأخفاه آخرون، ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه: أقسم بخالق الخيل، والريح الهابة بليل، بين الشرط ومطالع سهيل، إن

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الاولى، 1988م، الجزء 12، ص74.

[2] ولا يوجد هذا النص الذي نسبه ابن الجوزي للمعري في كتابه الفصول والغايات في المطبوع، غير أن جواز أن يكون منه ظاهرة لثلاثة أسباب: الأول: أنه على نمط المسرود في كتاب الفصول والغايات يأتلف مع نظمه، ويؤاخي أسلوبه، ويماثل منهجه. الثاني: أن ابن الجوزي صدّره بعد عزوه بقوله: فما هو على حرف الألف، وهذا شأن كتاب الفصول والغايات، فالمطبوع يحوي سبعة فصول، أولها فصل غاياته الألف ، وآخرها فصل غاياته خاء. وأما السبب الثالث فهو ما ذكره محقق الكتاب كون بداية الكتاب المطبوع مبتورة، وهذا يعني أن هناك بعض النصوص التي تقع تحت فصل الألف غير موجودة، والأغلب أن منها النص الذي أورده ابن الجوزي.

[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م، المسألة 18، ص 31.

[4] بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن أبي جرادة، دار الفكر-بيروت، الطبعة 1، 1988م، تحقيق: د. سهيل زكار، الجزء 2، ص880.

الكافر لطويل الويل، وإن العمر لمكفوف الذيل، اتق مدارج السَّيْل، وطالع التوبة من قُبَيْل، تَنْجُ، وما أخالُك بناج[1].

وقوله: أذلت العائدة أباها،

وأضاءت الواهدة ورباها،

والله بكرمه احتباها،

أولاها الشرف بما جناها،

أرسل الشمال، وصباها، ولا يخاف عقباها.

قال ابن أبي جرادة: وهذا الكلام الذي أورده ابن سنان هو في كتاب الفصول والغايات في تمجيد الله تعالى والعظات، وهو كتاب إذا تأمله العاقل المنصف علم أنه بعيد عن المعارضة، وهو بمعزل عن التشبه بنظم القرآن العزيز والمناقضة[2].

وسواء قصد المعارضة أم لم يقصد، وبيَّت النية لذلك أم ارعوى. فإنه على فصاحة ما أنشأ وظرفه وعجب ما ألف في صحفه، فإن مبلغه أن استحى أن يقول أنه أراد به معارضة أو قصد به مناقضة، أو كان من همه محاكاة، وفي همته مجاراة لما أنزله الله تعالى على قلب نبيه صلى الله عليه وسلم. ولا يؤاخذ مثله بشيء إذا رام من قصد معارضته الوقوف على الحق، وقد وقف واعترف. فاسمع لقوله، للقرآن واصفا وعنه منافحا:

وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجَّة ومقتدِ، أنَّ هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بهر بالإعجاز، ولقي عدوّه بالأرجاز، ما حُذي على مثال، ولا أشبه غريبَ الأمثال، ماهو من القصيد الموزون، ولا الرَّجز من سهل وحزون، وإن الآية منه أو بعض الآية، لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جُنْح غسقٍ، والزّهرة البادية في جدوبٍ ذاتِ نسق، فتَبارك الله أحسنُ الخالقين[3].

وخير عندي أن أسمع هذا منه من أن أسمع الطعنات فيه من غيره. فهو في وصفه صدق وإن أراد بصدقه مداراة والله أعلم بالنوايا.

---

[1] الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، المعري، في فصل غاياته جيم، ص 313.

[2] بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن أبي جرادة، دار الفكر-بيروت، الطبعة 1، 1988م، تحقيق: د. سهيل زكار، الجزء 2، ص881.

[3] رسالة الغفران، المعري، صححها: ابراهيم اليازجي، مطبعة بالموسكي – مصر، الطبعة1، 1907م، ص 241.

ناصر الدين الظافر:

وهو من مجاهيل المؤلفين، سمى نفسه ناصر الدين الظافر، وهو اسم مستعار، ألف كتابا عنوانه: حسن الايجاز في إبطال الإعجاز. وطبع هذا الكتاب في المطبعة الانجليزية الأمريكية في بولاق مصر سنة 1912، مما يؤكد أن الكاتب إما تبشيري أو واقع تحت تأثير التبشير أو أن تكون المؤسسات التبشيرية هي التي كانت وراء كتيبه. واحتوى الكتاب على عينات من اللغط، لم تخلو من تخرصات وهرطقة. وقد ابتدأه ببحث يفيد إمكانية إيجاز وإختصار القرآن الكريم، وإستبدال ألفاظه بألفاظ أخرى.

فقال في معارضته سورة الكوثر: إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر، ولا تعتمد قول ساحر.

وظنه أن المعارضة في العربية هي هذه. وغفل عن معنى المعارضة، إن كان فقهها أصلا، فمال إلى المحاكاة الجانبية. وهو في ذلك يقلد من سبقه من المدعين. فقد أخذ بعضها من مسيلمة الكذاب على ما نمي إليه. فلم تختلف مقولته عما كتبه مسيلمة الكذاب في نفس الموضوع حيث قال: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، وإن مبغضك رجل كافر.

وقال في معارضة الفاتحة: الحمد للرحمن، رب الأكوان، الملك الديان، لك العبادة، وبك المستعان، إهدنا صراط الإيمان.

وحسبنا هذا إخبارا عنه، فلا أظنه يرقى كي نسمع منه المزيد.

حميد الأزهري:

لا زلت أذكر سنة 1993، وأنا تلميذ بالثالثة ثانوي، هذا الاسم وقد نشر في مقال لأحد الصحف التونسية أحسبها صحيفة الأنوار، وقد ادعى النبوة من مكان إقامته في باريس وادعى أن الله قد أوحى إليه بكتاب. وقد كان جوابه لما سأله الصحافي الذي نشر المقال: قد علمنا أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين، فكيف تدعي أنك نبي، فأجاب: هو نعم خاتم النبيين في الشرق، في مكة، وأنا بعثت في باريس، ولا يتضاد ذلك فأنا بعثت مصدقا له ولغيره من الأنبياء.

ومن جملة ما ادعى أنه أوحي إليه: بسم الله رب الأكوان ورب العرش العظيم.. ولقد ابتلينا النساء بالحمل ليذقن العذاب الأليم ثم إنهن في الآخرة لفي جحيم.

أنيس شوروش:

لاهوتي من مواليد الناصرة بفلسطين، قتل اليهود عائلته، فانتقل إلى الأردن، ثم إلى الولايات المتحدة، وحصل على درجة البكالوريوس في علم الاجتماع من جامعة ميسيسبي، ودرجة الماجستير في اللاهوت من

الدائرة العمومية في نيو أورليونز، ودرجة الدكتوراه في الكهنوت من معهد لوثن رايس، ودرجة الدكتوراه في فلسفة الدين من المعهد الأمريكي للاهوت في ديتون، ميسيسبي[1].

وهذا اللاهوتي المتأمرك له علاقة وطيدة بصناع القرار في أمريكا، وهو يحمل بين أضلعه حقداً على الإسلام لا يخفيه.

ينسب إلى شوروش أنه مؤلف كتاب الفرقان الحق، الذي يعارض به القرآن الكريم. والفرقان الحق، هو عبارة عن كتاب صغير، يتألف من عدد من الموضوعات، كل موضوع يقع تحت اسم خاص، كهيئة سور القرآن الكريم، وبلغت تلك الموضوعات سبعاً وسبعين، مع مقدمة وخاتمة، ومن الأمثلة على أسماء تلك السور التي تضمنها هذا الكتاب: الفاتحة، المحبة، المسيح، الثالوث، المارقين، الصّليب، الزنا، الماكرين، الرعاة، التحريف، الجنة، العبس، الشهيد.....الخ، ولا يعدم من اطلع على الكتاب أن يلاحظ محاولته تقديم الكتاب مشابها شكلا للقرآن من حيث ترقيم جمله، وطريقة خطه، وغلافه.

ومع أن مؤلف هذا الكتاب يكتنفه الغموض، إلا أنه يكاد يجمع الكتاب أن الواضع الحقيقي لكتاب الفرقان الحق، هو أنيس شوروش.

ومما جاء في نصوص الكتاب: يا أهل النفاق من عبادنا الضالين لا تستكبروا، ولا تقولوا ما ليس لكم به علم، فليس الحرث بمدرك كنه الزرع، ولا هذا بمدرك كنه الدابة، ولا تلك بمدركة كنه الإنس، ولا الإنس يعقل كنهها، ولكل جعلنا شرعة، ومنهاجا.

وورد أيضا: إنا أنزلناه فرقاناً حقاً، مصدقاً لقولنا في الإنجيل الحق، ومذكراً للكافرين فسنتنا واحدة، وآيتنا واحدة، لا نبدلها في إنجيل حق، أو في فرقان حق، ولا يغيرها زمان أو مكان، ولا ينسخها الثقلان، ولا أهل الضلال والبهتان.

ومنه ما نصه: ومثل الذين كفروا وكذبوا بالإنجيل الحق أعمالهم كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال الأكيد.

ولا يعدم من له أدنى إلمام بالعربية أن يفصل بين فصاحة القرآن، وركاكة ما وسم بالفرقان الحق.

الفصل الرابع: المتهمون بالمعارضة:

وممن اتهم بالمعارضة:

[1] عن موقع http://www.almotamar.com.ly (بتصرف).

ابن المُقَفَّع:

وهو عبد الله بن المقفع أحد البلغاء، والفصحاء، ورأس الكتاب، وأولي الإنشاء، كان من مجوس فارس، وأسلم، وكان اسمه قبل الإسلام روزبة، ويكنى أبا عمرو، فلما أسلم تسمى عبد الله واكتنى بأبي محمد، وكان يتهم بالزندقة، ولي والده خراج فارس للحجاج، فخان، فعذبه الحجاج، فتقفعت يده[1].

قال الخليفة المهدي بن المنصور: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفّع[2].

وقال الذهبي: وكان ابن المقفع، مع سَعَة فضله، وفرط ذكائه، فيه طيش[3].

وحُكِيَ عنه أنه كان كريم النفس. من ذلك ما نقل عنه أن جاراً له ركبه دين، فأراد بيع داره، فبلغ ذلك ابن المقفّع، وكان يجلس في ظل دار جاره، فقال: ما قمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها مُعْدِماً، وبتّ واجداً، فحمل إليه ثمن الدار، وقال: لا تَبِعْ[4].

عاش ستاً وثلاثين سنة، مات في سنة خمس وأربعين ومائة. ويروى في قصة موته أنه كان يعبث بسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، أمير البصرة، وينال من أمه، ولا يسميه إلا بابن المغتلمة. فلما جاء أمر من المنصور بقتل ابن المقفع، قتله، وقطع أطرافه عضواً عضواً، وهو يلقيها في التنور، حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور، وقال: ليس عليّ في المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس[5].

وقد كان اتهم بمعارضة القرآن.

ويروى أن ابن المقفع، وكان فصيحاً بليغاً، بل قيل: إنه أفصح أهل وقته رام أن يعارض القرآن، فنظم كلاماً، وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرؤها، يعني قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا

---

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م، الجزء 6، ص 208.

[2] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر–بيروت، الطبعة 1، 1994م، الجزء2، ص 151.

[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م، الجزء 6، ص 209.

[4] عيون الأخبار، ابن قتيبة، موقع الوراق، الجزء1، ص 462.

[5] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر–بيروت، الطبعة 1، 1994م، الجزء2، ص 152.

سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، فرجع ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً، وما هو من كلام البشر[2].

وقال الباقلاني: يزعمون أنه اشتغل بذلك، يعني بالمعارضة، مدة، ثم مزق ما جمع، واستحيا لنفسه من إظهاره، فإن كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد، ولا يمنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء ثم يلوح له رشده، ويتبين له أمره، وينكشف له عجزه.

وقال: ادّعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرة والتليمية، وهما كتابان، أحدهما يتضمن حكماً منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل فليس فيها شيء بديع في لفظٍ ولا معنى، والآخر في شيء من الديانات[3]. وقد نص ابن المقفع في مقدمته أن فيه جسام حِكَم الأولين وقولهم[4].

قال الرافعي: ولكنه في المعارضة ليس هناك لا قصداً ولا مقاربة، ونحن لا نرى فيه شيئاً لا يمكن أن يؤتى بأحسن منه، وما كل ممتع ممتنع[5].

ومما جاء في ما ألف، قول ابن المقفع: لا يُقْذَفَنَّ في روعك أنّك إن استشرت الرِّجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك[6].

وقوله: يا طالب العلم والأدب اعرف الأصول والفصول.... وإن ابتليت بالسلطان فتغوث بالعلماء، واعلم أن قائل المدح كجارح نفسه[7] .

ومما نص عليه ودعا إليه: أنه على العاقل أن يرفع حاجته لربّه ويتزود لمعادٍ[8] .

ويقول: الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى إلى خلقه، وأعظمها منفعة[9].

يقول: فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنب الكبائر، وتؤدي الفريضة، فالزم ذلك لزوم

---

[1] سورة هود، السورة 11، الآية 44.

[2] روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ، الجزء 12، ص 63.

[3] إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف–مصر، الطبعة5، 1997م، ص 32.

[4] الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن القفع، دار صادر–مصر، ص: 10.

[5] تاريخ آداب العرب، الرافعي، دار الكتاب العربي، الجزء1، ص 179.

[6] الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن القفع، دار صادر–مصر، ص: 18.

[7] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية–بيروت، ، 1992، الجزء 8، ص 52.

[8] الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن القفع، دار صادر–مصر، ص: 46.

[9] الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن القفع، دار صادر–مصر، ص: 60.

من لا غنىً له عنه طرفة عين[1].

ويقول: الرجال أربعةٌ: جواد، وبخيل، ومسرف، ومقتصد، فالجواد الذي يُوَجّه نصيب دُنياه جميعاً في أمر آخرته[2].

وما يهمنا هو الحكم على التهمة لا على المتهم، فإن ما اتهم به أنه معارضة للقرآن لا يعدو أن يكون حكما مجموعة بأسلوب أدبي رفيع، غير أنه مع رفعته لا يصح أن يرتفع فيكون للقرآن معارضا.

الكندي:

وهو يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، أبو يوسف، اشتهر بالطب، والفلسفة، والهندسة، والفلك، وكان رأساً في حكمة الأوائل، ومنطق اليونان، والتنجيم، والطب، وغير ذلك.

قال الذهبي: كان يقال له فيلسوف العرب، وكان متهماً في دينه بخيلاً ساقط المروءة، وله نظم جيد وبلاغة وتلامذة[3].

وقال ابن خلدون: كان يعقوب بن إسحاق الكندي منجم الرشيد والمأمون، وأورد ابن خلدون العديد من التواريخ التي تنبأ بها الكندي نحو نزول عيسى عليه السلام، ونهاية دولة بني العباس، وتواريخ أخرى، وكلها نبوءات كاذبة[4].

وينقل المفسرون عند تفسيرهم لمستهل سورة المائدة أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم، اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياما كثيرة، ثم خرج فقال: والله ما اقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث، وحلّل تحليلا عاما ثم استثنى بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أَجْلاد. يريد قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[5].

ومع أن الكندي كان بليغاً إلا أنه لم يكن ضليعاً بلغة العرب. قال ابن الأنباري قوله: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس، يريد أحدهما المبرد محمد بن يزيد أو ثعلب أحمد بن يحي وكلاهما يتكنى بأبي

---

[1] الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن القفع، دار صادر–مصر، ص: 10–11.

[2] الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن القفع، دار صادر–مصر، ص: 80.

[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م، الجزء 12، ص 337.

[4] المقدمة، ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر–بيروت، الطبعة الثانية، 1988م، ص 326، 336، 338.

[5] سورة المائدة، السورة 5، الآية 1.

العباس، فقال له، والقائل هنا الكندي: إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العباس: في أيِّ موضع وجدت ذلك ؟ فقال: أجدُ العرب يقولون: عبد الله قائمٌ، ثم يقولون: إنَّ عبد الله قائمٌ، ثم يقولون: إن عبد الله لقائمٌ، فالألفاظ متكرِّرةٌ والمعنى واحدٌ، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفةٌ لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائمٌ: إخبارٌ عن قيامه، وقولهم: إنّ عبد الله قائمٌ: جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إنّ عبد الله لقائمٌ جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظُ لتكرر المعاني، قال: فما أحار المتفلسف جوابا[1].

ولا يمنع أن يكون الكندي قد اعتدّ ببلاغته، فأراد أن يجاري القرآن في نظمه، فلما أمعن النظر وتأمَّل في نظمه أحجم عن المعارضة.

ولست في مقام تقرير تهمة المعارضة على أحد، ولا أنكر على أحد إن كان في نفسه ريب فحاول المعارضة ليتجلى الحق له، ويظهر له القول البين الفصل في عظمة القرآن الذي هو كلام الله، وكونه فوق طاقة البشر الإتيان بمثله. وإن كنت أنكر على من يفعل ذلك على سبيل المماراة أو التكبر فأنى يرعوي إلى الحق من كان الكبر دافعه.

وأنا في كل ما تقدم من قصص المعارضين والمتهمين، إنما أنقل أخبار القوم وما قيل فيهم وعنهم. وغايتي أن أقدم الحجة على أن كلام الله لا يجارى ولا يمارى ولا يحاكى ولا يعارض، تعيى الألسنة ويبقى لسانه بالحق ناطقا، ويهد كل بنيان ويبقى صرحه على أركانه واقفا، وتهرب الأعوان ويبقى هو العون والعز والحق المبين، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تُكشَف الظلمات إلا به.

وإني أبرأ إلى الله أن أتهم بريئا أو أقدح في مؤمن، وإن اجتمع عليه الخلق بالتهمة. غفر الله لنا ولأموات المسلمين أجمعين. فقد فاؤوا إلى رب رحيم يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، وما أنا ممن يستطيع تحمل عبء تهمة أتقولها على من ليست فيه.

اللهم أحسن ختامنا، ولا تخزنا يوم العرض عليك.

الفصل الخامس: الصرفة:

فلما تحقق عجز العالمين عن الإتيان بمثل القرآن. حسن أن نبين مصدر هذا الإعجاز. فقد تقرر عند جمهور العلماء ممن سلك بيان هذا الإعجاز أن القرآن الكريم معجز بذاته، لا لسبب خارج عنه. بينما قرر

[11] المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة الأولى، 1998م، الجزء 2، ص 388.

البعض أن ذلك ما كان إلا صرفا وصرفة[1]، بمعنى أن إعجاز القرآن ليس أمرا ذاتيا في القرآن إنما هو لأمر خارج عنه، فكانت هذه الصفحات لبيان مضمون قول هؤلاء، ودلالته، وحججهم فيه، وبيان ردها.

والحق أن البحث في أسباب نشأة القول بالصرفة لا يكشف عن رأي قاطع يوضح المصدر الذي نبعت منه هذه الفكرة, لذا يظل القول بمصدرها أمرا اجتهاديا لا يمكن الجزم به.

والصرفة في اللغة من الصرف، والصَّرْفُ، كما في لسان العرب[2]، رَدُّ الشيء عن وجهه صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفاً فانْصَرَفَ وصارَفَ نفْسَه عن الشيء صَرفَها عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثم انْصَرَفوا ﴾[3]، أَي رَجَعوا عن المكان الذي استمعُوا فيه وقيل انْصَرَفُوا عن العمل بشيء مما سمعوا ﴿ صَرَفَ الله قلوبَهم ﴾، أَي أَضلَّهُم الله مُجازاةً على فعلهم وصَرَفْتُ الرجل عني فانْصَرَفَ. وقوله تعالى: ﴿ فما يَسْتَطِيعُون صَرْفاً ولا نَصْراً ﴾[4]، أَي ما يستطيعون أَن يَصْرِفُوا عن أَنفسهم العَذابَ. والصَّرْفُ أَن تَصْرِفَ إنساناً عن وجْهٍ يريده إلى مَصْرِفٍ غير ذلك، وصَرَّفَ الشيءَ أَعْمله في غير وجه كأَنه يَصرِفُه عن وجه إلى وجه. وتصريف الرِّياحِ [5]، تَصَرُّفُها من وَجْهٍ الى وَجهٍ، وحالٍ الى حال، وكذلك تصريف الخُيُول والسُّيُول والأُمُور. وصَرَفْتُ الرجل عني فانْصَرَفَ. وصَرَفْتُ الصبيان: قَلَبْتهم. وصَرَفَ الله عنك الأذى[6]، أبعده وكفاك.

وخلاصة القول في ذلك، أن الصرفة لغة هي تغير شيء عن وجهته وأصله.

وهي في اصطلاح المتكلمين، على اختلاف عباراتهم، صرف الناس عن معارضة القرآن بالإتيان بمثله مع قدرتهم على ذلك. فهي بذلك، تقوم على أمور ثلاثة:

الأول: اعتراف القائلين بها، بفصاحة القرآن وبلاغته وغزارة ما فيه، لكنهم لا ينسبون ذلك إلى حدّ الكمال والإعجاز.

---

[1] وقد قال بالصرفة جماعة من المنتسبين إلى العلم منهم: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت: 384هـ)، وعلي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: 450هـ)، وعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ)، والحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: 458هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت: 466هـ)، وأبو القاسم الحسين محمد الأصفهاني (ت: 502هـ)، وقد أفردت بحثاً خاصاً بذلك عنونته بـ(الصرفة)[(182)]، تكلمت فيه عن هذا الموضوع بإسهاب.

[2] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، طبعة 2003، الجزء 8، ص 230.

[3] سورة التوبة، السورة 9، الآية 127، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

[4] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 19، وهي قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾.

[5] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، طبعة 2003، الجزء 8، ص 230.

[6] بحث في صيغة أفعل بين النحويين واللغويين واستعمالاتها في العربية، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 50، ص283.

والثاني: دفعهم القول بإعجازه بإمكانية الإتيان بمثله، فهو عندهم، في طوق البلغاء والعلماء والحكماء وقدرتهم معارضته.

والثالث: أنّ إعجاز القرآن، على اعتبار أنه أمر واقع لا مفر لهم منه، فهو يكمن في القوة المانعة من معارضته لا في عدم إمكانهم ذلك.

قال الزرقاني: ومن الباحثين من طوّعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة، أي صرف الله العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية وضربوا لذلك مثلا فقالوا: إنّ الإنسان كثيرا ما يترك عملا هو من جنس أفعاله الاختيارية ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته , إما لأنّ البواعث على هذا العمل لم تتوافر , وإما لأنّ الكسل أو الصدود أصابه فأقعد همته وثبط عزيمته وإما لأنّ حدثا مفاجئا لا قِبَلَ له به قد اعترضه فعطّل آلاته ووسائله وعاق قدرته قهراً عنه , على رغم انبعاث همته نحوه وتوجه إرادته إليه . فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن[1].

قال الخطابي: وذهب قوم إلى أنّ العلة في إعجازه الصرفة أي صرف الهمم عن المعارضة , وإن كانت مقدورا عليها و غير معجوز عنها , إلاّ أنّ العائق من حيث كان أمرا خارجا عن مجاري العادات , صار كسائر المعجزات فقالوا : ولو كان الله عزّ وجلّ بعث نبيا في زمان النبوات , وجعل معجزته في تحريك يده أو مدّ رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه , ثم قيل له ما آيتك فقال أن أخرج يدي أو أمدّ رجلي ولا يمكن أحدا منكم أن يفعل مثل فعلي , والقوم أصحاء الأبدان , لا آفة بشيء من جوارحهم , فحرّك يده أو مدّ رجله فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه و كان ذلك آية دالّة على صدقه . وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي , ولا إلى فخامة منظره , وإنما تعتبر صحتها خارجا عن مجرى العادات ناقضا لها و فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالّة على صدق من جاء بها وهذا أيضا وجه قريب[2].

وبالنظر في أقوال المتكلمين، جاز أن نحصر أوجهها الواقعة على المتحدين. فإن جميع أوجه الصرف التي تحدَّث عنها القائلون بها أو مثَّلوا لها، لا تخرج عن وجهين: الأول: ما كان متعلقه ذاتيا. والثاني: ما كان متعلقه خارجيا. وحقيقة ذلك أن منها ما يتعلق بالهمم والدواعي ومخيلة المتحَدِّين وأفكارهم، ومنها ما يتعلق بآليات التحدي وأدواته، ومنها ما يتعلق بعوارض منفصلة عن كل ذلك تَحُول دون الوصول إلى ذلك التحدي. والتالي يمكننا تلخيص الوجهين في ثلاثة أمور:

---

[1] مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ، 1996م، الجزء2، ص301.

[2] كتاب الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، كود المادة: IUQR3213،المرحلة: بكالوريوس، مناهج جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة العالمية، ص39.

الأول : صرف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة، باشتغالهم بغير ذلك، وسلبهم الهمة عن محاولة شيء من ذلك.

والثاني: سلبهم علوم وأدوات المعارضة بأن سلبهم العلوم التي لابد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه.

والثالث: توفر الدواعي والهمم والعلوم ولكن لم يمنعهم إلاّ إلجاؤه تعالى على جهة القسر عن المعارضة مع كونهم قادرين عليها، فتقهقروا في حلبة المعارضة لغلبة القوة الإلهية على قواهم، فلأجل ذلك لم تحصل من جهتهم معارضة.

وعلى الأول قول الرّماني: أمّا الصَّرْفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أَهل العلم في أنّ القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات الّتي دلّت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز الّتي يظهر منها للعقول[1].

وعلى الثاني قول السيد المرتضى: إنّ الله تعالى سلب العرب العلوم الّتي كانت تتأتّى منهم بها الفصاحة الّتي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتى منهم[2].

وقال ابن سنان الخفاجي: المعجز الدال على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن، والخلاف الظاهر فيما به كان معجزا على قولين، أحدهما: أنه خرق العادة بفصاحته، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية... والقول الثاني: أن وجه الإعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة, مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف.

وأما قوله إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا, وغيره في الطبقة الوسطى,وهو يعني بذلك جميع كلام العرب, فليس الأمر على ذلك, ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية, ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه.. إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن: صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة ، وقت مرامهم ذلك[3].

قال الزركشي: إنّ الله صرف العرب عن معارضته, وسلب عقولهم, وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات[4].

---

[1] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، بنت الشاطئ، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص87.

[2] نقله عنه الطوسي، انظر: الإلهيات للسبحاني، نسخة إلكترونية. وانظر: الاقتصاد، للطوسي، ص 172.

[3] سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1982م، ص1.

[4] البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة، 1990م، الجزء 2، ص 227.

قال تقي الدين أبي الصلاح الحلبي: معنى الصرف هو نفي العلوم بأضدادها أو قطع إيجادها في حال تعاطي المعارضة الّتي لولا انتفاؤها لصحّت المعارضة، وهذا الضرب مختصّ بالفصاحة والنّظم معاً، لأنّ التحدي واقع بهما، وعن الجمع بينهما كان الصرَّف[1].

وعلى الثالث قول الرماني: صرف الهمم عن المعارضة, وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة, وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة. وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول[2].

قال الراغب الأصفهاني: فلما رئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم ، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز غرائزهم ألبتة للتصدي لمعارضته، لم يخف على ذي لب أن صارفا إلهيا يصرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك[3]، وما أَلَيَقهم بإنشاد أبي تمام:

فإن نك أهملنا فأضعف بسعينا *** وإن نك أجبرنا ففيم نتعتع

قال النظام: إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي عليه الصلاة والسلام ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة وإن وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الإخبار عن الغيوب فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف[4].

وقال: والآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب, فأما التأليف والنظم فقد كان يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم.

وقال: وإنّه من حيث الإخبار عن الأُمور الماضية ومنع العرب عن الإهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاّهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغةً وفصاحةً ونظماً[5].

قال الشهرستاني: إن القرآن معجز من جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب من الاهتمام به جبرا وتعجيزا, حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة [6].

---

[1] تقريب المعارف، تقي الدين الحلبي، تحقيق: فارس تبريزيان الحسون، ص159.

[2] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، بنت الشاطئ، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص87.

[3] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م، الجزء3، ص318.

[4] الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، البغدادي، دار الآفاق الجديدة–بيروت، الطبعة الثانية، 1977م، ص 143.

[5] الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، البغدادي، دار الآفاق الجديدة–بيروت، الطبعة الثانية، 1977م، ص 143.

[6] الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط : مصطفى الحلبي ، 1396 هـ . 1976م، الجزء1، ص56.

ويعد النظام من أشهر من قال بهذا الرأي وأولهم. ومع وضوح رأيه في المسألة فقد تنكَّب بعض القوم، يريدون إجلاله عنه. حتى قال بعضهم بزيف نسبة رأي الصرفة إليه، وأنها محض تهم يروجها ضده الأشاعرة.

وزعم بعضهم أن الصرفة عند النظام هي انصراف أكثر منها صرفة ورجوع بعد شعور بالعجز أكثر منها تحويل للعجز إلى إعجاز, وإلا كان النظام يعترف للإنسان بالقدرة وبعدم القدرة في آن.

وهذا كلام من أين قلبته لا تجد له موافقة لما أثر عن النظام.

وزعم بعضهم أن النظام رمى بهذا القول في حومة الجدل ولجاجة الخصومة. وهو أيضا كلام لا أثر فيه ولا دليل يقوم عليه.

قال الجاحظ: إن النظام وأصحابه كانوا يزعمون أن القرآن حق, وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان[1].

لكنه لا يغدو بعيدا عن قول النظام فقد أثر عنه قوله: ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه. ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه. ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء.

قال الشافعي: وإنما بدأت بما وصف من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها[2].

قال الفخر الرازي: القرآن لا يخلو إما أن يقال : إنه كان بالغا في الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول : ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني: كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع كون المعارضة ممكنة، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها، أمر خارق للعادة، فكان ذلك معجزا، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب[3].

ولا شك أن قول الرازي وبسطه للاحتمالات الممكنة في هذا الباب، يعضده واقعا قول جمهرة العلماء الذين رفضوا القول بالصرفة, ومن هؤلاء: الخطابي، والباقلاني والقاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم كثير. وقول هؤلاء كما أسلفنا تحقق الإعجاز في ذات القرآن لا عن أمر خارج عنه.

---

[1] حجج النبوة، الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص148.

[2] المناسبات في القرآن الكريم ودراسة تطبيقية في سورتي الفاتحة والبقرة من تفسيرالفخر الرازي، رسالة ماستر، فرع الكتاب والسنة، الطالب عبد الله بن مقبل القرني، 1413هـ، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة-الدراسات العليا، ص44.

[3] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004م، الجزء1، ص390.

ولعل الواقع الأهم، بالنسبة إلي، واقع صفة القرآن كما تجليها آياته.

قال القاضي عبد الجبار: اعلم أن الخلاف في هذا الباب أنا نقول أن دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم أنها غير ممكنة.. ولولا علمهم بذلك لم تكن تنصرف دواعيهم، لأنا نعلم انصراف دواعيهم تبعا لمعرفتهم بأنها متعذرة... إنهم غير قادرين، يعني بذلك المعارضين، وقد أدركوا ذلك، واستيقنته عقولهم، فانصرفوا من تلقاء أنفسهم حتى لا يفتضح أمرهم ويصبحوا هزأة في أعين الناس.

وإذ تبين أن القرآن معجز في ذاته. أضحى من اللازم الوقوف على تجلي ذلك الإعجاز. ولعلنا نبدأ كلامنا بما تجلى من وصفه.

الباب الثالث: في فهم معنى لسان القرآن:

الفصل الأول: في علاقة القرآن باللغة:

لقد وصف الله تعالى لغة القرآن باللسان[1]، فقال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[2]، ووصف لغة الطير بالمنطق، فقال تعالى: ﴿ ... وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ...﴾[3]، ومن جملة الطير وصف لغة الهدهد بالقول، فقال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[4]، ووصف لغة النمل بالقول، فقال تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا...﴾[5]، وكذلك لغة السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ ...قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[6]، ووصف لغة الدابة بالكلام فقال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[7].

وحقيق أن ننظر في اختلاف هذه الألفاظ الدالة على اختلاف عميق في المعنى وإن تقارب في أذهاننا ذلك، حتى بدت عند العامة هي اللغة لا فرق.

ولعله من الإعتداء غير المتعمد على القرآن حين نصفه أنه بلغة عربية، والحال أنه يصف نفسه بلسان عربي. وحين نقول الإعتداء، لا نقصد بذلك إلا سلب اللسان الذي أنزل به القرآن جزءا كبيرا من معانيه، إذ لم يتبادر الباحثون توضيح المصطلح وتفصيله مع انتشاره بين الناس على سبيل المجاز. وهو وإن كان

---

[1] اعلم أن وصفه باللسان يعني عدم خضوعه للنقص والزيادة أيًّا كان مأتاها. وأنه ما من آية في القرآن إلا وتحمل من العلم ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتتفرع عن ذلك العلم علوم.. وإنما هو القرآن.. الذكر المحدث.. وأحسن الحديث.
أما الكلام عن الزيادة والنقصان فيه، الذي يقول به بعض المفسرين وأرباب النحو، فلا يحمل إلا على احتمال واحد، زيادة في الفهم والأجر لدارسه ومتدبره.. أما غير ذلك فلا يجوز عقلا لأن احتمال الزيادة والنقص دليل على احتمال التبديل والتحريف.. وهذا ما يستحيل لأن ما يحفظه الله لا يزاد فيه ولا ينقص وكلام الله لا يحتمل التبديل.. وبقاء حافظه يغني عن القول بذلك.
فهو عند الله كما هو عند الله تعالى، وهو عندنا فهو هو كما نزل إلينا.. وهو من عند الله وهذا غاية ما يستطيع عاقل أن يقول.

[2] سورة الشعراء، السورة 26، الآية 195.

[3] سورة النمل، السورة 27، الآية 16.

[4] سورة النمل، السورة 27، الآية 22.

[5] سورة النمل، السورة 27، الآية 19.

[6] سورة فصلت، السورة 41، الآية 11.

[7] سورة النمل، السورة 27، الآية 82.

جائزا، لأنه مما يسمح به ويجيزه اللفظ العربي من باب إطلاق اسم الجزء على الكل، فإنه قد لزم مع القرآن الكريم استخدام كلمة اللسان بمعناها الحقيقي تمشيا مع السياق الذي وردت فيه، ما لم يكن هناك سياق يوجب استخدام الكلمة بمعناها المجازي، ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك. لأن الحقيقة تؤكد أن القرآن كونه كتاب صدق وعلم وهداية تأتي ألفاظه منضبطة على وصف اللسان لا على وصف اللغة.

والتالي فإن حكم اللسان بجملة القواعد اللغوية أو الخطية وتقييده بها يعد في الراي أخرق وفي المنطق أوبق وأضيق. ولا يقول به من له شأن وعقل. ولكنها غفلة الناس، سار على نهجها أهل الضلال واتبعهم فيها قليلو العلم.

ونحن إذ نريد تفصيل العلاقة بين القرآن واللغة، نطمح بذلك للوقوف على معاني هذه المصطلحات القرآنية متباينة اللفظ، وإن شارك بعضها بعضا في معنى مخصوص. والغاية من ذلك اكتشاف الفوارق سيما وأن الكلام في حد ذاته قد يكون آية تدل على الحق،كما هو الصمت وعدم الكلام، ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[2].

ومع اعترافنا أن ما جاء في القرآن دالاً على ما له صلة باللسان من الكثرة والتنوع بحيث يحتاج إلى دراسة علمية مستقلة تكشف بعض أسراره وتبين بعض ما يختبئ في معانيه. إلا أننا سنحاول في هذه الصفحات المعدودة طرح المسألة والوقوف على أهم الإشكالات التي تعنينا وتتعلق بموضوع الرسالة في مجمله.

فإن قيل: كيف تقولون ذلك، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3]، فدل ذلك على أنه ما دام قد تعددت ألسنة البشر، فقد نزل القرآن بلسان قوم معينين، وهو وجه نسبة القرآن إلى اللسان. قلنا أن ذلك يعارض بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]، وذلك لوجوه:

الأول: أن البين من الآية أنه ما من رسول إلا وأرسل بلسان قومه، فهل أمر لسان القوم مرتبط بالرسول أم بالرسالة ؟ فإن كان مرتبطا بالرسالة فما جدوى أن يشدد القرآن على ذكر اللسان الذي به أنزل ؟ الثاني: أنه لما وصف القرآن، قال تعالى: بلسان عربي مبين.. فجعل البيان فيه مخصوصا. فهل تعلق البيان هنا بالرسول، كما في قوله تعالى: ليبين لهم.. حكاية على الرسل.. أم تعلقه بالرسالة التي هي القرآن. والتي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بقيت بيانا للناس جميعا .

---

[1] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 41.

[2] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 46.

[3] سورة ابراهيم، السورة 14، الآية 4.

[4] سورة سبأ، السورة 34، الآية 28.

الثالث: أن البيّنَ من الآيتين عموم وخصوص. ففي قوله تعالى :وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.. بيان لعموم عمل الرسل. وفي قوله تعالى :وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون، بيان لخصوص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وخصوص رسالته .

الرابع: أنه لما كانت الرسالة كافة للناس، استوجب أن يكون بيانها كاف للناس جميعا.

الخامس: أن نسبة لسان القرآن لم تكن نسبة لقوم، إذن لعرف العربي فقال، بلسان العربي مبين. ولكن النسبة كانت على سبيل التنكير.

السادس: أنه لما عرف العجمة قابلها بالتفصيل، فقال تعالى: ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته. بمعنى اقتضاء التفصيل أن يكون عربيا. ولعلك تفهم من قوله تعالى: أأعجمي وعربي ؟ معنى التفصيل في ذلك.. ومع قوة العبارة في قوله تعالى وعربي، بحيث لا نستطيع استبدالها. لكن يمكننا أن نسأل، هل لها وجه أن يكون شيء من معناها: أأعجمي ومفصل ؟

السابع: أن قوله تعالى :وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يبين فيها قول أكثر الناس وربط ذلك بالبيان العربي، وهذا ملاحظ عند الباحثين. بحيث يستغرب أحدنا أن الرسالة كونها كافة للناس، هي رسالة للذين يعلمون أيضا.. ومن خلالها يتبينون ما في هذا القرآن من العلم. والذين يعلمون فقط من يتبينون أن هذا الرسول هو للناس كافة وذلك من خلال تدبرهم واستنطاقهم للقرآن.

الثامن: أنه لما كانت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم للناس كافة، كان أقرب إلى الذهن أن يهيمن لسان القرآن على كل ألسنة الخلق وأن يكون بيانه فيه ومنه، ولعل كلمات الصديق رضي الله عنه يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم تختزل الكثير، قال الصديق رضي الله عنه: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. فدل قوله على ضرورة أن يحمل القرآن الدليل لكل الناس بحياة النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعد وفاته، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا فذكر كتاب الله تعالى.

وعليه فإن لسان القرآن يحوي اللغة والعلم وكل شيء يخص حياة الناس في العاجل والآجل. وليس هو فقط لغة الفعل والفاعل والشعر والنثر والكلام واللفظ ولا يختزل في البيان نحوا وتصريفا وبلاغة.

وإنما ذكرنا هذا ومثله، لما وجدناه في القرآن ووقفنا عليه من أنه يستعمل اللفظ العربي بلسان علمي دقيق. مما لا يمكن حمله على لسان القوم في زمنهم ذاك، ولا يناله أحد إلا بوحي الله تعالى له.

وإنك مع القرآن، كل طالب إلا ويجد طلبته، إن طلبها بصدق وحسن نية وسلوكا للحق وسعيا إليه. وما من أحد طرق باب القرآن إلا وحمله على الهدى حملا، إلا أن يكون فاسد القلب معطب الروح، فيدفعه إلى الضلال لا يسلمه منه أحد.

ولسان القرآن كونه لسانا عربيا، قد يحمل على النسبة كما يحمل على الوصف. وحمله على النسبة، يتبين بكون حروفه ولفظه كله عربيا. وحمله على الوصف كونه مبينا ومفصلا ليس في معانيه عجمة لكل متدبر مريد للحق.

واللسان الواحد هو الكلام، وهو أمة اللغات ولغة الأمة، وهو وعاء يحتوي مجموعة من اللغات المتقاربة المتجانسة المتعارفة الشعوب والقبائل، وهو طريقة الإنسان في الكلام وترجمة الدلالات والمعاني المخزنة لديه إلى نطق باللسان وإخراج للأصوات والحروف والحركات والسكنات، وهو مجموعة العناصر المميزة المشتركة بين مجموعة متقاربة متجانسة من اللغات العائلة اللغوية الواحدة.

أما اللغة فهي جزء من أجزاء اللسان الواحد، وهي كل فرد من أفراد العائلة اللغوية الواحدة، تتشابه في عناصرها الأساسية المميزة، وتختلف في بعض علاماتها الفارقة الثانوية.

أما رسائل الله فلكونها تستوجب الفهم كانت باللسان، واللسان هو ما يستوجب الفهم ويستجيب للفطرة. حتى إذا استوى بيانه كان الناس فيه على شقين ضال ومهتد، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]. فكان أن أرسل الله تعالى رسله بألسنة أقوامهم، ليسهل عليهم البيان لهم. وإنما يشمل اللسان كل ما تعارف عليه القوم وأدركوا الحق به، من الكلام والعلم والآيات وغيره من سبل البيان. ولو كان البيان بالصمت لكان لسانا، كما كانت آية زكريا مع قومه.

فألسنة القوم لا تحدها الحروف، إنما تبينها الحروف. فلما كانت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة ورسائل النبيين قبله مخصوصة بقوم معينين. كان كذلك لسان القرآن عاما وألسنة غيره مخصوصة. وبذلك هيمن القرآن، ولم تجد شيئا غفل القرآن عنه أو فرط فيه.

وإنما أغفل الباحثين عن ذلك قولهم إن القرآن أنزل بلسان عربي مبين أي بلغة عربية. فألزموه بالحروف والألفاظ وما تجاوزوا ذلك. وقد أخطأ القوم حين لخصوا اللسان في اللغة، بغض النظر عن اختلافهم في تعريفهم لها. إذ قال قوم أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، فما يكون سكوت زكرياء عليه السلام؟ وذكر قوم أن معناها ما يلزَمه الإنسانُ من أصواتٍ، وألفاظٍ، ودلالةٍ يقعُ بها التفاهمُ بينَه، وبينَ قومِه. وبهذا المعنى يندرج تحتها البرهان والعلم وتفسير آيات الكون... الخ. وقال قوم أن أصل اللغة من لغى

[1] سورة ابراهيم، السورة 14، الآية 4.

يلغو لغوا ولغيا ولغة، أي بطل ومال عن الصواب، وهو ما تطلقه العرب على ما شذ واختلف عن اللسان العربي الفصيح، وقد تطلق على ما لا فائدة فيه ولا يعتد به ولغا الشيء أي بطل، وبهذا الوصف لا يصح نعت القرآن باللغة أصلا[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[2].

وحقيق علينا أن ننظر في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، فإن لقوله تعالى: يعلمه، دلالات تفوق كونه يحفظه أو يقرؤه. فلما ذكر العلم ذكر معه اللسان. ثم إنه ذكر كلمة: بشر على الإنكار لا على التعريف. وكذلك كان جوابه على سبيل التنكير لا التعريف. فلما ذكر اللسان قال تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، وإنما كان هذا القول جوابا للأول كونه لا يعلمه بشر، فكأنما هذا لسان عربي مبين لا يستطيعه بشر. فكل البشر أعاجم أمام القرآن، فصاحة وعلما.

وإنما كان ذلك كذلك، لقوة البيان الذي فيه، وهو قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[3]. وفي هذين الآيتين أمور وجب التوقف عندها:

الأول قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾، يستوجب أن غيره ليس كذلك.

الثاني: هل كلمة عربي، للنسبة أم للوصف ؟ فإن كان للنسبة كون حروف ألفاظه عربية، فما لزوم ذكره والتأكيد عليه ؟ إذ لابد من حكمة. وإن كان للوصف، فما هي المعاني التي يمكن أن نفقهها من وراء هذا الوصف ؟

أما المدقق في آيات الله تعالى، سيعلم أن قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾، ليس هو نفسه قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾. وتحققا سيتبين أن الأولى تبين نسبة اللسان والثانية تبين وصف اللسان.

---

[1] وفي القرآن، قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾،

[2] سورة النحل، السورة 16، الآية 103.

[3] سورة الشعراء، السورة 26، الآية 195.

وعليه فإن كلمة عربي هنا تشمل المعنيين معا، وصفا ونسبة. وصفا كونه بينا لا عجمة فيه على خلاف ألسنة الناس، ونسبة كون حروفه ومركبات حروفه فيه عربية.

الثالث: أن هذه الآيات تدخل في باب التحدي باللسان. فإن التحدي كان بالسور أن يؤتى بمثلها. وهذه الآية تقدم تحد آخر هو تحدي اللسان وهو كل ما تستطيع به تبيان الحق للناس.

ثم جاء الوصف الثاني، في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2]. والآيتان تقدم معنى جديدا وهو التيسير. فلما ذكر العلم كان هو اللسان، لسان عربي مبين، ولما ذكر التنزيل كان به، ولما ذكر التيسير كان بلسانك. ولما ذكر التصديق أطلقه بغير بيان فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾[3]، ولما ذكر الجمع قال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[4]. ولما ذكر الكذب كان بألسنة المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[7].

وإمعانا في توضيح معنى اللسان، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[8]، فإنه لما ذكر الكلام ذكر الأفواه وقابل تلقي الألسن بنفي العلم فيما يقولون بأفواههم.

---

[1] سورة مريم، السورة 19، الآية 97.
[2] سورة الدخان، السورة 44، الآية 58.
[3] سورة الأحقاف، السورة 46، الآية 12.
[4] سورة القيامة، السورة 75، الآية 16.
[5] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 78.
[6] سورة النحل، السورة 16، الآية 62.
[7] سورة النحل، السورة 16، الآية 116.
[8] سورة النور، السورة 24، الآية 15.

الفصل الثاني: في علاقة القرآن بالعلم[1]:

من العجيب أن يركز معظم الباحثين وهم يقدمون للقرآن على أنه نزل في بيئة أمية يندر فيها القراء والكتاب باستثناء قلة قليلة لا تكاد تعد في الناس إلا بما ميزها عبر أزمان التاريخ من قرض للشعر وحفظ للأنساب، طمعا في إظهار قوة القرآن وعظمته. والأعجب منه أنهم حين يتحدثون عن البيان يرفعون مقام الشعر في نفس تلك البيئة إلى مرتبة رائعة من الحسن والمتانة.

غير أنه وجب التنبيه على أمر قد غفل عنه هؤلاء الباحثون، فإن رسائل النبي بالدعوة إلى الإسلام قد شملت جميع الشعوب أصحاب الحضارات العلمية، الروم والأقباط والفرس، ولم تكن خاصة بعرب الجزيرة وأعرابها. فلا يصح بعد ذلك حصر نزول القرآن على بعض أقوام الجزيرة، حين بلغ مداه كل البقاع، واشتهر ظهوره في كل فج.

وغير مستغرب ولا عجيب أن القرآن إذ أودعه الله تعالى أولئك الذين نزعم أن لا علم لهم، قد حملهم أيضا مسؤولية إبلاغه إلينا فإذا هم أكثر أمانة له وأكثر علما به منا، إلى حد أن لا يستطيع أحد أن يجزم أنه مع وفرة القراءة والكتابة عندنا، ووفرة كثير من العلوم وتعددها، قد أضحينا أكثر فهما وحكمة من أولئك العرب الذين نزل فيهم القرآن على قلة القراءة والكتابة عندهم. بل لا أحد تستوي عنده مروءتهم وشرفهم مع التخنث المستشري الآن.

ولا أحد يزعم أن هذه القراءة والكتابة وهذا الطفح العلمي قد رفع قدر الإنسان فخجل أن يعبد الأصنام والأبقار ولا يجتمع على أذية الضعفاء الأبرياء ونصرة الطواغيت. بل إن واقع الأمر أننا إن كنا نقيس العلم بهذه النظريات الطاغوتية المتهالكة كالداروينية والماركسية والعلمانية فلا أراها تبتعد كثيرا عما كان عليه العرب زمن ما نسميه بأميتهم وجاهليتهم. فالأمر كما كان في الجاهلية، بل الآن أشد حين نرى مستوى الاستعباد والظلم والقتل بغير الحق والتعدي على الحرية.

فلا نناقض أنفسنا بهذا العلم أو تلك الأمية. فالأمر كله يقاس بمدى قبول الحق ووفرة الطعم والأمن للبشر. وما لم نجده في أيام وفرة العلم فلا جدوى بالتركيز على أمية تلك الفترة، اللهم إلا من قبيل إظهار قوة القرآن الغيبية في تصوير الواقع عبر الأزمان. فمهما ذكرنا من كونهم أميين لا يعرفون القراءة والكتابة فهم

[1] قد يفرق البعض في تعاريفهم للعلم بين علوم الدين وعلوم الدنيا.. وواقع آيات القرآن يدلنا إلى تقسيم آخر ليس فيه فصل في العلم بين الدين والدنيا، إنما يجعل العلم عملا يدور حكمه كما هو أي عمل من أعمال المكلفين. وقد سمى لنا القرآن أحد العلوم المحرمة وهو السحر.. ولعل من العلوم المحرمة ما يفضي إلى حرام، كالبحوث في صناعة الخمور بغاية صناعتها.

يتمتعون بالفطرة التي يسهل عليهم سريعا الرجوع إليها على عكس ما نحن فيه من فساد للفطرة ونكوس عن طبيعة البشر.

وقد نعزي أنفسنا بهذه الطفرة التكنولوجية التي نزعم بها أننا قد صرنا عظماء أكثر منهم. لكن الحقيقة على عكس ذلك فالجهل بالغ مبلغه ويكفيك ما ترى من قتل وتجويع في أوساط الناس.

ثم إنه لابد من التذكير بأمر قد غفل عنه كثير من الناس. ذلك أن هذا القرآن كما أنزل إليهم يخاطبهم فهو أيضا يخاطبنا نحن. وأن أوامره كما هي أوامر لأولئك الأميين قليلي العلم والفهم والحكمة، كما يزعم أكثر باحثينا ويتوهمون، فهي أيضا موجهة إلينا نحن الذين امتلكنا ناصية العلم وطوعنا العالم، وهما أو كذبا، وفق رغباتنا وشهواتنا.

والرأي عندي أن الإنسانية لا تكاد تستوي. ولا تكاد تنزاح عن جهلها إلا إلى جهل أفحش منه وأشد.

ودعوة القرآن للعلم لم يكن متطلبها فقط أن الأمي الذي لم يكن يعرف قراءة وكتابة أن يتعلمها. ولكنها دعوة تحيط بتعليم ذلك ورسم الغاية من ذلك العلم. فهي دعوة أعمق، إذ تتناول أساسا بناء العقل الإنساني بما يفيد حفظ الخلق وتنفيذ أوامر الحق.

فإن كانت غاية العلم أن يصير الناس يقرؤون ويكتبون ويحسبون فيا بئس الغاية. قال النبي صلى الله عليه وسلم: نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب[1].

إن القرآن لا يدعو فقط من لا يقرأ أن يقرأ، كما في قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .:. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، ومن لا يكتب أن يكتب، كما في قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ .:. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .:. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].. ولكن دعوته أكبر.. فهو يدعو من تعلم أن يتعلم، كما هو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3].. ومن آمن أن يؤمن، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

---

[1] والحديث رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.. وقد يتوهم البعض أن المقصود بالحساب هنا الرياضيات وما يدخل فيها من باب تقييد المقادير، فيكون ذلك بخلاف ما هو معلوم في مقادير الزكاة والمواريث وغيرها مما يستوجب إحاطة بمثل هذه العلوم. وقد يظن بالكتابة الخط، ولكن الأمر بخلاف ذلك.. فالأمية هنا عدم التبديل والكتب القيد والحساب نجامة النجوم وتسييرها. فيكون معناها أن أمة النبي صلى الله عليه وسلم أمة لا تبدل أحكام الله تعالى ولا تقيد مطلقا ولا تتخذ من النجامة نهجا.

[2] سورة العلق، السورة 96، الآيات 1-5.

[3] سورة طه، السورة 20، من الآية 114، وتمام الآية، قوله تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[1].. ومن اتقى أن يتقي، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[2].

وهو بكل ذلك يوقع نموذجا علميا قائما على منهاج يضمن بناء العقل الحر الذي لا يخدعه الوهم ولا يبني معارفه على الظنون، ولا تغلق عليه أبواب التقليد فيتحجر ويتقوقع، ولا يقول قولا بغير دليل وبرهان. بمعنى أنه يرسم خطا علميا يقوم على صيانة العقل من الإنحراف والقلب من التيهان والإنسانية في كلها من الضياع.

والإسلام إذ يقرر ضرورة حفظ العقل وصيانته وتحريره، يقرر ذلك في إطار المصلحة الإنسانية وعودة به إلى الفطرة، وحفظا لتلك الفطرة فيه.

ولعله يحسن بنا في ما يلي أن نخوض في كيفية صيانة الإسلام للعقل كما يبينه القرآن، وذلك على وجوه:

الأول: تحريم ما يؤدي إلى افساده وتعطيله وتحويله عن مسار الهدى والحق، كما هو قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

الثاني: الغاء الخرافات التي تعطل السير نحو المعرفة وتقطع وسائلها، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[4]، ومن ثم الدعوة إلى تفعيل تلك الوسائل وبيان وظائفها اللازمة فيها، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5]. ومن الخرافة الطيرة والعيافة والقيافة والعرافة...

الثالث: النهي عن اتباع الأهواء، ذلك أن الهوى ليس علما وليس اتباع الهوى من العلم نابع، قال تعالى: ﴿ ... قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[6]، ولا هو إلى الحق راجع، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾[7]، ولكنه مضلة الغافل.

---

[1] سورة النساء، السورة 4، الآية 136.
[2] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 69.
[3] سورة المائدة، السورة 5، الآية 90.
[4] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 179.
[5] سورة النحل، السورة 16، الآية 78.
[6] سورة البقرة، السورة 2، من الآية 120.
[7] سورة المؤمنون، السورة 23، الآية 71.

الرابع: محاربة التقليد الذي لا يقوم على استبيان الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ .:. وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

الخامس: أخذ الحيطة في الأخبار وضرورة التحقق منها، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[2].

السادس: تحقيق توظيف السبل العلمية والفكرية في ذات الإنسان، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[3].

السابع: اعتماد اليقين ورفض الظن. فمما يأمر به الله تعالى عباده في القرآن أن يتبع ماهو حق يقينا وأن يجتنب الظن والوهم. قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[5]. وتفصيله أن الظن ليس بعلم، كما هو قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[6].

الثامن: اعتماد الحجة والبرهان، فلا يغيب عن متأمل في آي الكتاب أن يعلم أنه لا يقول في شيء أنه حق إلا باستواء البرهان عليه. بل وجعل مطلب البرهان وقوام الدليل علامة استواء الطريق، قال تعالى: ﴿ ... تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[7].

التاسع: الدعوة للأخذ بالأحسن، ومنه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[8].

والعاشر: وجوب حجز العقل عن الخوض فيما لا يدرك أو ما لا فائدة فيه، فإنَّ الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون، إذ لو كان كيف كان يكون.

---

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآيات، 170-171.
[2] سورة الحجرات، السورة 49، الآية 6.
[3] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 36.
[4] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 116.
[5] سورة يونس، السورة 10، الآية 36.
[6] سورة النجم، السورة 53، الآية 28.
[7] سورة البقرة، السورة 2، الآية 111.
[8] سورة الزمر، السورة 39، الآية 18.

ومن ثم فإن الزعم بأن العقل قادر قدرة مطلقة على إدراك أو تحصيل جميع المعلومات دعوة حمقاء لا تقوم على سوق، إذ إنه ليس لنا أن ندعي أن له مكانا في الإدراك يتيح له أن يحيط بكل شيء بمفرده واستقلاله، بل إن العقل متواضع ومحدود في مجال إدراكه.

وعليه وجب حماية الفكر من النظر والتأمل فيما لا يدركه العقل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، ومنه ما روي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله[2]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله[3]، وعن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الامر عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه[4].

الحادي عشر: وجوب صون العقل عن النظر والتأمل فيما لا يعود على المكلف بفائدة في دينه ودنياه، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) ﴾[5]. ومنه ما قال صلى الله عليه وسلم: ذروني ما

---

[1] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 85.

[2] رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه ابن أبي شيبة في كتاب العُرْس له من قوله عن ابن عباس بلفظ تفكروا في كل شيء ولا تتفكروا في الله. ورواه الأصبهاني في ترغيبه بهذا اللفظ، ولأبي نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه فقال، ما جَمَعَكم؟ فقالوا اجتمعنا نذكر ربنا ونتفكر في عظمته، فقال تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تَقْدُروا قدْرَه. وللطبراني قي الأوسط والبيهقي في الشعب عن ابن عمر مرفوعا تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله. وفي رواية للديلمي عن ابن عباس زيادة وإن ملكا من حَمَلَة العرش يقال له إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله قد مرقت قدماه في الأرض السفلى ومرق رأسه من السماء السابعة، والخالق أعظم من المخلوق. وروى أحمد مرفوعا والطبراني وأبو نعيم عن عبد الله بن سَلام قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله، فقال لهم فيما كنتم تتفكرون؟ قالوا نتفكر في خلق الله، فقال لا تتفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله، فإن ربنا خلق ملكا قدماه في الأرض السابعة السفلى ورأسه قد جاور السماء العليا، من بين قدميه إلى كعبيه مسيرة ستمائة عام، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام، والخالق أعظم، وأسانيدها ضعيفة، ولكن اجتماعها يكسبه قوة ومعناه صحيح.

[3] رواه البخاري في صحيحه، رقم الحديث: (4636)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم الحديث: (134) و(135)، ورواه أبو داود في سننه، رقم الحديث: (4721)، ورواه أحمد في مسنده- باقي مسند المكثرين (331/2) و(387/2).

[4] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر 443/4. وحسنه الألباني في كتابه (صحيح سنن الترمذي) 223/2.

[5] سورة المائدة، السورة 5، الآية 101.

تركتكم، فإنَّما هلك مَن كان قبلكم بكثرةِ سؤالهم، واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيء فأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فدعوه[1].

الثاني عشر: الاحتراز من الخلط على العقل كلام المتفلسفين السفسطائيين أو اتباع الجهال في تعقلنهم. من ذلك ما روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم، فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أُخْبِرَ بذلك، فقال: قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر. أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده[2].

الثالث عشر: ضرورة حجز العقل عن الأخذ عن المناهج المنحرفة أو المحرفة، فلعل مثل ذلك يوغر القلب ويوقع بالعقل فيفسده، حتى يصبح أسوأ أثرا وأكثر خطرا من القلب الخاوي والعقل الخالي. وبيانه ما روي عن جابر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله.. هذه نسخة من التوراة، فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، أما ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله، رضينا بالله ربا

---

[1] قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم، طبعة مؤسسة الرسالة، الجزء الأول، ص 239: هذا الحديث بهذا اللفظ خرجه مسلم وحده من رواية الزهري، عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة، كلاهما عن أبي هريرة، وخرجاه من رواية أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: دعوني ما تركتكم ، إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء، فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم وخرجه مسلم من طريقين آخرين عن أبي هريرة بمعناه. وفي رواية له ذكر سبب هذا الحديث من رواية محمد بن زياد عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قلت: نعم، لوجبت، ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء، فدعوه.

[2] أخرجه أبو داود (336) , والدارقطني (189/1) وابن عدي في الكامل – ترجمة مُرَّجى بن رجاء. قال الدارقطني : لم يروه عن عطاء عن جابر غير الزبير بن خريق وليس بالقوي. وأخرجه عن ابن عباس، ابن الجارود في المنتقى (128), وابن خزيمة (273), وابن حبان (1314), والحاكم (165/1), والبيهقي (226/1).

وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيا وأدرك نبوتي لاتبعني[1].

الرابع عشر: تفعيل وظيفة العقل في صياغة الحياة، وتدريب الطاقة العقلية على الاستدلال المثمر، وتربية روح الاستقلال والفهم فيه. ومنه تفعيل أساليب النظر والتفكر والتدبر فيه.

وهذه التربية العلمية التي حرص الإسلام أن يقدمها للعقل البشري ويحيطه بها، ما هي إلا سبيل من سبل ضمان سلامة الحياة واستقامتها، ونهجا يقوم فيه بدوره الذي لأجله خلقه الله وميز البشر به عن الخلائق. حتى لا يجري على الإنسان منه تعطيل أو وحل. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[2].

الفصل الثالث: هل القرآن كتاب علم ؟

لو وقفنا على هذا السؤال : هل القرآن كتاب علم ؟

كثيرون يرون أنه غير ذلك، و أنه كتاب هدى لا غير. مستندين إلى كونه لا يعطي تفاصيل علم الطب وتفاصيل علم الحساب ولا يعطي تفاصيل كثير من المباحث العلمية..

أريد أن أنبه بادئ ذي بدء أن القول على سبيل القطع أن القرآن ليس كتاب علم هو كلام يناقض المنهج العلمي نفسه، وأن الكلام الذي لا دليل عليه سوى الظن لا يرقى إلى مستوى اليقين.

وربما كان من المستساغ للمتكلمين في هذا الأمر أن يقولوا : إنهم لا يرون أن القرآن كتاب علم، و لكن ليس من الحق في شيء أن يجزموا بذلك دون أدنى دليل سوى ظنهم الواهي كونه لا يعطي تفاصيل علم الطب و تفاصيل علم الحساب و لا يعطي تفاصيل كثير من المباحث العلمية.. ويصدروا حكمهم القاطع بذلك.

وأنا أسأل هؤلاء :

هل كل ما لا تصل إليه الأفهام يعتبر ضائعا، و لا يمكن له أن يوجد ؟

إن يكن ذلك حقا، فإنه لا يجوز لأهل العلم أن يبحثوا عن شيء طالما أن دعواه بأن القرآن ليس كتاب علم تنسحب على كل شيء لم يصل الفهم إلى إدراكه.

---

[1] أخرجه الإمام أحمد (14641)، والدارمي في مقدّمة سننه (440)2، وابن أبي شيبة في المصنف (22163)3، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (2136)، كلّها بطريق مجالد عن الشعبي عن جابر به. و هو سند ضعيف مجالد بن سعيد بن عمير بن بسطام الهمذاني أبو عمرو ليس بالقوي.

[2] سورة المائدة، السورة 5، الآية 101.

فهل حقا كشفنا كل ما في القرآن، فلم نجد فيه علما، أو قل لم نجد فيه هذه التفاصيل ؟

وهل طوي سجل ما فيه بعد أن علمنا كل ما فيه ؟

لماذا إذن نتدبر القرآن ؟

إن هذا الفكر لا يقول هذا إلا في جانب كتاب الله تعالى، مع أننا ندرك أنه كلام الله الذي لا يحد له معنى.

ولست أعلم بأي منطق قامت دعوى إنكار العلمية عن القرآن الكريم ومنطق العلم السليم أن لا يكون هذا الإنكار من مقولات العلم في عصر العلم ؟

إن العلم إذا بحث عن شيء فلم يجده، لا ينفض يده من البحث عنه، ولا يقطع أبدا بالقول بعدم وجوده، وغاية ما يقوله العلم في هذا المقام : أنه بحث عن هذا الشيء فلم يجده، لأن وسائله قصرت عنه، وأنه يمكن بوسيلة أخرى أن يعاد البحث عنه.

وإذن، فلم لا يجعل العلماء علمية القرآن فرضا محتملا، على الأقل، بين كثير من الأمور التي يحلم بها العلماء و لا يصلون إليها.

وهو نفسه يقول : ما فرطنا في الكتاب من شيء.

أو ما كان الأجدر بالمتكلم في هذا الباب أن يمسك عن إعطاء حكم عن علمية القرآن، إيجابا أو سلبا، مادام لم ينكشف له ذلك على سبيل اليقين.. وذلك أضعف الإيمان في جانب كتاب الله الذي نزله الله بعلمه. ويكفي أننا نرى فيه قوة الحكمة ودقيق اليقين في كل ما يعمل فيه العلم.

لقد فتح هذا القول بأن القرآن ليس كتاب علم بابا آخر، هو أن التحدي الذي نصت عليه آياته البينات المبينات المبينات هو مخصوص ومحدود.. مخصوص بالبيان، محدود باللغة.

ولعل كل ما يدخل في علمية القرآن ومعنى التحدي فيه والإعجاز البين في آياته، من سوء فهم إنما يجيء من قبل اللغويين المحدثين وممن صناعته الكلام. وإني أعترف بتميز بعضهم في ميدان اللغة والكلام لكني لا ولن أخفي أن معرفتهم العلمية ليست كافية.

ويدرك كل ذي عقل سليم أن هناك مراتب تصاعدية في فهم القرآن ونمو المعرفة به : فأبسط المعرفة وأكثرها جوهرية وظهورا هي اللغة والبيان، فإذا أضفنا إلى هذه اللغة وهذا البيان طريقة الاستدلال ونمط الجدال في القرآن دخلنا ميدان الفكر والنظر، فإذا أضفنا إلى ذلك ترتيب القرآن لذلك النظر وذلك الفكر من حيث هو فردي وثنائي وجماعي ومن حيث أساليبه ومناهجه دخلنا باب البحث العلمي، فإذا أضفنا إلى ذلك كله حقائق الخلق في الكون والنبات والحيوان، وخبر تاريخ المتقدمين ومعرفة سنن الله في الأولين والآخرين،

دخلنا ميدان العلم. ويمكن أن نتدرج بالقرآن أكثر فندرس الإنسان ونواحي نشاطه، وهذا يؤدي بنا إلى الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية. ولعلنا نختبر القرآن، في علميته ودقته، وهنا نقف أمام علم الإعجاز في القرآن ونسلم بتحديه لنا.. ثم يأخذنا جملة ما أوردنا إلى سؤال القرآن نفسه عن الأشياء.. ولعلنا نصل إلى تلك المرحلة قبل أن يرفع.

وربما ندرك أيضا من الوجهة العلمية أن التطبيقات كثيرا ما تسبق قواعدها، فالأقوام الأوائل اضطروا أن يقوموا بالتوليد و الجراحة زمنا قبل أن يوجهوا انتباههم لعلوم التشريح والأجنة. وهذا النظام مع أنه تاريخي فإن وصفه منطقي. فالأطباء وجدوا قبل الطبيعيين والكيميائيين، ولكن الطبيعيين والكيميائيين هم الذين أمدوا الأطباء بأدوات البحث.

وتماما من الطبيعي أن يوجد المتدبر للقرآن من اللغويين قبل المتدبر له من العلميين.. ولست أجرد اللغة من صفة العلمية هنا، غير أني لم أجد وصفا أكثر دقة. ولعل أهل اللغة وإن سبقوا بالنظر في القرآن فأهل العلم هم من سيمدهم بأدوات البحث التي يسهل عليهم استخلاصها من القرآن حين يصعب على أهل اللغة ذلك.

إنه لمما يعجب له الفهم ما في ألفاظ القرآن من اختيار رفيق بارع للكلمات.. يصدر عن رب حكيم.. فليس هناك شيء يشد النفس و يهزها أكثر من تأمل الرحمة في آياته.

ففي كل كلمة كثير من الفضيلة، كثير من العلم، كثير من الحكمة، كثير من التحدي، كثير من الإعجاز..

بل إن العلم كله يتبلور فيها.. وهي تعرض الآيات البينة الواضحة كما تعرض ما لا حصر له من الدلالات الغامضة والحقائق.

وهذا هو السر الذي يجعلنا نؤمن بأن في القرآن كل العلم، وهو ما يدفعنا أن نسأل القرآن عن معنى هذه الكلمة أو تلك ؟ وعن موضعها وصيغتها وزمنها، مما لا ينتبه إليه كثير من القراء العابرين.

البيان في القرآن الكريم

بيان القرآن جاء على ستة مستويات :

أحدها، كونه مبين لكل شيء، ودليله، قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1]، فما من شيء إلا وبيانه في كتاب الله تعالى. وبرهانه فيه.

والثاني، كونه مبين لذاته، ودليله، قوله تعالى: ﴿ حم .:. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ .:. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .:. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]،

[1] سورة النحل، السورة 16، الآية 89.

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .:. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ .:. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ .:. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[2]، فهو بين الحرف، بين اللفظ، بين اللسان.

والثالث، كون آياته بينات بنفسها، ودليله قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾[3].

والرابع، كون آياته مبينات بغيرها، مبينات لغيرها، ودليله قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾[4].

والخامس، كونه مبين لما قبله، ودليله قوله تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ .:. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .:. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[5].

والسادس، كونه مبين لما بعده، ودليله قوله تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ .:. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .:. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[6].

يقول الفخر الرازي: إن اللفظ لا يقتضي وجوب تأخير البيان بل يقتضي تأخير وجوب البيان، ذلك لأن وجوب البيان لا يتحقق إلا عند الحاجة[7].

التفصيل

و يأتي تفصيل القرآن على أربعة مستويات :

أحدها كونه، مفصل بذاته، و دليله قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[8].

---

[1] سورة الزخرف، السورة 43، الآيات 1-4.
[2] سورة النحل، السورة 16، الآيات 192-195.
[3] سورة الحج، السورة 22، الآية 16.
[4] سورة النور، السورة 24، الآية 34.
[5] سورة يوسف، السورة 24، الآيات 1-3.
[6] سورة القيامة، السورة 75، الآيات 19.
[7] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء11، ص 199.
[8] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 114.

أو الثاني، كونه مفصلا على علم، و دليله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ ﴾[1].

و الثالث، كون الآيات مفصلات فيه، و هي على ثلاث مراتب :

أولها، آيات العلم، و دليله قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

و الثانية، آيات الإيمان، و دليله قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[3].

و الثالثة، آيات التذكرة، و دليله قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[4].

و المستوى الرابع، كونه مفصل لكل شيء، و دليله قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾[5].

التفسير

القرآن يفسر كل لسان و لا يفسره لسان...

القول في كلام البشر كونه لا يخلو من الظنيات، و لا يمكن الجزم به مهما كان المتكلم عالما، وأما القرآن فله مزيتان :

المزية الأولى، كون ما ينطق به هو عين الحق، الذي لا يخالطه ريب، وبيانه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[6].

و المزية الثانية، كونه يفسر الأشياء تفسيرا، على الوجه الذي لا مزيد عليه، و يبينه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[7].

فالغاية ليست في أن يؤتى بالمثل، بل المثل الحق. و لم يقل هنا أحق أو أصدق كما قال بعد ذلك أحسن على صيغة التفضيل.. لأن ما في القرآن هو عين الحق، أما أحسن هنا فهي على صيغة التفضيل لأن المخاطب به رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحن معه، فهو أحسن تفسير يفهمه المتدبر في القرآن.

---

[1] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 52.
[2] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 97.
[3] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 98.
[4] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 126.
[5] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 12.
[6] سورة البقرة، السورة 2، الآية 2.
[7] سورة الفرقان، السورة 25، الآية 33.

النظام

يقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[1].

و قد يذهب في ذهن الناظر في الآية، أنه إنما نفى عن القرآن الاختلاف، بعكس القليل، فإنه يجوز أن يكون فيه، و إنما تعرضت لهذا الأمر لأنه من قبيل قول العقلانيين في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .:. وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[2]، فذهب إلى تحليل الربا الذي حرمه الله تعالى، زاعما أن الربا الحرام هو ما كان أضعافا مضاعفة، لا ما كان فقط أضعافا. فأما ما يخص الربا، فبيانه قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[3]، و الربا هنا على إطلاقه، و أما ما يفيد موضوعنا، فإن ما يطرأ على ما كان من عند غير الله من كثير الاختلاف يقابله أن لا اختلاف البتة في القرآن، و دليله قوله تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[4]، و قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾[5]، فلا اختلاف في مضمونه، و لا عوج في لفظه و لا حرفه.

الشمول و الحاكمية

إن العالم بالطبيعة لا يصح أن يفسرها إلا بما يرى فيها من قوانين، و لا يفسرها من تلقاء نفسه، و القرآن الذي هو كلام الله، أعظم من أن نفسره من تلقاء أنفسنا. أنزله الله بعلمه، و في ذلك يقول تعالى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾[6].

و أنزله بالحق، فما من الحق إلا فيه، و ما فيه إلا الحق. يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[7]، فالكل محتكم به، خاضع له.

---

[1] سورة النساء، السورة 4، الآية 82.
[2] سورة آل عمران، السورة 3، الآيات 130،131.
[3] سورة البقرة، السورة 2، الآية 276.
[4] سورة الزمر، السورة 39، الآية 28.
[5] سورة الكهف، السورة 18، الآية 1.
[6] سورة النساء، السورة 4، الآية 166.
[7] سورة المائدة، السورة 5، الآية 48.

الدين و العلم توأمان

من المسائل التي أهمتني فترة من الزمن مسألة إذا تعارضت الآية القرآنية مع الحقيقة العلمية، أيهما يكون الأخذ به أوفق القرآن أو العلم.

و لعل العلماء المسلمين اختلفوا في الأمر و تباينت آراؤهم مع أن أغلبهم قد مال إلى القول بأن الأخذ بالقرآن أوفق و أصوب و أدق و أقرب إلى الحق.

و لا أرى في حكمهم إلا حكما في مسألة مستحيلة. لأن القرآن و العلم لا يختلفان في الأصل، لأن الحقيقة واحدة. و الأجدر من هؤلاء أن يصححوا المسألة لأن في طرحها بهذا النهج خطأ، والأصوب أن نسأل أولا هل يمكن للآيات القرآنية أن تختلف مع حقائق العلم ؟ و نعني هنا حقائق العلم اليقينية لا الظنية.

و الجواب: أنه لا إمكان لذلك لأن الحقيقة القرآنية التي مصدرها في الآيات المنزلة و الحقيقة العلمية التي مصدرها العقل، لا يجوز أن يختلفا لأن القرآن و العقل مرسلهما واحد و هو الله ولا يجوز أن تختلف رسالتان من نفس المرسل.

و عليه، فإنه إذا اختلف تفسيرنا للآية القرآنية مع ما نتصور أنه حقيقة علمية، فسنكون أمام أحد ثلاثة أمور : إما أن يكون فهمنا للآية خاطئا، أو حكمنا على الحقيقة العلمية ظني أو كلاهما معا، و هو الدافع لنا أن نصحح مسارنا في كل ذلك و الله تعالى أعلم.

ويستحيل وقوع تفاوت بين الإسلام والعلم... ويستحيل أن توجد حقيقة علمية يقال إن في الإسلام ما يناقضها. وإذا بدا شيء من ذلك للنظر السطحي فلابد أن يكون هناك تزوير فيما نسب للدين أو فيما نسب للعلم...إن الدين الحق والعلم الحق يتصادقان ولا يتكاذبان.

و إنه من الأمور الخطيرة في هذا الجانب أن يحملنا الشغف بالغرب، و هو كثير و كبير عند من يدعي العلم بيننا، إلى مجازفة العقل و انتهاك المقدس و تمييع مفاهيم القرآن و توظيفها على غير نهجها و حقيقتها.

كمن أقر بحقيقة نظرية التطور، و استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[1].

وفصل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، ليقول أنها الدليل على أن الإنسان كان خلقا آخر ثم تحول إلى ما هو عليه. و كمن سوى الديمقراطية بالشورى و نسي أن الديمقراطية القائمة على الانتخابات تسوي بين العالم والجاهل، وبين التقي النقي، والخبيث الفاجر، والله تعالى يقول : ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ

[1] سورة المؤمنون، السورة 23، الآية 14.

اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[1]، ويقول جل شأنه: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]. وهو باب كبير نؤثره الآن لغيره.

علم الكتاب و علم الأسباب

ما اصطلح عليه الناس بالتسمية علما، إنما هو علم الأسباب القائم على التجربة والمشاهدة، والفكر والنظر، ورؤية العقل، وهي طرق العلم : الحس والخبر والنظر والحجة والدليل.. يقول الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾[3]، ويقول تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾[4]. فهذا جملة ما يمكن للإنسان الوصول إليه إذا تدبر في جملة هذا الكون الفسيح.

و يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[5]، ومقتضى هذه الآية، أن العلم الذي يمكن للإنسان استخدامه في أغراضه، ليس فقط ذلك المتعلق بالأسباب، بل أن علم الكتاب يتجاوز ما يمكن أن يعلم عن طريق الأسباب.

ما فرطنا في الكتاب من شيء[6]

يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[7]، فإنه كما أحصى الله تعالى في كتابه كل ما يتعلق بأحوال البشر، من العمر والرزق

---

[1] سورة الزمر، السورة 39، الآية 9.

[2] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 122.

[3] سورة ص، السورة 38، الآية 10.

[4] سورة غافر، السورة 40، الآية 37.

[5] سورة النمل، السورة 27، الآية 40.

[6] يرى بعض المفسرين أن المقصود بقوله تعالى من شيء هو: شيء من أمور العقائد والعبادات وليس علوم الكونيات، وهذا الرأي لا يسعفه واقع القرآن وتنزله على الكونيات. والله تعالى أعلم.

[7] سورة الانعام، السورة 6، الآية 38.

وصفات الخلق ونظام الحياة، فكذلك أحصى الكتاب جميع ما يتعلق بأحوال ما دب على الأرض أو طار في جو السماء.

فإن قيل أن المقصود من الدابة و الطير الحيوان، قلنا إن المثلية تجعلنا نعلم نظام خلق الإنسان وحياته بالنظر في الحيوان.

و إن قيل بل المقصود كل ما تحرك على الأرض أو ارتفع في السماء، دل ذلك على إمكان إحداث ذلك بالنظر في ما يدب و يطير.

فإن قيل لماذا ذكر الجناحين، و ما من طائر إلا طار بجناحين، قلنا إن ذكر الجناحين لا يفيد الطيران خذ من ذلك مثلا الدجاجة، فإنها لا تطير مع أنها تملك جناحين. و ربما دل هذا على إمكان النظر في ما يطير بالجناحين و ما لا يطير، وصولا لإحداث ما يطير مما نبتغي به فضل الله. أما ذكر الجناحين بالتحديد فلكي لا يدخل الملائكة في باب النظر، لأن نظر الإنسان محدود بالمخلوقات التي يمكن مشاهدتها.

و من تدبر هذه الآية، عرف ما بعدها، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ. فإنه مما يسأل هنا :

لماذا خص الدابة بالأرض ؟

هل الطائر يطير في الأرض أم خارجها ؟

أي فضاء يمكن الطيران فيه بجناحين ؟

هل يمكن الطيران بأقل أو أكثر من جناحين ؟

فيم تتجلى المثلية بين الدابة و الطائر و الإنسان ؟

هل يمكن للإنسان أن يطير ؟

لماذا قال في الأرض و لم يقل على الأرض ؟

هل تدخل حيتان البحر في دواب الأرض ؟

و لعلنا إذا رمنا الإجابة عن أسئلة مثل هذه، استوجب أن نحدد معنى الجاذبية و السرعة والفضاء، و المعرفة بقوانينها، و أنظمتها. و المثلية هل هي مع الحيوان فتكون المثلية بيولوجية وحركية...

فإن سألنا كل آية على النحو الذي قدمنا، تأكد لنا معنى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1]،كونه يحمل كل أسرار العلم.. فسبحان الذي أنزل الكتاب بالحق و أحسن تفسيرا.

[1] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 37.

الفصل الرابع: تاريخ الأنبياء و تاريخ العلم

يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

تذكر بعض الآيات القرآنية أن بعض المجتمعات التي عاشت في الماضي، كانت تمتلك حضارة تفوق حضارة المجتمع الذي نعيش فيه و عاش فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم. فالمجتمعات السابقة قد تركت أثارا أعظم.

إن التعبير عن التاريخ، جدير بالتقييم. فشرح التاريخ بشكل خطي، وبفهم تقدمي مستمر، يتبع وتيرة تطورية، ويحتوي هذا التطور تقدما مستمرا، هو كلام فيه نظر، و إن كنا نظنه كذلك.

إن القرآن الذي لم يُخَطّأ ولن يُخَطّأ، ولم يُخْطيء ولن يُخْطيء، في أي موضوع على الإطلاق، لم يخطئ ولن يخطئ في هذا الموضوع أيضا. فالقرآن لا يتفق والفهم التقدمي الخطي للتاريخ حيث يخبر أن بعض المجتمعات السابقة كانت أكثر آثارا، وأشد قوة. من الممكن أن يوجد التقدم الخطي في إحدى مراحل التاريخ. فقد سجل التقدم العلمي الذي بدأ في القرن 16، تطورا تصاعديا مضطردا حتى القرن 20 في واقع الأمر. لكن تعميم هذا التقدم على التاريخ وعلى كل موضوع خطأ كبير. و لم يقل بهذا إلا بعض المذهولين بالثورة العلمية التي بدأت في القرن 16، و لم تكن لهم دراية كافية بالتاريخ.

يري الفهم التاريخي الخطي التقدمي أن كل مرحلة من مراحل تاريخ البشرية أفضل من سابقتها .ولقد استقرت تلك الرؤية الخاطئة بدرجة قوية في أذهان قسم مهم من البشرية حتى إنه عندما تم اكتشاف الخصائص العالية في البناء المعماري للأهرام تعذر على من يؤمنون بهذه الرؤية فهم كيفية حدوث هذا.

إن هرم خوفو الأكبر، مثلا، والذي يصل حجمه إلى 2.515.000 م3، وارتفاعه 147 مترا، وطول قاعدته 230 متر يمتاز بتصميم خاص جدا. وإن رفع ست ملايين حجر، ونقلها، وتكويمها وضفرها مع بعضها البعض بشكل يتحدى عصورا من الزمان من أجل إكمال هذا البناء أمر يتطلب قوة ومهارة لا تصدق. وهذا يعني أن الأذهان التي تشكلت وفقا للفهم التاريخي الخاطئ تخفق حتى في القيام باستنتاج بسيط على نحو : إن المصريين تقدموا جدا في الهندسة المعمارية. في حين أنه من اليسير جدا أن يستنتج ذلك من يقرءون الآيات القرآنية التي تخبر بأنه تم بناء الكثير جدا من الأبنية المعمارية، وتكوين الآثار في العصور السابقة على نزول القرآن تفوق ما أنجز في العديد من العصور التي أعقبت ذلك.

[1] سورة الروم، السورة 30، الآية 9.

ويبرز نظام العلاج بالإبر الصينية الذي تم تطويره في الصين، أنهم على دراية بالعلوم التشريحية بشكل أكثر تفصيلا مما حسبناه نحن لدى البشر في أي مرحلة من مراحل التاريخ، وأي مكان في العالم. إذ يمكن اختراع نظام العلاج بالإبر الصينية فقط عن طريق معرفة الجهاز العصبي الموجود في الجسم، وتوزيع الكهرباء في الجسم. ولابد من أجل هذا أيضا من توفر معلومات تفصيلية بشأن النظام العصبي الموجود في الجسم إلى جانب الوضع المعروف للأعضاء. ولا يستطيع أي إنسان يؤمن بالبنية التطورية، الخطية في كل مجالات التاريخ، أن يستنتج أن الصينيين كانوا أكثر تقدما ومعرفة منا في علم التشريح...

وكما أسلفنا القول، فإن السعي إلى فهم التاريخ، والتعبير عنه مسلك جدير بالتقدير. غير أن محاولة تفسير كل المراحل التاريخية وجميع المناطق بالفهم التقدمي الخطي، خطأ كبير وشائع.

في حين يذكر القرآن أن ما قام به البشر من أفعال لعب دوره في فناء المجتمعات، كما فني العديد من المجتمعات بسبب الأفعال السيئة لأعضائه، قد اندثرت الأعمال الفائقة. هذا الوجهة، هي وجهة رأي تنقذ الإنسان من كونه مجرد ورقة في مهب العاصفة التاريخية .

ومن الصواب أن البشرية سارت قدما في مراحل معينة من التاريخ، وأنها تتبعت خطا تقدميا، خطيا. غير أنه من الخطأ تعميم هذه الفكرة على التاريخ كله. وكما أسلفنا القول ربما يكون هذا الحكم صحيحا بالنسبة للفترة ما بين القرنين 16- 20، غير أننا إذا ما طبقنا هذا المنطق على شريحة من التاريخ تبلغ2-3 آلاف سنة نكون قد ارتكبنا خطأ جسيما جدا. إن تعميم قول ما على البشرية كلها مثل، إن العصر الفلاني كذا قبل الميلاد كان العصر الحجري كذا.. وهم من الأوهام.

في هذه الفقرة سنحاول دراسة هذا الأمر من خلال ما نجده في القرآن، عن العلوم و تطورها عبر كل مراحل التاريخ.

أسس علم صناعة السفن و الديناميكا

يقول الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ.:. فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

علم الفلك

يقول تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾[1]،

[1] سورة المؤمنون، السورة 23، الآيات، 27،28.

ويقول تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾[2].

علم الحياة

يقول الله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3].

علم تحريك الأشياء

يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[4].

علم الكيمياء

يقول الله تعالى: ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾[5].

علم صناعة الحديد

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾[6].

---

[1] سورة الكهف، السورة 18، الآية 86.
[2] سورة الكهف، السورة 18، الآية 90.
[3] سورة البقرة، السورة 2، الآية 259.
[4] سورة النمل، السورة 27، الآية 40.
[5] سورة الكهف، السورة 18، الآية 96.
[6] سورة سبأ، السورة 34، الآية 10.

الباب الرابع: في تحدي القرآن[1]:

هو الكتاب الوحيد في هذا العالم، الذي ينشر تحديه بين كلماته.. وليس بوسع أحد من العالمين أن يكسر هذا التحدي.. وإن جازف بعض الآحاد وثبت من خلال ما قدموه زيف رؤيتهم وكذب ما قدموه. ولعلنا نسأل عن وجوه تحديه، وعن المخصوصين بهذا التحدي.

الفصل الأول: وجوه التحدي في القرآن:

بلسان عربي مبين.. ومع ذلك وجه تحديه لكل واحد فينا.. وللعالمين كافة، من إنس و جن. ولعلنا نسأل عن وجوه هذا التحدي[2].

جوابا على ذلك أقول : إن التحدي بين على مستويات خمسة:

أولها، التحدي بالكتاب، الذي هو القرآن. وثانيها، التحدي بالخلق، الذي هو الكون. وثالثها، التحدي بالفكر، الذي هو البرهان. ورابعها، قوله في أهل العلم. وخامسها، قوله في الشعراء.

فأما **التحدي بالكتاب**، فأول ما يدل عليه دعوته سبحانه و تعالى أن يؤتى بمثل القرآن، وهو على وجوه :

أحدها، أن تحداهم بكل القرآن، و هو على مرتبتين :

الأولى، أن تحدى كل واحد من الخلق و يبينه قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

و الثانية، أن تحدى مجموع إنسهم و جنهم، و يبينه قوله تعالى : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[4].

و الوجه الثاني، أن تحداهم بعشر سور، و هو قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

---

[1] ذكر الباقلاني في: إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف–مصر، الطبعة5، 1997م، ص 18، أنه ثبت تحدي القرآن إليه، وأنهم لم يأتوا بمثله، بالنقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يستوي جحوده.

[2] اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، أحمد بن الحسين الهاروني، ص 21. حيث يقول: والتحدي في القرآن نوعان: ظاهر ومشار إليه، وهو لا يدع مجالا للشبهة.

[3] سورة القصص، السورة 28، الآية 49.

[4] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 88.

و الوجه الثالث، أن تحداهم بسورة واحدة، وهو على مرتبتين :

المرتبة الأولى، أن تحداهم أن يأتي بشر بمثل سورة مما جاء به القرآن، أو أن يأتوا بسورة من كتاب يماثله و يبينه قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .:. بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

والمرتبة الثانية، تحدى مجموعهم مستعينين بعضهم ببعض وبشهدائهم، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3].

و الوجه الرابع، أن تحداهم بحديث مثله، وهو قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[4].

و الوجه الخامس، واقع في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[5]. ويفيد هذا الوجه، أن التحدي لابث لا يتوقف إلى قيام الساعة.

وبين، ما أوردنا، أن القرآن في كله معجز، وأن السورة في نفسها معجزة، وحديث القرآن كذلك، فإن الخلق و إن تعلموا و إن تتلمذوا لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور.

فأما المستوى الثاني فهو **التحدي بالخلق**، كما هو قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[6].

و هو على أربعة وجوه، كما تبينه الآية الكريمة :

أحدها، قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ ﴾.. فتحداهم بخلق ذبابة و هي أوهن الخلق.

والثاني، قوله: ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾.. فإن كان يفهم من معرض الوجه الأول أن الكلام مخصوص به كل واحد ممن يدعى من دون الله، فإن الوجه الثاني يدل على تحدي جمعهم، متعاونين فيما بينهم.

---

[1] سورة هود، السورة 11، الآية 13.
[2] سورة يونس، السورة 10، الآية 39.
[3] سورة البقرة، السورة 2، الآية 23.
[4] سورة الطور، السورة 52، الآية 34.
[5] سورة البقرة، السورة 2، الآية 24.
[6] سورة الحج، السورة 22، الآية 73.

والثالث، قوله: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾.. إذ لما استحال عليهم فعل الخلق، تحداهم بما هو دون ذلك، فتحداهم أن لا يسلبهم الذباب مع وهنه وضعفه شيئا.. فإذ لا أحد يستطيع تحداهم بما هو دون ذلك وهو استنقاذ ما يسلبهم الذباب.. وهو أبلغ في التحدي.

والرابع، قوله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾.. وهو أودع درجات التحدي في هذا الباب، فافهم ترشد.

فأما المستوى الثالث، فهو **التحدي بالفكر** :

ويبينه قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. ذلك أن الأولى تقديم الحجة على الحكم، لا ادعاء امتلاك الحق بلا برهان، وهو حال أغلب القوم. ألم تر قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[3].

فإن البرهان، و هو مبلغ ما يحصله العقل من التحديق في هذا العالم، إذا لازمه الصدق يدل على الحق، و إنما كان ذلك لعجزه عن إدراك ذات الله، و واجب عليه الإيمان بالله لأنه لا يدرك الله، فالإيمان واقع عقلا، لا لإدراك منه، بل لأنه لا يدرك.

إن العقل يستطيع أن يرى الله رؤية واضحة، إذا هو وقف من هذا الوجود وقفة المتأمل البصير الصادق، الذي يفرق بين الأسباب و المسببات، و بين العلل و المعلولات، و ينظر الخالق بالخلق الذي خلقه.. فتلك هي وظيفة العقل في هذا الباب..

سئل الصديق الأكبر، أبو بكر، رضي الله عنه : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربي.. و لولا ربي ما عرفت ربي، فقيل له : و هل يتأتى لرجل أن يدركه ؟ فقال : العجز عن الإدراك إدراك[4].

---

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآية 111.

[2] سورة النمل، السورة 27، الآية 64.

[3] سورة سبأ، السورة 34، الآية 24.

[4] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي،دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثانية، 1973م، الجزء3، ص341.

والرواية لذي النون المصري كما ذكرها ابن القيم في: مدارج الساكين. قال ابن عطاء المعرفة على ثلاثة أركان الهيبة والحياء والأنس وقيل لذي النون بم عرفت الله ربك قال عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي. وقيل لعبد الله بن المبارك بماذا نعرف ربنا قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه فأني عبد الله بأصل المعرفة التي لا يصح لأحد معرفة ولا إقرار بالله سبحانه إلا به وهو المباينة والعلو على العرش.

ثم إن العقل، و هو ديدن البرهان ومعمله، في حد ذاته رسالة من الله، فهو يحمل نور الإيمان، ولا يشع هذا النور إلا إذا لزمه الصدق، لذلك قال الله تعالى : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ..

سأل ذعلب اليماني عليا كرم الله وجهه : هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟[1] فأجاب : أ فأعبد ما لا أرى ؟ فقال ذعلب : و كيف تراه ؟ قال : لا تراه العيون بمشاهدة العيان، و لكن تدركه العقول بحقائق الإيمان.. قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته، و تجب القلوب من مخافته[2].

و يدل على التحدي في القرآن أيضا **قوله في أهل العلم**، و هو المستوى الرابع :

و أشير هنا إلى خمسة وجوه خص بها القرآن أهل العلم :

الأول، قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[3].

والثاني، قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[4].

و الثالث، قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[5].

و الرابع، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[6].

---

[1] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ لأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ فَقَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ، هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُهُ، فَقَالَ: رَأَيْتُ نُورًا. حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَكِيمٍ، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى، وَقَالَ: نُورًا أَنَّى أَرَاهُ. وفي زيادة لمسلم: حِجَابُهُ النُّورُ. قال أبو حاتم: مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمْ يَرَ رَبَّهُ، وَلَكِنْ رَأَى نُورًا عُلْوِيًّا مِنَ الْأَنْوَارِ الْمَخْلُوقَةِ. ولمسلم من حديث أبي موسى: حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ. وبرواية ابن ماجه في سننه: حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ. قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ، مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا.

[2] مسند الإمام علي رضي الله عنه، الجزء1، حسن القبانجي، ص143.

[3] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 49.

[4] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 18.

[5] سورة الحج، السورة 22، الآية 54.

[6] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 7.

و الخامس، قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

فهو في الأول يستعلي بهم، وفي الثاني يستشهد بهم، وفي الثالث يتحدى بهم، وفي الرابع يتحداهم لعلوه وسموه عليهم. فالبشر لن يدركوا كنه الوجود، وإنهم إن أدركوا شيئا من عالم المادة فلن يدركوا إلا بعض الظواهر التي تلوح على سطحها، أما أعماقها وأغوارها فلا يصل البشر إلى شيء منها، يقول تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .:. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[2].

يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، أما الأغوار والأعماق فيفصله الحق، ويفسره الحق، والحق هو القرآن، يقول الله تعالى: ﴿ الم .:. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .:. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[3].

و يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[4].

و العقل البشري أمام عالم الحق شيء ضئيل، ضئيل جدا. و لا أراه إلا أنه ظل من هذا العالم حيث هو، لم ينفعه هذا التقدم العظيم الذي يقال إن الإنسانية قد بلغته، و الذي يقال إن العقل قد أحرز فيه كشف أسرار الطبيعة، و امتلك ناصيتها.

و يدل على التحدي في القرآن أيضا **قوله في الشعراء**، و هو المستوى الخامس:

يقول الله تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ .:. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ .:. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .:. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[5].

فالتحدي هنا أكبر.. وأدق.. وأجل.. ومنه نعرف المعنى.. ونتبين المقصود.. التحدي أكبر من رصف الكلمات وضمها بوزن أو بغير وزن.. فلا يعجز أحد بعد هذا أن يفهم خصوصية ذلك التحدي وسموه..

---

[1] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 85.

[2] سورة الروم، السورة 30، الآية 7.

[3] سورة السجدة، السورة 32، الآية 1-3.

[4] سورة النساء، السورة 4، الآية 170.

[5] سورة الشعراء، السورة 26، الآية 224-227.

ويقولون : إننا عاجزون عن تقدير وفهم مدى منطقية التحدي بالقرآن. إذ ما معنى أن أجلب سورة أو نصوصا مثل أو أفضل من آى القرءان ؟ ومن الحَكَم والفيصل ؟ ومن الذى سيحدد هنا أفضلية بعضها على بعض ؟

وعلى أي أساس يقوم هذا التحدي ؟

والجواب : أن الحكم هم الشهداء من دون الله، وأما الفيصل فهو نفس من يدعي معارضة القرآن بشيء، وأما الأساس فهو الأساس الذي يختاره من أراد مماثلته.

وإنما قلت هذا الكلام، لأني أرى القوم لا يفهمون بمثل القرآن إلا مثل نسقه.. وحتى في هذه النقطة لا يستقيم الأمر لهم.

ثم ماذا ؟

أو ما عجب أحدكم كيف يذكر القرآن الشعراء بأكبر عيب أنهم قادة الغواة.. وما انتصر أحد منهم لشعره الذي ولاه في الناس مركزا ؟ ..

لا ريب أنهم أمامه سريعوا السقوط.. فما منهم من أحد وقف أمام القرآن.

فقد علاهم.. وإنه ليعلو ولا يعلى عليه.

وليس مدحه للعلماء استجلابا لهم، وطلبا للفضل منهم، بل دليلا بهم عليه، فإنهم الوقافون على ما فيه من برهان، وإنهم لذلك الدليل وثاقه، ولذلك البرهان حبله المعقود الذي لا يتصرم. وبدون منهجه لا يسمى العالم عالما، ولا يقوم للعلم قيام، ولا تستقيم للعقل قياساته، ولا يألف العقل منطقه. وكل ذلك مجموع فيه، معقود به، لمن آمن واتبعه، أو كفر وأعرض عنه، أو جهل أمره فلم ينتبه إليه. لأن للقلب فطرته، وللعقل وحيه، وللعلم عموده، وللعالم متكؤه.

وليس لك أن تقارن القرآن بالشعر، ولا بغيره من صنوف التأليف.. لأنه لو كان ذلك لكان ظهر أهل تلك الفنون على أهل القرآن..

فإن قيل : إنما أخمد كل فن عدا القرآن العصبية التي هي عند أهل القرآن للقرآن. قلنا : من صنع تلك العصبية ومن أظهر تلك الحمية ؟ وهل لغيره أن يصنع مثلها في النفوس ؟

فإن قيل إنما أظهر ذلك ما فيه من وعيد بالجنة لمن دافع عنه.. قلنا فهل يؤتى بمثله ينقض ذلك ويطرحه من القلوب ؟ .. وليس ذلك لأحد أبدا.

فإن قيل إنه لا يستطاع استمالة قلوب أشربت القرآن.. قلنا قد استطاع القرآن أن يجلبها جلبا إليه وقد كانت نفس تلك القلوب أشربت غيره.

أما رأيت أهل الكفر على قوتهم كيف يخوفهم القرآن، وأهل القرآن على ضعف.

فمم تقوى أهل القرآن ؟

أليس الأجدر أن يظهر أهل القوة على الضعفاء فلماذا يظهر أهل القرآن على ضعفهم على أعداء القرآن على قوتهم ؟

أما يسأل أحدكم نفسه : هل علم من كتاب على وجه الأرض غير القرآن الكريم إذا أراد أعداؤه الطعن فيه أتوا بمتخصصين في علم اللغة وعلم الاجتماع وعلم التاريخ وعلم الجغرافيا وعلم الفلك وعلم النفس وعلوم أخرى شتى.. مما يثبت أن هذا الكتاب من المحال أن يقوم بتأليفه بشر وأمي لا يقرأ ولا يكتب ويعيش في قبائل أمية لا تقرأ ولا تكتب ؟

وقد أخطأ بعض من سبقنا القياس في ربط المعجزة بالقوم الذي يخرج منهم النبي، فأظهروا بقياسهم أنه لما خرج النبي من قبيلة العرب تحدى الله بكتابه العرب.. وهذا كلام فيه نظر.

فإن ارتباط المعجزة بمن أرسل إليهم لا بمن خرج فيهم.. فالتحدي القائم للناس كافة، مادام محمد صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس كافة.

فعل من أدرك الإسلام من أصحاب المعلقات:

ذكر ابن حجر في الإصابة : ولما كتب عمر إلى عامله بالكوفة : سل لبيدا والأغلب العجلي ما احدثا من الشعر في الإسلام فقال لبيد ابدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه قال ويقال أنه ما قال في الإسلام الا بيتا واحدا.

وكان لبيد بن ربيعة[1]، وهو أحد أصحاب المعلقات، وقد أدرك الإسلام، جوادا شريفا، وقد آلى في الجاهلية أن يطعم ما هبت الصبا. ثم أدام ذلك في إسلامه، وكانت له جفنتان يغدو بهما ويروح كل يوم على

---

[1] وهو صاحب المعلقته التي مطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها *** بمن تأبد غولها فرجامها

ويظهر أنه قالها في شبابه وهي تمثل الشعر البدوي في متانته وقوته. وفي شعره بعد ذلك، أثر الحكمة وقوة الشعور الديني، مثل قوله:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه *** يحور رمادا بعدما هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع *** ولابد يوماً أن ترد الودائع
وما الناس إلا عاملان: فعامل *** يتبر ما يبنى، وآخر رافع

وقصيدته التي مطلعها:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل *** وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم *** دويهية تصفر منها الأنامل

مسجد قومه فيطعمهم. ونزل لبيد الكوفة، وأميرها الوليد بن عقبة، فبينما هو يخطب الناس إذ هبت الصبا، فقال في خطبته وهو على المنبر: قد علمتم حال أخيكم أبي عقيل، يعني بذلك لبيد، وما جعل على نفسه: أن يطعم ما هبت الصبا وهذا يوم من أيامه. وقد هبت ريحها، فأعينوه، وأنا أول من فعل. ثم انصرف الوليد، فبعث بمائة من الجزر، وبهذه الأبيات :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه *** إذا هبت رياح أبي عقيل

أشم الأنف أصيد عامري *** طويل الباع كالسيف الصقيل

وفي ابن الجعفري بما نواه *** على العلات والمال القليل

بنحر الكوم إذ سحبت إليه *** ذيول صبا تجاذب بالأصيل

فلما وصلت الهدية لبيدا شكره، وقال : إني تركت الشعر منذ قرأت القرآن، ثم قال لابنته : أجيبيه، فلعمري لقد عشت دهرا وما أعيا بجواب شاعر، فقالت :

إذا هبت رياح أبي عقيل *** دعونا عند هبتها الوليدا

أشم الأنف أصيد عبشميا *** أعان على مروءته لبيدا

بأمثال الهضاب كأن ركبا *** عليها من بني حام قعودا

أبا وهب جزاك الله خيرا *** نحرناها وأطعمنا الوفودا

فعد، إن الكريم له معاد *** وظني بابن أروى أن يعودا

فقال لبيد : أجبت وأحسنت، لولا أنك سألت في شعرك. قالت : إنه أمير وليس سوقة، ولا بأس بسؤاله، ولو كان غيره ما سألناه، قال : أجل إنه على ما ذكرت، وأنت يا بنية في هذا أشعر.

فالبشر لن يدركوا كنه الوجود، و إنهم إن أدركوا شيئا من عالم المادة فلن يدركوا إلا بعض الظواهر التي تلوح على سطحها، أما أعماقها و أغوارها فلا يصل البشر إلى شيء منها، يقول تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .:. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[1].

وقصيدته:

إنَّ تقوى ربنا خير نفل *** وبإذن الله ريثي والعجل

أحمد الله ولا ند له *** بيديه الخير ماشاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى *** ناعم البال ومن شاء أضل.

وكان لبيد أحدث أصحاب المعلقات عصرا وآخرهم موتا. مات عام 41هـ، وعمَّر مائة وسبع وخمسين سنة.

[1] سورة الروم، السورة 30، الآيات 6 و7.

يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، أما الأغوار و الأعماق فيفصله الحق، و يفسره الحق، ويبينه الحق.. والحق هو القرآن، يقول الله تعالى: ﴿ الم .:. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .:. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[1]. ويقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[2].

و العقل البشري أمام عالم الحق شيء ضئيل، ضئيل جدا. و لا أراه إلا أنه ظل من هذا العالم حيث هو، لم ينفعه هذا التقدم العظيم الذي يقال إن الإنسانية قد بلغته، و الذي يقال إن العقل قد أحرز فيه كشف أسرار الطبيعة، و امتلك ناصيتها.

و إنما كان التحدي بالقرآن، ردا على أهل الريب والكفر، لاعتقادهم أنه من غير الله، وقد حدثنا الله بشأنهم على مراتب :

أحدها، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[3].

و الثاني، قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ .:. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

و الثالث، قوله تعالى: ﴿ أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[5].

أما التحدي بالخلق، فإنما هو رد على المستكبرين في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[6].

---

[1] سورة السجدة، السورة 32، الآيات 1-3.
[2] سورة النساء، السورة 4، الآيات 170.
[3] سورة الأنفال، السورة 8، الآية 31.
[4] سورة العنكبوت، السورة 29، الآيات 50 و51.
[5] سورة ص، السورة 38، الآية 8.
[6] سورة البقرة، السورة 2، الآية 258.

وبالجملة، فقد تحدى الله الناس بكلامه، وبخلقه، ثم نزل بهم إلى ذواتهم فتحداهم في عقولهم وفكرهم، وتحداهم في علمهم[1].. وإن ما يجمع مواضيع التحدي التي ذكرنا بالقرآن كونه تفصيلا لها، وتفسيرا لدقائقها.

الفصل الثاني: وجوه التحدي بالقرآن:

تعرضنا في الفقرة السابقة إلى وجوه التحدي في القرآن، و ننظر الآن إلى وجوه التحدي به :

يقول ابن قيم الجوزية، في كتابه بدائع التفسير : فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن، تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه، حتى قصر بعضهم الإعجاز

---

[1] وقد يسأل سائل: هل يتحدى القوي الضعيف ؟ فالجواب : وهل يتحدى أحد إلا من كان أضعف منه ؟ فإن من لم يكن أضعف منك، فإما يساميك في القوة.. وتحديه تحد للذات وهو ضرب من الجنون.. وإما أقوى منك وتحديه لا يستقيم لعاقل. أما عن سؤالهم : هل يصح أن يقال يتحدى الله خلقه ؟ فجوابه أسهل وأسلم..
فالتحدي إنما تحكمه الغاية التي من أجلها وقع ذلك التحدي والحكمة التي وجدت من ورائه.. وغاية الله من تحدي عباده بالقرآن ما كانت لإظهار قوته عليهم فهو القوي.. إنما الغاية تصديق رسالته إليهم واختصاصه بالعبادة والتوحيد من قبلهم. فإن قوته ظاهرة بحكم التقرير لا بحكم التحدي، وهي جلية من خلال صفاته تعالى في القرآن. يقول الله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا، سورة النساء، الآية 28. ويقول تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، سورة فاطر، الآية 15. ويقول تعالى: هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ، سورة الفتح، الآية 38. ويقول تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، سورة هود، الآية 66. ويقول تعالى: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، سورة الشورى، الآية 19. فلما كانت غاية التحدي إظهار صدق الرسالة، زالت الشبهة في جواز القول بتحدي الله تعالى لعباده. ولو دققنا النظر في القرآن الكريم، لوجدنا مثل هذا السؤال والجواب عليه بين في قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ، سورة البقرة، الآية 26.
وهذه الصورة صورة جدال من نوع هل يجوز ؟ وله سبب. وذلك أن الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب في سورة الحج وبالعنكبوت في سورة العنكبوت قال الكفار : إن الرب عظيم فلو كان هذا كلامه لما تكلم بهذه الحيوانات الخسيسة القدر لجلالة رتبته عن ذلك. وبنفس المعنى ما جاز له أ يتكلم على مثلها وهو عظيم. فأجاب الله تعالى عن هذا السؤال بمنع انتفاء اللازم في الاستدلال، وتقريره : لا نسلم أن عدم ذكره لمثل هذه الحيوانات لازم لكون القرآن كلام الله تعالى، بل الله عز وجل لا يستحي في تحقيق الحق وإبطال الباطل من ضرب الأمثال بهذه الحيوانات وأمثالها حتى البعوضة فما فوقها وما فوقها في الصغر والكبر. ثم إن الكفار اعترضوا على هذا الجواب، فقالوا: الله عز وجل قادر على ما أراد من تحقيق الحق وغيره بدون ضرب الأمثال بهذه الحيوانات المذكورة وحينئذ يخلو ضرب الأمثال بها عن حكمة، وإلا فماذا أراد مها من الحكمة وما فائدتها ؟ فأجاب الله تعالى عن ذلك بمنع خلو ذكرها عن الحكمة بل له فائدة وهو أنه يضل به كثيرا من الكفار المعارضين ويهدي به كثيرا من المؤمنين المسلمين لما يبلغهم عن الله عز وجل على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وهو معنى قوله سبحانه وتعالى : يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. والله تعالى أعلم.

على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها، وقصر بعضهم الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام، وبعضهم على ما اشتمل على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، على غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله.

فإن جئنا نريد أن نعدد مجالات التحدي بالقرآن، لم يسعنا ذلك، لأن القرآن مبين، مفسر، شامل، محكم. ثم إنه احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل، مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك..

وتحديه يطال جميع جوانب المعرفة عند البشر : العلم البياني، والتاريخي، والإخباري، والتشريعي، والتربوي، والعلمي التجريبي، والعلمي الصحيح، وفي كل عصر يبرز جانب من جوانب الإعجاز القرآني تبعًا لاهتمامات الناس ومعارفهم.

ولعلي ذكرت في هذا الباب بعض مجالات هذا التحدي وهذا الإعجاز بالقرآن، ولن نحصره بما ذكرنا، إنما نذكر ما نعلم، وفوق كل ذي علم عليم.

الفصل الثالث: من هم الذين تحداهم القرآن ؟

بلسان عربي مبين.. و مع ذلك نقرأ تحديه في آياته.. فمن هم الذين تحداهم القرآن ؟ هل هم العرب ؟ هل هم اللغويون ؟ أم وجه تحديه لطلاب العلم كافة حتى أولئك الذين تخصصوا في بقية المعارف و لم يتسنى لهم أن يحصلوا من العربية إلا بسائطها و لم يدرسوا اللغة في عمومها أو لم يتعمقوا درسها ؟

إن موضوع التحدي قد وضحه الله تعالى في قوله: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .:. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[1].

ويدرك الناظر في الآية، أن الله تعالى قد تحدى البشر جميعهم. ذلك أن الآيتين السابقتين لهذه الآية تدلان على ذلك، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآية 23 و24.

[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 21 و22.

فالكلام موجه للناس بعمومهم.. وألطف من ذلك أن الناظر في الآيتين الأخيرتين ير أنهما أشارتا إلى جميع أصناف العلوم، من الخلق وما يتصل به.. كعلم الأحياء و البيولوجيا، إلى التاريخ وما يتصل به من دراسة الأمم السابقة والاعتبار بها.. إلى الأرض وما يتصل بها، من علم ما فيها من الكائنات وما بها من طبقات، وما على سطحها من أنهار ومن تراب وما فيها من زلزل وبراكين وإلا فلماذا قال تعالى : فراشا ؟.. إلى السماء ما يتصل بها من علوم الفضاء وعلوم الفلك والسواقط (كالمطر والبرق و الرعد).. إلى البناء وما يتصل به من علم العدد والحساب والأطوال والأشكال والإحصاء والاحتمالات.. لأن الناظر في بناء الأمم التي أشار إليها أول الآية قد تساقط واندثر فما لهذا البناء باق على حاله ولا أحد يرممه إن لم يكن وراءه خالق؟.. وإنما قال بناء ولم يقل سقفا هنا بخلاف بعض الآيات، والله أعلم بقصده، لأنه يتحدى أصحاب المهارات والحسابات والإحصاءات.. ويتحدى الملمين بعلوم الحساب بأصنافها بما فيها علم العدد الذي يبحث في جزء منه في الكميات والقياسات.. وعلم الهندسة الذي يبحث في الأشكال.. والبناء إذا رجعنا لعلم الجبر العام نجده أجل ما يبحث فيه.. ثم علوم الماء وما يتصل به من تحولات كيميائية لكون الإخراج يأتي بحدوث تلك التحولات والعمليات.. ولم يكن أحد يلم بذلك.. ثم علم الثمار وما يتصل به من علوم النبات.. وعلم الأرزاق وما يتصل به من علم التصرف وإصلاح المال والتجارة.. وغيرها.. فانظر هذه الأسرار العظيمة.. كيف نشأت.. فإن كانت هذه هي أصول علوم الإنسان وفروعها، المتصلة بحياته، وعقله.. فإن الله تعالى تحدى هذا الإنسان بكل علومه إن هو لم يدرك عظمة الله تعالى ولم يقر بوحدانيته، ولم يؤمن برسالته، أن يأتي بسورة من مثل كتابه الذي أنزل ..

فالتحدي، كما هو واضح، كان لكل الناس بمختلف ميادينهم ومناهجهم.. وهذا التحدي ، كما أشرت، يلزم كل من بلغه من الناس، أميهم وقارئهم، عربهم وعجمهم.. لا فرق بينهم إلا في اتباع الحق.. والتزامه ومحبة أهله..

تعقيب حول مسألة التحدي:

وقد يحكم بعض الجهلاء والمتعصبين على هذا التحدي فيحصروه بزمن أو بأمة أو بميدان، وهو كما أوردنا، ماض في كل زمان، موجه لكل أمة، يقرع كل ميدان بديدن الحق..

وقد يذهب في ظن بعض هؤلاء القوم، أن القرآن إنما خاطب العرب بما هو كائن في حياتهم، وأنا أسأل هؤلاء، إن كان خاطب العرب بما هو كائن في حياتهم وواقعهم إبان نزوله، فهل خاطبنا أيضا بما هو واقع في حياتنا أم أن خطابه اقتصر على عرب الجاهلية ؟

وقد يذهب في ظن البعض أن ليس من وحي في القرآن سوى التوحيد و أحكام الدين و أبواب الشريعة، وهي الأشياء الحاصل بها التحدي، لا غيرها مما ندعي، بحسب زعمهم، أنه تحدى الناس في كل شيء،

حتى في علمهم ومدركات عقولهم وحسهم. ولهؤلاء أقول: أليس العلم ومدركات العقل و النظر يقوم على صدق القرآن.. وهل أنكر العلم توحيد الله، حتى نزيح مقامه عن مائدة القرآن ؟

فإن قيل لنا: أن السلف الصالح والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء مما يذكر الآن بعلميته إلا ما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة، ولو كان لهم خوض في مثل ذلك لبلغنا منه ما يدل على أصل المسألة. إلا أن ذلك لم يكن، فدل ذلك على أنه غير موجود.

وهذا التقرير، باهت لا حق فيه، يرده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في القرآن.

أما كونهم أعرف بالقرآن، فلا يدل على أنهم عرفوا كل ما فيه، وهو كلام الفاروق الأكبر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين قال: الفاكهة معلومة، فما الأبّ، ثم قال : إن هذا لهو التكلف يا عمر، ولا تكلف في معرفة الشيء على ظاهره، ولكن التكلف في إقحام الشيء إلى الشيء بدون علم.

وقد يقال لنا : هل كان في الحجاز زمن البعثة علماء بالطبيعيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وسائر العلوم، حتى يخاطبهم القرآن ويتحداهم ؟ ولهؤلاء نقول: وهل حجبت الرسالة عن علماء الطبيعيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا ؟ بل هو قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[1].

والبيان في الآية، كما أوردنا، لا يقتضي وجوب تأخير البيان بل يقتضي تأخير وجوب البيان، ذلك لأن وجوب البيان لا يتحقق إلا عند الحاجة.

إن الأمة في أول أمرها كانت أحوج إلى التشريع وبناء الفكر ومنهجة النظر وتحريك العقل وتطهيره من الخرافات.. أحوج لذلك، في نموها، من الأدب، لذلك كان القرآن الباب الذي ألمّ بكل هذه الأشياء.

فإن قيل لنا: إن ما ورد في القرآن من مشاهد الكون ونواميسه قد استهدفت العظة والتدعيم، دون أن ينطوي على قصد تعزيز ماهية الكون وأطوار الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية... وأنه من الجيد ملاحظة ذلك كي لا ننجر إلى التكلف والتجوز والتخمين، ومحاولة استخراج النظريات العلمية في حقائق الكون مثلا، ونواميسه وأطواره منه، والتمحل والتوفيق والتطبيق، مما يخرج القرآن عن نطاق قدسيته.

وأنا أسأل هؤلاء : لماذا السؤال في القرآن ؟

أكان ذلك ليظهر إشكالا ؟ أو ليطرح بيانا ؟[1]

[1] سورة القيامة، السورة 75، الآية 19.

ثم هل أجاب القرآن عن الأسئلة التي فيه، وهي عديدة ؟ وكيف أجاب ؟ هل أجاب إجابة تفصيلية مانعة تدل على أن منزله العليم بكل شيء ؟ أم أجاب إجابة موجزة بعيدة عن الحق يستغفل بها قارئيه ؟

انظر في القرآن، فسوف تقف على الحكمة كلها، والحق كله، والبيان كله.

لقد سألنا القرآن : كيف بدأ الله الخلق ؟

انظر كيف أجاب ؟

وقبل أن تنظر كيف أجاب.. أجب أنت عن هذا السؤال.. وانظر في إجابات الناس..

ثم بعدها انظر في حق نفسك وفي حق القرآن، ولا شك أنك ستقف في حق نفسك، على قوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .:. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[2].

و ستشهد للقرآن بما شهد له الله في قوله تعالى: ﴿ حم .:. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ .:. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .:. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[3].

وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم..

ثم لي سؤال آخر: هل القصص القرآني للتاريخ أم للتمثيل ؟

---

[1] يحسن بنا أن نذكر هنا الأغراض البلاغية للاستفهام وهي: النفي، كما في قوله تعالى: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. والإنكار، كما في قوله تعالى: فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون. والتقرير، كما في قوله تعالى: أليس الله بأحكم الحاكمين. والتهكم والسخرية والتحقير، كما في قوله تعالى: قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا. والتعجب، كما في قوله تعالى: ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا. والتسوية، كما في قوله تعالى: سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرالله لهم. والتشويق، كما في قوله تعالى: يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. والتمني، كما في قوله تعالى: فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا. والأمر، كما في قوله تعالى: وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين ءأسلمتم. والتوبيخ، كقول أحدهم: إلام الخلف بينكمو إلاما وهذي الضجة الكبرى علاما. والحث، كما في قوله تعالى: ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله. والوعيد، كما في قوله تعالى: ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين. والحض، كما في قوله تعالى: ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة. والعرض، كما في قوله تعالى: ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم. والتهويل، كما في قوله تعالى: الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة. والتحقيق، كما في قوله تعالى: هل أتى على الإنسان حين من لدهر لم يكن شيئا مذكورا. والاستبطاء، كما في قوله تعالى: متى نصر الله. والاستبعاد، كما في قوله تعالى: أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. والتحسر، كقول أحدهم: مال للمنازل أصبحت لا أهلها أهلي ولا جيرانها جيراني.

[2] سورة الروم، السورة 30، الآية 6 والآية 7.

[3] سورة الزخرف، السورة 43، الآيات 1-4.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

و يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

فهذا الجواب على من ظن أن القصص لا يكون إلا تاريخيا أو تمثيليا، بلى هو منسجم مع التاريخ لأنه الحق.. غير أن وراء التاريخ له ورده الفكري الذي لا يجب أن نغفله، أو نغفل عنه.

لذلك أوجه أسئلتي لمن أراد أن يدرس القرآن ويتدبره.

هل تضمن القصص مناهج الفكر ؟ وهل تضمن إجابات عن مسائل الفكر ؟

أم أن الفكر محكوم بها إذا أراد الحق أن يسير إليه ؟

[1] سورة الأعراف، السورة 7، الآية 176.

[2] سورة يوسف، السورة 12، الآية 111.

الباب الخامس: في إعجاز القرآن:

الفصل الأول: في السؤال، لماذا لم يكتشف المسلمون ما بث في القرآن من دقيق العلم ؟

فإن قيل: ما دام القرآن يحتوي كل هذا العلم، فلماذا لم تكتشفوه ؟[1]

فجوابه من وجوه:

[1] من الجدير بنا هنا، أن لا نغفل أن نذكر ونذكّر بأن المسلمين كانوا أول من قالوا بتقعيد العلم، اباستنباطهم علوما من القرآن في فترة العصر الذهبي للأمة. لكن تراجع اللمسة القرآنية في حياة الأمة كان السبب في انكفاءها وانقطاع ذلك المد الحضاري العلمي الهائل الذي كان بحق السبب الاول لنهضة الإنسانية ومن ثم ثوراتها العلمية والتقنية: فالكندي أول من اخترع علم الشفرة وكان من كتاب الله تعالى. والخوارزمي أول من أسس لعلم الجبر من ايات المواريث في سورة النساء. حتى اكتشاف كروية الأرض كان من علماء مسلمين بعدما تحسسوا ذلك من القران. واكتشف ابن الهيثم حقيقة الضوء من اية البرق في سورة البقرة، ووضع ابن خلدون نظريته التداولية في علوم الاجتماع من قوله تعالى نداولها بين الناس. وكان جابر بن حيان الكوفي أول من أسس لعم الكيمياء التجريبي. وكان البيروني أول من وضع علم تحديد المواقع بتحديده القبلة في أكثر من أربعة ألاف موضع من الكرة الأرضية: انظر كتابه (المسعودي) الذي كوفئ عليه بوزن ثور ذهبا فرفض وقال: ليس من أجل هذا ألفت هذا الكتاب.. وهو يعني أنه ألفه لأجل أن يكون علما نافعا ينتفع به ويدخر أجره، وكان هو أول من أسس للهندسة الكروية، التي تنسب الآن لغيره. ومن العجيب أن نذكر متونا اشتهرت في الآداب ونغفل عن مثيلاتها في الرياضيات والكيمياء: فإن الغالب يذكر في النحو: نظم الآجرومية لابن أب، وفي المصطلح: البيقونية، وفي الأصول: نظم الورقات، وفي اللغة: نظم مثلث قطرب لعبد العزيز المغربي، وفي علوم القرآن: منظومة الزمزمي، وفي البلاغة: مائة المعاني والبيان لابن الشحنة، وفي السيرة: الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية لابن أبي العز الحنفي، وفي الصرف: نظم المقصود لأحمد بن عبد الرحيم، وفي القواعد الفقهية: منظومة عثمان بن سند المالكي، وفي المنطق: السلم المنورق للأخضري، وفي التجويد: تحفة الأطفال للجمزوري (أو الجزرية)، وفي الحديث: جوامع الأخبار لابن سعدي (أو الأربعين النووية)، وفي العقيدة: السفارينية (أو سلم الوصول)، وفي الأدب: لامية ابن الوردي. لكنهم يغفلون عن الياسمينة في الرياضيات، ومتن ابن سيناء في الطب، وديوان الحكمة في علم الكيمياء وما كان له علاقة بعلوم الدواء والغذاء، ومنظومة ليتاذوق في علم الصحة، والأرجوزة في الطب للرازي ...الخ. فقد ألف المسلمون في كل فن ما ييسرون على المتعلمين حفظه وفهمه. وأحاطت تآليفهم بعلم المنطق، والعلوم الرياضية والحسابية جبر هندسة أرقام عددية، وعلم الفلك والمنازل وعمل الميقات، وعلم الهيئة والتقاويم والمواقيت، وعلم آلات الرصد. الإبرة والإسطرلاب، والكيمياء وما يلحق بها من علوم الدواء والحكمة، والطب وعلومه. الأغذية والأشربة، والعلوم الفيزيائية، وأحكام النجوم، والكهانة والسحر والشعوذة والفلسفة.

الأول: أن الأمر واقع على سبيل الأقدار التي أجراها الله سبحانه وتعالى، فإن واقع الحال كما ذكر في الكتاب أو في حديث النبوة من علامات تغير الزمان وأحوال الناس وصفات الفرق وكثرة العلم وانتشاره ورفعه وقلة العلماء بمثل ما نرى اليوم وبالأمس وغدا. وكثير مما وصف ما نزال ننتظره وقد لا نحياه.

وغفلة الناس عن تلك الأشياء وتحققها على أيديهم، من جريان القدر مع معرفتهم بتلك الأمور كلها وتذكيرهم حتى لا يكونوا طعما من طعم الضلال. فتجدهم يصرون ويتحنثون على ما يرون من الهوى ويثبتون عليه.

فكذلك الشأن بكل ما قدر الله تعالى في هذه الحياة، وما قدر للناس في أخذهم وعطائهم وعلمهم وتفكرهم وتدبرهم دون أن تنتزع من الناس القدرة على الفعل وعلى التفكير بل ومع وجود الدعوة إلى التدبر والحض عليه والأمر بالتفكر وإعمال النظر في المحسوسات والعقل في المعقولات.

وما ينفع أمر القرآن إذا تكاسل بنو الإنسان عن إتيانه والعمل به وأدبروا أن يصيبوا ما فيه من الخير.

بل إنه من موجبات القول هنا أن نقول ليس فقط نتائج هذه العلوم وخلاصتها قد بثت في القرآن بل نتائج ذلك العصيان في كل ناحية من نواحي الحياة.

الثاني: أن الأمر ما دامت هذه العلوم في القرآن لماذا لم نكتشفه. والجواب أننا لم نبحث عنه ولم نستنر به. أليست النعم الباطنة كالذهب والبترول رابضة في أراضينا فما الذي دعانا أن لا نكتشفها هي موجودة، أم أن الحكم على كوننا لم نكتشفها يوجب الحكم كونها مفقودة وإلا فلماذا لا نجدها وهي كامنة تحت التراب الذي عشنا ندوسه بأقدامنا وبسنابك خيلنا.

الثالث: أن الذين يسألون هذا السؤال، لسؤالهم أحد وجهين. إما أن يكون على سبيل الإنكار على من لم يتدبر القرآن وانشغل عنه. أو على سبيل انكار حقيقة أن في القرآن من العلم ومن الغيب ما يشهد بصدق ما نقول في حقه تحت باب الإعجاز بكل فصول ذلك الإعجاز. وعلى الوجه الثاني لابد لنا من تأمل الواقع، والواقع أن القرآن فصل للعالمين أمورا من العلم لا سبيل لأحد إنكار تفصيل القرآن لها على سبيل الدقة ولا ينكر أحد عدم وجود من يعلم بها زمن نزول القرآن بل وبعد نزوله بالقرن والقرنين والعشر، والتالي فإنكاره لتلك الحقائق يكون ضربا من العناد أو الجنون.

وإن قيل: كيف نحكم آي القرآن بنظر العلم.

قلنا، إن الله تعالى أمرنا بالنظر في الخلق وفي نهايات من سبقنا، فلو كان النظر يخالف الحق ما كان القرآن ليدعونا إليه. بل إن دعوة القرآن لذلك النظر وذلك التفكر له غاية من جملة غاياته أن يكون ذلك النظر وذلك التفكر مطابقا له والتالي مناسبا لتصديقه.

الفصل الثاني: في التوجيه العلمي للقرآن:

كنا، إذ تكلمنا عن اللسان في الفصول السابقة، ذكرنا أن إلزامنا القول في اللسان أنه الحرف وتصاريفه أو ما نطلق عليه اللغة العربية لا يعدو أن يكون صيغة للسان لا اللسان ذاته. وبينا أنه مما يدخل تحت باب اللسان، النظر والفكر والعقل والمنطق والكلام والقول والصمت والإشارة .... وكل ما له علاقة بالفهم وبيان الحق، وربما في اصطلاحاتنا الحديثة نطلق على كل ذلك لغة فنقول لغة الإشارة ولغة الصمت ولغة الفكر... فإذا وفقنا لفهم ذلك علمنا أنه ما من كتاب جمع هذه الأمور فاستحق أن يتدبر إلا القرآن، بمعنى أن نزول القرآن باللسان العربي المبين هو مفتاح تدبره. وتم بذلك أن المنطق جزء منه. وإذ كان جزءا منه تبين تفوق البرهان القرآني على البرهان العقلي من حيث المنهج والنتيجة. فهو من حيث الشمولية أعم ومن حيث المنهج أوثق ومن حيث النتيجة أدق. وليس أمنع ولا أجمع من البرهان القرآني، وإن ظن عامة المناطقة غير ذلك، كون البرهان في القرآن يزاوج العقل مع القلب، والروح مع النفس، والحس مع الإحساس. وهذا ما يميز البرهان القرآني كونه لا يخاطب جانبا معينا في الإنسان إنما يخاطبه في كله. ومن أي زاوية أراد المرء أن يأخذ الحقيقة من القرآن ما صد لأجل نقص بيان لشمولية لسان القرآن واحتوائه كل مناهج النظر والفكر والاستدلال عند الناس.

ثم إنه لا ريب أن الخطاب نفسه لم يكن موجها لفئة من الناس معينة، إنما يتوجه لجميع الناس، الأمي والمتعلم، والمكابر والمتفقه، والمعاند والمطمئن، والجاحد وطالب اليقين. ولو نظرنا القرآن من هذا الباب فقط لكفى دليلا أنه الحق وأنه كلام الله.

ولعلنا نقف مع ضرب من ضروب الإستدلال، وهو القياس[1].

والقياس أنواع ثلاثة:

الأول: ما أضمرت إحدى مقدماته، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]، فأضمر خلق آدم عليه السلام بدون أب وأم، واكتفى بذكر خلقه من تراب لحضورها في ذهن المخاطب.

الثاني: التمثيل: وهو قياس أمر على أمر بديهي أو معروف. ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ .:. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[3].

---

[1] يقوم القياس على أربعة أركان، هي: الأصل، وحكم الأصل، والفرع، والعلّة، وهي أهم ركن من أركانه؛ لأنَّه لا يوجد إلاَّ إذا وُجدت، إذ عليها مدار تعدي الحكم من الأصل إلى الفرع.

[2] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 59.

[3] سورة يس، السورة 36، الآيات 78 و79.

والثالث: قياس الخلف: بأن نثبت الأمر بإبطال نقيضه. ومثاله قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

ومن أساليب البرهنة، السبر والتقسيم: وهو في اصطلاح الجدليين التقسيم والترديد، وعند الأصوليين السير والتقسيم، وعند المنطقيين الشرطي المنفصل. ومعناه حصر الأوصاف التي يُتصور صلاحيتها للتعليل في الأصل ثم إبطال ما لا يصلح منها فيتعين الباقي[2]. ومثاله قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[3]، فلا يخلو الأمر من أحد ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح. الأولى: أن يكونوا خُلقوا من غير شيء أي بدون خالق أصلاً. الثانية: أن يكونوا خلقوا أنفسهم. الثالثة: أن يكون خلقهم خالق غير أنفسهم. ولا شك أن القسمين الأولين باطلان، والبطلان فيهما ضروري، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه لوضوحه. والثالث: هو الحق الذي لا شك فيه، وهو جل وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده جل وعلا.

---

[1] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 22.

[2] السَّبر والتَّقسيم عمليّة عقليّة يعتمد فيها على إثبات العلّة عندما يرد نص شرعي بحكم من الأحكام، ولم يوجد في النص ما يدلُّ على العلّيّة، كما لم يوجد إجماع يدلُّ عليها، فيقوم المستدل بالقياس بحصر الأوصاف الموجودة في محل الحكم، ثم يختبرها وَفق شروط العلّة، فيحذف ما لا يتوفر فيه هذه الشروط ويبطله، حتّى يبقى وصف تتوافر فيه شروط العلّة. كما تقول: الخمر هو: مائع، أحمر اللون، يقذف الزبد، ويسكر، فلا يعلّل بهذه الأقسام لبطلانها، ويبقى فقط الإسكار، فيكون هو علّة تحريم الخمر.

[3] سورة الطور، السورة 52، الآية 35.

الباب السادس: أمثلة من إعجاز القرآن

الفصل الأول: في إظهار التوافق الدقيق بين القرآن وحقائق العلم اليقينية:

المثال الأول: دراسة سورة الإخلاص:

نتناول، في هذا المبحث، جملة من أسرار سورة الإخلاص، اللغوية والعددية والعلمية، سألت عن بعضها واستنبطت بعضها استقراء، لأبين طرفا مما فيها من لطائف، لعلها تكون بداية لدراسة أكثر تدبرا وأعمق تحليلا وأدق تفصيلا[1].

وإنما اخترت أن أتناول السورة من هذه الجوانب الثلاثة : الجانب اللغوي، والجانب العلمي، والجانب العددي، بيانا لتوالي عجائب هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد وقفت على جملة التفاسير، في أكثر من ثمانين تفسيرا بمختلف المدارس، فلم أجد من المفسرين لهذه السورة من تجاوز الجانب اللغوي، فأردت أن أجمع شتات ما قالوا في اللغة فأجمله وأبينه وأوضح ما فيه من خلل أو عطل ثم أجلي ما في السورة من جليل العلم ودقة تفاصيل الإشارات العلمية فيها، وهو أمر غفل عنه المفسرون، حتى المتأخرين ممن عاصروا هذا التطور العلمي الذي نراه. وأنهي البحث بالكلام عن أسرار السورة العددية لأتناول دقة ترتيبها في القرآن ودقة تقسيم آيها وكلماتها وحروفها.

هذا ومن المتعذر أن ينهض شخص مهما كانت سعة اطلاعه وكثرة علمه، فضلا أن يكون قليل زاد مثلي، لبيان ما في سورة الإخلاص، التي تعدل ثلث القرآن، من جمال اللغة وروعة الترتيب وصادق العلم. إنما هو سعي لبيان بعض أسرارها عسى أن يكون ذلك، إن أخلصت لله، فاتحة لمتدبر وملامح تأخذ بيد دارس وإضاءات توضع في طريق سالك ودلائل تدل على أن هذا القرآن لا يقدر على مجاراته أحد.

أسباب نزول السورة :

اجمع المفسرون وأهل العلم بالتنزيل أن السورة نزلت جوابا عن سؤال واختلفوا في السؤال ماهو ؟ ومن القوم الذين سألوه ؟ وذلك على ثلاثة وجوه [1]:

---

[1] تناول بعض الباحثين، سورة الإخلاص بالدراسة والتحليل، غير أن معظم الدراسات لم تخض في الأعماق العلمية المستفادة من السورة. وظلت في غالبا تكرارا وجمعا لما قيل في سبب نزولها وأسمائها وفضائلها وتناسبها وإعرابها والقراءات الواردة فيها. ومع جلال ذلك إلا أننا نحاول في هذا الفصل تجلية صور جديدة للسورة قد تفتح بابا للمتدبرين والله نسأل الإخلاص والصدق في الأمر كله.

الوجه الأول : قال بعضهم أن القوم هم اليهود وسؤالهم : هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟

الوجه الثاني : قال آخرون أن القوم هم المشركون جوابا عن سؤالهم : يا محمد انسب لنا ربك ![2]

الوجه الثالث : وهو ما ذكره آخرون من كون القوم هم النصارى جوابا على سؤالهم : صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت أو ذهب أو فضة ؟

وتفصيل القول وبيانه أن السورة جواب لكل هذه الأسئلة، وإحكام لمن أراد أن يتعداها.

الحكم المستنبطة من تعدد أسباب نزول السورة :

لعل أول ما ينبغي الإشارة إليه أن السؤال لم يصدر عن طائفة من المسلمين إنما هو عن اليهود والنصارى والمشركين. وما لا ينبغي لمن قبلنا لا يحسن إتيانه منا. والقصد هنا السؤال عن ذات الله وصفاته والخوض فيها. ولكنه أمر حكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم : لتتبعن سنن من قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.

وإنما أقول هذا لأن افتراق الأمم من قبلنا كان هذا مرتكزه، وسهل لكل من يدرس الفرق اليهودية والمسيحية أن اختلافاتها أساسا كانت حول صفات الله. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة.[3]

وإنما ذكرت هذا استنطاقا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم فقد سأل الجارية : أين الله فقالت : في السماء فاقرها على الإيمان، ولم يتعد إلى سؤال آخر أشد تفصيلا كأن يقول لها : هو في السماء وهل هو في الأرض أيضا ؟ أو أن يقول لها : أين هو في السماء. فكل من نهج منهج النبي صلى الله عليه وسلم سلم ومن انتهج نهج اليهود والمشركين والنصارى ضل وإن كان يظن أنه على صواب. وكل من تكلم في الصفات بعقله فقد جسم وكيف وأول علم ذلك أم لم يعلم.

ذكر لنا أحد الدعاة مرة كلاما ما علمت أن له سندا في السنة : قال وهو يقف في محراب النبي صلى الله عليه وسلم بأحد الجوامع: من قال أن الله في كل مكان فقد كفر، بل الله في السماء.. فيذكر حديث الجارية، ثم يسأل نفسه : لماذا كفر ؟ ويجيب : لأننا سنسأله : أيكون الله وسط القاذورات والنجاسات معاذ الله ؟ أليست تلك من المكان ؟

---

[1] أسباب نزول القرآن، الواحدي، تحقيق: عصام الحميدان، دار الإصلاح–الدمام، الطبعة الثانية، 1992م، ص345.

[2] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية–بيروت، 2004، الجزء 16، ص 175.

[3] رواه أبو داود.

قلت : قد تعلم هذا من الجارية.. ولم يتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك من وجوه :

الأول : أن سؤاله بدعة لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما ذكره الإمام مالك لما سئل عن الاستواء، قال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة[1].

فكيف يبني حكما على سؤال بدعي ؟

الثاني : أنه لما سأل فهم من سؤاله التحديد والتكييف وضبط الأمر بالمكان، فقال أيكون وسط كذا وكذا، ومن فعل ذلك هو الذي يخشى عليه الكفر.

الثالث : أن النبي صلى الله عليه وسلم سن للمسلمين أن لا يستعبدوا المؤمنين، فقال عليه الصلاة والسلام : اعتقها فإنها مؤمنة. فجعل إيمانها سبب عتقها. وإنما قدم النبي صلى الله عليه وسلم الكلام عن العتق قبل الإيمان لتثبيت ذلك الحكم.. إذ لم يقل : إنها مؤمنة فاعتقها.

وأعجب أن لا يشار إلى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لعتق المؤمنين في الحديث ويتلهى الناس بكلام الجارية. فلو أنهم تكلموا في الأمرين لكان أوفق.

والأمر الثاني الذي يكمل الأول وهو رد فعل النبي صلى الله عليه وسلم :

وهو على ثلاثة وجوه حسب الروايات، الأول لما سأله اليهود ؛

روي عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضبا لربه فجاء جبريل عليه السلام فسكنه فقال: خفض عليك يا محمد، وجاءه من الله بجواب ما سألوه: قل هو الله أحد.. السورة.[2]

---

[1] قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد قول مالك : وهذا الجواب ثابتٌ عن ربيعة شيخ مالك , وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ولكن ليس في إسناده مما يعتمد عليه, وهكذا سائر قولهم يوافق مالك. مجموع الفتاوى، الجزء 5، ص 365. وربيعة هذا هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ القرشي المدني، أحد الفقهاء المشهورين توفي سنة 136 هـ . قال الذهبي في العلو، ص 104: هذا ثابت عن مالك وتقدم نحوه عن ربيعة ، شيخ مالك وهو قول أهل السنة قاطبة ، أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه وأنه كما يليق به. قال أبو بكر ابن العربي: ومذهب مالك رحمه الله أن كل حديث منها معلوم المعنى ولذلك قال للذي سأله : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، انظر: عارضة الأحوذي، الجزء 3، ص 166. قال القرطبي في تفسيره: قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم- يعني في اللغة- والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ، ثم قال القرطبي : والاستواء في كلام العرب هو العلو والاستقرار ، انظر: تفسير القرطبي، الجزء 7، ص 141.

[2] أحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة 3، 2003م، الجزء4، ص 468.

وإنما غضب النبي صلى الله عليه وسلم لأن هذا السؤال متعلق بذات الله مما يغيب عن الناس فقهه والعلم به. وهو من أشد ما يفرقهم.

قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال يسألونك يا أبا هريرة حتى يقولوا: هذا الله، فمن خلق الله قال: فبينا أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب، فقالوا: يا أبا هريرة، هذا الله، فمن خلق الله؟ قال: فأخذ حصى بكفه فرماهم، ثم قال: قوموا قوموا صدق خليلي.[1]

وعنه رضي الله عنه أنه قال: إني لجالس يوما، إذ قال لي رجل: هذا الله خلقنا، فمن خلق الله؟ فجعلت أصبعي في أذني، ثم صرخت: صدق الله ورسوله: الله الواحد الأحد، الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.[2]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : كنا (عند) رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل أقبح الناس وجها وأقبح الناس ثيابا وأنتن الناس ريحا جلفا جافيا فتخطى رقاب الناس فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من خلقك قال الله قال فمن خلق السماء قال الله قال فمن خلق الأرض قال الله قال فمن خلق الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله مرتين وأمسك بجبهته فقام الرجل فذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بالرجل فطلبناه فكأن لم يكن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا إبليس جاء يشككككم في دينكم.[3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا {الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد} ثم ليتفل عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان.[4]

وعنه رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقال: هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله ورسوله.[5]

فعلى مثل هذا يصح الغضب.

الوجه الثاني لما سئل أن صف لنا ربك.

---

[1] رواه مسلم.

[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م، المسألة 8، ص 222.

[3] رواه الطبراني في المعجم الأوسط، الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين القاهرة، الجزء 6، ص 114.

[4] هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، ابن حجر، تحقيق: علي بن حسن عبد الحميد الحلبي، دار ابن القيم، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م، الجزء 1، ص 88.

[5] رواه مسلم.

روى إسماعيل بن أبي زياد عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال دخلت اليهود على نبي الله فقالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه لنا فقد وصف نفسه في التوراة ونسبها فارتعد رسول الله حتى خر مغشيا عليه فقال كيف تسألونني عن صفة ربي ونسبه ولو سألتموني أن أصف لكم الشمس لم أقدر عليه فهبط جبريل، عليه السلام، فقال يا محمد قل لهم الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد أي ليس بوالد ولا بمولود وليس له.[1]

والوجه الثالث، أنه سكت وانتظر نزول الوحي عليه.

والوجوه الثلاثة رد على المتكلمين ومن خاض معهم في صفات الله وإن كان قصد بعضهم تنزيه الله ودافعهم الذود عن شرع الله ودينه. ولكن طريق النبي صلى الله عليه وسلم أنسب لمتبع وأيسر للسالكين.

ورد النبي صلى الله عليه وسلم بيان لما يجب أن نرد به على من خاض في مثل هذه الأسئلة. بل وبيان أيضا للأسئلة التي يمكن طرحها وما الواجب تجنبه منها.

فإن السؤال على ثلاثة ضروب : سؤال تنال به علما يقربك إلى الله، وهذا محمود. وسؤال تنال به سخط الله تعالى فهذا مذموم، وسؤال تعلم أن لا جواب عليه لأنه يفوق طاقة البشر فهذا طرحه وتجنبه سواء.

وإنما أقول هذا وأبينه لما أرى من بحث البعض عن اختلافات المتكلمين وإحيائها، وإن كان أنسب له إحياء سنة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه كما روي عنه عليه الصلاة والسلام : لو طرقتم ألف باب وباب .. لن يفتح لكم حتى تأتوا خلفي.

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم تعجل بالوحي فأمره الله تعالى أن : لا تحرك به لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه وقرآنه. فثبت.

وتعجل الجواب في بعض الأمر حتى قال له تعالى : ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشا الله تعالى. فثبت.

فلما أن سأله القوم عن ذات الله تعالى لم يتعجل الجواب من عنده. بل انتظر الوحي حتى نزل. وماذا أقول في أمر انتظر النبي صلى الله عليه وسلم الوحي والأمين جبريل فيه يستعجله الناس فيقولون فيه بمحض هواهم، ثم يبنون على ذلك كفرا وإيمانا.

ومن الحكم، أن نعرف ماذا نسأل: فمن السؤال ماهو بدعة ومنه ماهو كفر :

[1] تفسير القرآن، السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ- 1997م، الجزء6، ص320.

عن سعيد بن جبير قال : أتى رهط من يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضبا لربه فجاء جبريل عليه السلام فسكنه فقال: خفض عليك يا محمد، وجاءه من الله بجواب ما سألوه: قل هو الله أحد... السورة[1].

فهذا أول ما نستنتجه من سورة الإخلاص. أن تخلص الإيمان لله تعالى فلا تسأل أسئلة أهل الضلال.. فإن غلبتك الوساوس فاقرأ قل هو الله أحد... الحديث

والثاني أن تتبع النبي صلى الله عليه وسلم.

في الفرق بين السؤال والجواب :

كنا ذكرنا أن السورة كانت جوابا عن سؤال أو إشكال يتضمن مجموعة أسئلة تتمحور كلها عن البحث في ذات الله والكشف عن صفاته للخلق. وطبعا منطلق السؤال عقول محدودة العلم لا تفقه من الأمور غير شيء مما فقهت من علم المادة. لذلك قال قوم انسب لنا ربك، ظنا أن له نسب وقال بعضهم من خلقه، ظنا أنه مخلوق عظيم، وقال بعضهم من أي شيء هو من ذهب أو فضة، ظنا أنه محكوم بالمادة... الخ.

والناظر في الأسئلة كلها يكتشف شيئا موحدا بينها. هو ظن القوم أن الله في عليائه تحكمه نواميس المادة. أو ظنون العقل.. وهو الأمر نفسه الذي قد تجده عند أهل الأهواء من الملحدين وأعداء الإسلام اليوم.

والواجب على من يريد مقارعة الملحدين في هذا الباب، أن يفقه سورة الإخلاص.

أما السؤال فكما ذكرنا عن المادة التي منها الله حسب زعمهم وظنهم.

أما الجواب فكان غير ذلك كان : قل هو الله أحد.

كان الجواب عددا.

فكيف يستقيم أن يكون السؤال عن المادة فيكون الجواب بالعدد ؟

وهنا وقفة تشهد لصدق النبي صلى الله عليه وسلم، فلو كان من أهل الأهواء لزعم وصفا لله من عند نفسه فصوره شيئا عظيما بحسب تصور من سألوه، ولكنه الصادق الذي لا تميل نفسه عن الحق. وهذه الأمور تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم فبينت صدقه. كيوم خسوف الشمس يوم مات ابنه.

والثاني قال تعالى : أحد.

كيف يستقيم أن يكون الجواب ما يتسامى به عن العدد ؟

---

[1] السيرة النبوية، ابن هشام، مؤسسة علوم القرآن، الجزء1، ص 572.

أما كون الجواب كان بالعدد فلوجوه :

الأول : أن المادة محكومة بالعدد.

الثاني : أن الله تعالى تسامى عن المادة.

فالأول أن المادة محكومة بالعدد : وهو بين في علم الكيمياء.

فإن كل ذرة يحكمها عدد معين من البروتونات. فإذا اختلف العدد اختلفت المادة وإذا تساوت كان المادة نفسها.

ومثله الخلايا : وهو بين في علم البيولوجيا. فإن الخلية محكومة بحسب النوع بعدد الكروموزومات. على تباين هنا دقيق مع الذرة، لأن عدد الكروموزومات لا يحدد النوع، مع أن النوع الواحد محكوم بعدد ثابت من الكروموزومات.

وإنما يعود هذا التباين، كون الذرة أصل للخلية، لأن الخلية متكونة من ذرات. فلا يمنع ذلك أن تتشابه خلايا نوعين أو أكثر من الكائنات فيما بينها في عدد الكروموزومات، كما يتشابه الخلق. وإنما كانت الكروموزومات لتحديد صفات الوراثة، لأن الخلية تتوالد. وليس ذلك بالنسبة للذرة. والعبرة في الذرة كما في الخلية أنها محكومة بالعدد.

وقس على هذا كل ما خلق الله، حيا كان أو جامدا.

وإنما قست الحي بالجامد هنا لأن الجماد مثال الحي إذا انعدمت الحياة فيه.

انظر قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾.[1]

فكون الجواب عددا هو إشارة علمية أن المادة محكوم نواميسها بالعدد فتدبر.

فلما تسامى الله تعالى عن المادة كان أثبت أن يتسامى عن العدد أصلا. فقال : قل هو الله أحد. فبين أن الله تعالى لا تحكمه النواميس كما تحكم المادة، وأن مبلغ علم البشر ما يتبين لهم من قوانينها.

واثبات الله تعالى صفاته في سورة الإخلاص كله مصحوب بدقة علمية فائقة في وصف المادة.. وهو، كما ذكرنا، أجدى ما يمكننا معرفة بعض نواميسه في هذه الحياة.

[1] سورة الكهف، السورة 18، الآية 45.

في كون المادة محكومة بالعدد :

إن كل ما يحيط بنا هو عبارة عن عالم المادة، وتتكون المادة من جزيئات، وهذه الجزئيات ماهي إلا مجموعة من الذرات.

والذرة هي وحدة بناء المادة. ولا يمكن أن توجد وحدها، بل في صورة تفاعلات كيميائية حتى تكون في حالة استقرار، ويكون هذا العالم في حالة توازن.

وتتكون الذرة من نواة ومدارات الكترونية سبعة.

تتكون النواة من عدد من نوعين من العناصر؛ البروتونات وهي عناصر تحمل شحنة موجبة، والنترونات، وهي عناصر متعادلة الشحنة.

أما المدارات، فهي مسارات النوع الثالث من العناصر التي تكون الذرة وتسمى الالكترونات، وهي عناصر سالبة الشحنة تلف حول النواة.

وباتحاد الذرات يتكون كل ما حولنا من الجمادات والكائنات الحية[1].

ومن ثم، أصبح القول بأن المادة محكومة بالعدد بين. فإن كل المواد المكونة للكون لها عدد من البروتونات في الذرة المكونة لها محدد لنوعها، بحيث لا يتساوى عدد تلك البروتونات بين ذرتين تختلفان في النوع. ويعرف عدد البروتونات، في علم الكيمياء، بالعدد الذري وهو عدد ثابت لا يتغير، ويحدد، كما ذكرنا، العنصر الكيميائي الذي تنتمي إليه الذرة ؛ مثال ذلك، العدد الذري للكلور هو 17، بمعنى أن كل ذرة كلور بها 17 بروتونا، وأن كل ذرة بها تحديدا 17 بروتونا هي يقينا ذرة كلور.

هذا في عموم الخلق. أما الكائنات الحية، فلأنها حية تتكاثر، وإنما تتكاثر بالخلايا. ويعتبر علماء الإحياء أن الخلية هي وحدة بناء الكائنات الحية. وزعموا، في علم ما يسمى بنظرية الخلية، أن كل خلية جديدة تتكون من خلية حية قبلها. وذلك للقضاء على فكرة إمكانية أن توجد خلية حية من عناصر ليس بها حياة[2].

---

[1] مدخل إلى تركيب الذرة وعلم المواد، من كتاب علم المواد، ميكانيكا انتاج، 114 ميك، الإدارة العامة لتطوير وتصميم المناهج، المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، المملكة العربية السعودية.

[2] كتاب علم الخلية، أيمن الشربيني، الطبعة الأولى، 2009، الترقيم الدولي: 0 – 159 – 383 – 977.

الجدول الدوري للعناصر الكيميائية

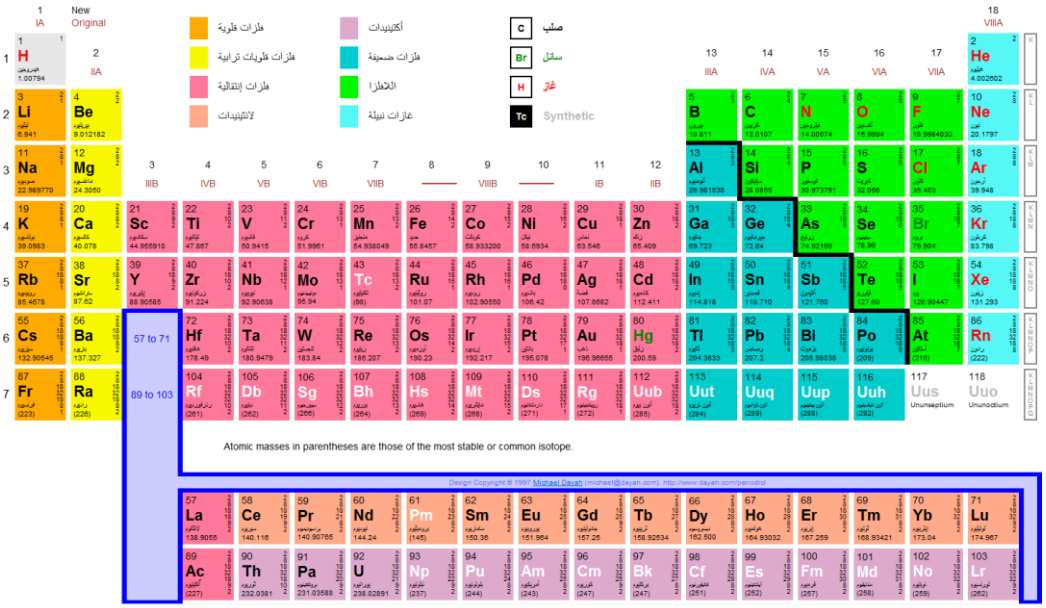

أما كون إمكان أن توجد الخلية من عناصر غير حية فبين. لأن الخلية أساسا متكونة من العناصر الكيميائية الطبيعية، بمعنى أنها متكونة من ذرات لا حياة فيها.

والفطن من يسأل نفسه : من وهب الذرات حياة لتكون الخلية ؟

وقبل ذلك لابد أن نسأل : من وهب الحركة للالكترونات حتى تطوف حول نواة الذرة بحسب طاقات معينة كما يطوف الحجيج بالكعبة ؟

لقد وصل الإنسان في علمه بالذرة إلى ما ذكره الله في بيان مكونات العالم الأصغر من مثقالها وما خفي من المكونات لن يطوله. فليس من نصيب البشر إن توفرت لديهم الالكترونات والبروتونات والنترونات في الأسواق، مثلا، أن يؤلفوا بينها لتصبح ذرة، أو يفككوا الذرة فيلهون بمكوناتها، لأنها إذا حاولوا تفكيك شيء واحد منها أضحت قنبلة.

وإنما أقول هذا لما زعمه علماء الإحياء في نظرية الخلية كونها لا تتوالد إلا عن خلية حية. لأن علماء الأحياء يقولون ذلك تعبيرا عن عجزهم عن صناعة الحياة مع توفر تلك الذرات، ومعرفتهم بما يكون منها مكونا للكائنات. فالحياة سر لا يفقه بقوانين المادة ونواميسها.

فالبين أن أساس الخلق التقدير، وهو قوله تعالى : وخلق كل شيء فقدره تقديرا.

في معنى الصمد وبيان خصائص المادة :

فأما الصمد فذكروا فيه معنين؛ وكل ما نقل عن المفسرين فله تعلق بأحدهما :

فالمعنى الأول : هو السيد المصمود إليه في الحوائج.

والمعنى الثاني : هو الذي لا جوف له.

أما النوع الأول : فذكروا فيه وجوهاً [1]:

الأول : الصمد هو العالم بجميع المعلومات لأن كونه سيداً مرجوعاً إليه في قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك.

الثاني : الصمد هو الحليم لأن كونه سيداً يقتضي الحلم والكرم.

الثالث : وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده .

الرابع : قال الأصم : الصمد هو الخالق للأشياء، وذلك لأن كونه سيداً يقتضي ذلك .

الخامس : قال السدي : الصمد هو المقصود في الرغائب، المستغاث به عند المصائب .

السادس : قال الحسين بن الفضل البجلي الصمد هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه السابع :أنه السيد المعظم .

السابع : أنه الفرد الماجد لا يقضي في أمر دونه.

وذكروا في المعنى الثاني وجوها أيضا :

الأول : الصمد هو الأملس من الحجر الذي لا يقبل الغبار ولا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء.

الثاني : عديم الانفعال والتأثر عن الغير، ذكره الرازي.

الثالث : لا يأكل ولا يشرب، الباقي بعد فناء خلقه، وهو قول قتادة.

الرابع : الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه الزوال كان ولا مكان، ولا أين ولا أوان، ولا عرش ولا كرسي، ولا جني ولا إنسي وهو الآن كما كان، وهو قول الحسن البصري.

الخامس : الذي لا ينام ولا يصحو، وهو قول يمان وأبي مالك.

السادس : قال ابن كيسان: هو الذي لا يوصف بصفة أحد.

السابع : قال مقاتل بن حبان: هو الذي لا عيب فيه.

الثامن : قال الربيع بن أنس: هو الذي لا تعتريه الآفات.

---

[1] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء16، ص167.

التاسع : قال سعيد بن جبير: إنه الكامل في جميع صفاته، وفي جميع أفعاله.

العاشر : قال جعفر الصادق : إنه الذي يغلب ولا يغلب.

الحادي عشر : قال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد.

الثاني عشر : قال أبو بكر الوراق: إنه الذي أيس الخلائق من الاطلاع على كيفيته.

الثالث عشر : هو الذي لا تدركه الأبصار.

الرابع عشر : قال أبو العالية ومحمد القرظي: هو الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا وسيموت.

الخامس عشر : قال ابن عباس: إنه الكبير الذي ليس فوقه أحد.

السادس عشر : أنه المنزه عن قبول النقصانات والزيادات، وعن أن يكون موردا للتغيرات والتبدلات، وعن إحاطة الأزمنة والأمكنة والآنات والجهات[1].

ولعلي أبدأ بالمعنى الثاني، أن لا جوف له. وهو إذ يصف ذاته سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ما يمكننا الإحاطة بشيء من المعرفة به وهو المادة. فالله تعالى يصف نفسه بالصمد ؛ فلما ذكروا أن من معانيها : الذي لا جوف له، فهم من ذلك أمران :

الأول : أن الله تعالى تسامى عن المادة لأن أي مادة كانت ما كانت فهي جوفاء وإلا ما استطاعت الالكترونات على الحركة. وقس على ذلك الكائنات جميعا وكل الكون.

والثاني : أننا لن نبلغ فهم أمر ما لا جوف له بمقدار فهمنا لما له جوف وهو المادة إلا وقوفا على قوله تعالى: الصمد.

فمهما أغرقنا العقول في فهم الصمد بضد ما نفهم الأشياء الجوفاء وقف حائرا مرددا قوله تعالى : سبحان ربك رب العزة عما يصفون.

وإنما قدر العقل التفكير في الأجسام المتضاغطة، والصمد ليس كذلك، فتعالى الله سبحانه.

ثم قالوا : الصمد هو الذي لا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء، فهو عديم الانفعال والتأثر عن الغير. وليس المادة كذلك ؛ فإنها تتأثر بما جاورها من الأجسام تقاربا وتباعدا. كالجاذبية بالنسبة للكواكب، وحركة الالكترونات بالنسبة للذرات.

[1] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء16، ص169.

وما التفاعلات الكيميائية بين الذرات إلا تفسيرا لما يخرج من أحشاء الذرة وما يدخل فيها. وكلما عمقت النظر أكثر وجدت أن الآيات في سورة الإخلاص تصف لنا المادة وصفا بالغ الدقة علنا ننظر فيها ونعلم ما يغيب عن علمنا فنثوب.

في معنى لم يلد ولم يولد وبيان خصائص المادة :

اعلم أنه تعالى لما وصف نفسه بالصمد معرضا بما يمكننا معرفته عن المادة ومنزها نفسه عنها، بدأ في ذكر النوع الثاني من خلقه وهو الكائنات. وإنما تتميز الكائنات عن الجمادات بالتكاثر. فكل شيء فيه حياة إلا وربا وتكاثر. انظر قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وهذا التكاثر إنما هو عمل الخلايا، لأن فيها الحياة.

وإنما ذكر أنه لم يلد، لأن من صفات الخلايا الميلاد. وقال ولم يولد، لأن مبلغ علمنا أنه لا يوجد خلية حية إلا إذا كانت خلية قبلها حية وجدت منها. وهو قانون علم الأحياء الذي ذكرناه آنفا ودافع عنه أصحاب علم الخلية.

وإنما تدرج بنا من وصف الأصل الذي هو الذرة إلى وصف ما تفرع منها وهي الخلية، ومما ليس فيه حياة بالمعنى المشاهد إلى ما فيه حياة، حتى نعلم أنه إن كان ليس بمقدور البشر أن يدركوا كل خصائص المادة فكيف لهم أن يصفوا رب المادة، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

في معنى ولم يكن له كفؤا أحد وبيان خصائص المادة :

علمنا من الآية الأولى أن أصل المادة، الذرات التي يتكون منها هذا الكون، محكوم بالعدد. وذكرنا أن هذه الذرات لا تنشأ إلا إذا كانت جوفاء وبغير ذلك لا يصح الحديث عن الذرة والمادة والعالم أصلا. ثم ذكرنا أنه لما كانت كذلك صح أن يتكون منها الجزيء الذي لا حياة فيه كما صح أن يتكون منها الخلايا الحية. وذكرنا أن ليس بمقدور البشر توليف مكونات الذرة إذا ما وجدت سائبة في قالب الذرة أبدا. ولا في مقدورهم لو وجدت مكونات الخلية سائبة توليفها لتصبح خلية حية أبدا. لأن مكونات الذرة تجمعها رابطة قوية جدا تفوق ما يمكن احتسابه بالعقل، وأن مكونات الخلية تربطها الحياة التي نجهل معناها أصلا وإن كنا نرى أثرها.

[1] سورة يونس، السورة 10، الآية 24.

وإنما جاءت هذه الآية الأخيرة لتبين لنا صورة واضحة عن المادة الحية، وهي إمكان استنساخها بعد معرفة خصائص الوراثة فيها. وهذا يعني أن نجد كفؤا للأشياء. أما الله تعالى فقد تسامى وتنزه عن ذلك وعلا علوا كبيرا سبحانه.

الجانب اللغوي في السورة :

لماذا بدأت السورة بـ"قل" :

فأما لماذا بدأ الله كلامه بتوجيه الأمر بالقول لرسوله صلى الله عليه وسلم فلوجوه :

أولها : أن السورة جواب لسؤال من ذكرنا من الأقوام ولمن يخطر على باله مثل ذلك، والثاني : أن الجواب لا يقدر عليه أحد إلا الله، فلا أحد حتى النبي صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يصف ربه إلا بلاغا عنه سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه.

لماذا أردف القول بضمير الغائب "هو" :

فأما لماذا أشار الله تعالى لنفسه بالضمير "هو" فلوجهين؛

الأول: أنه تعالى غائب عن الأذهان غالب عليها.

والثاني :كون معرفته مستقرة في عقول وقلوب الخلق بالفطرة.

في شبهة أن "قل" خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم :

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ : الله أحد الله الصمد... بدون "قل هو" وأن أبي وابن مسعود رضي الله عنهما، كانا يقرآنها : هو الله أحد الله الصمد.. بدون قل. ذكر ذلك غير واحد من أهل التفسير، بل أكثرهم.

قال الفخر الرازي : اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة : قُلْ يا أَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ من قل، وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل في سورة تبّت، وأما في هذه السورة فقد اختلفوا، فالقراءة المشهورة : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ، وقرأ أبي وابن مسعود بغير قل هكذا : هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم، بدون قل هو هكذا : الله أحد .:. الله الصمد، فمن أثبت قل، قال : السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره، بل يحكي كل ما يقال له، ومن حذفه قال : لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام[1].

ولم أجد من أنكر فأغلظ في الإنكار على من أسقط "قل هو" إلا القرطبي ولم أجده يذكر رواية من سبقه من المفسرين، التي أوردناها؛ قال القرطبي : وقد أسقط مِن هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار

[1] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء16، ص169.

مقامه ومثواه، وقرأ : اللَّهُ الواحدُ الصَّمَدُ، في الصلاة، والناس يستمعون، فأَسْقَط : قُلْ هو، وزعم أنه ليس من القرآن .وغيَّر لفظ أَحَدٍ، وادعى أن هذا هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل والمحال، فأبطل معنى الآية، لأن أهل التفسير قالوا :نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لَنَا رَبَّك، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم مِن صُفْر؟ فقال الله عز وجل رداً عليهم : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ، ففي : هُوَ، دلالة على موضع الردّ، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله عز وجل، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم. ورَوى الترمذي عن أُبيّ بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انْسُبْ لنا ربك؛ فأنزل الله عز وجل : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ. والصَّمَد : الذي لم يلد ولم يُولَد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث. وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ : قال : لم يكن له شبيه ولا عدْل، وليس كمثله شيء. ورُوِي عن أبي العالية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم فقالوا : انْسُب لنا رَبّك، قال : فأتاه جبريل بهذه السورة : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ، فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أُبيّ بن كعب، وهذا أصح؛ قاله الترمذيّ. قال القرطبي : قلت :ففي هذا الحديث إثبات لفظ : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ[1].

قلت : أما مواضع قل في القرآن فهي كثيرة، ولا يصح إسقاط حرف "قل" من التلاوة بحال. ويصح إن كانت على سبيل الدعاء مثلا. كقول أحدكم : حسبي الله، من قوله تعالى : قل حسبي الله. فإن كان المتكلم بها يعني بها قرآنا فيجب الإتيان بقل معها، فإن لم يفعل وهو يعلم أنها من الآية، لا ناسيا ولا ساهيا، كفر لأنه أنكر من القرآن حرفا.

لماذا ذكر اسمه الله :

أما لماذا سمى اسمه سبحانه وتعالى، فلكونه معلوم عند الخلق أجمعين، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

في الفرق بين الأحد والواحد :

أما كلمة أحد فهي أولى في هذا المقام، لأن المقام سؤال عن ذاته فهو معلوم لمن سأل أن ليس له ثان. وإنما ذكر الأحد ولم يذكر الواحد لأن المقام مقام وصف والواحد توصف به الأشياء وتقاس به وتتركب منه والله تعالى تعالى عن ذلك.

---

[1] الجامع لاحكام القرآن، القرطبي، دار الفكر، الجزء 20، ص 218.

[2] سورة لقمان، السورة 31، الآية 25.

لماذا تكرر لفظ "الله" ؟

قال الرازي : الجواب: لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب في لفظ أحد وصمد أن يردا، إما نكرتين أو معرفتين، وقد بينا أن ذلك غير جائز، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ أحد منكرا ولفظ الصمد معرفا.[1]

قال الألوسي : وتكرار الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير قيل للإشعار بأن من لم يتصف بالصمدية لم يستحق الألوهية وذلك على ما صرح به الدواني مأخوذ من إفادة تعريف الجزأين للحصر فإذا قلت السلطان العادل أشعر بأن من لم يتصف بالعدل لم يستحق السلطنة وقيل ذلك لأن تعليق الصمد بالله يشعر بعلية الألوهية للصمدية بناء على أنه في الأصل صفة وإذا كانت الصمدية نتيجة للألوهية لم يستحق الألوهية من لم يتصف بها وبحث فيه بأن الألوهية فيما يظهر للصمدية لأنه إنما يعبد لكونه محتاجا إليه دون العكس إلا أن يقال المراد بالألوهية مبدؤها وما تترتب عليه لا كونه معبودا بالفعل وإنما لم يكتف بمسند إليه واحد لأحد والصمد هو الاسم الجليل بأن يقال الله الأحد الصمد للتنبيه على أن كلا من الوصفين مستقل في تعيين الذات وترك العاطف في الجملة المذكورة لأنها كالدليل عليه فإن من كان غنيا لذاته محتاجا إليه جميع ما سواه لا يكون إلا واحدا وما سواه لا يكون إلا ممكنا محتاجا إليه أو لأنها كالنتيجة لذلك بناء على أن الأحدية تستلزم الصمدية والغنى المطلق وبالجملة هذه الجملة من وجه تشبه الدليل ومن وجه تشبه النتيجة فهي مستأنفة أو مؤكدة.[2]

وقيل: لبيان أن كلتا الجملتين تستطيع أن تعرفه بصفة تختص به. وحتى لا يتصور أنه تعالى لا تكون له هاتان الصفتان إلا إذا اجتمعا.

لماذا أتت "أحد" نكرة و"الصمد" معرفة :

قال الماوردي: فيه وجهان أحدهما: حذف لام التعريف على نية إضمارها والتقدير قل: هو الله الأحد والثاني: أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم.

قال الرازي: قد يسأل سائل : لم جاء "أحد" منكرا، وجاء الصمد معرفا ؟ الجواب: الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم، فإن ما لا يكون منقسما لا يكون خاطرا ببيان أكثر الخلق، وأما الصمد فهو الذي يكون مصمودا إليه في الحوائج، وهذا كان معلوما للعرب بل لأكثر الخلق على ما قال : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن ٱلله[3].

---

[1] التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004م، الجزء 26، ص 167.

[2] روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، الجزء 30، ص 275.

[3] التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004م، الجزء 26، ص 168.

وإذا كانت الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق، لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف.

قال الألوسي : وتعريفه دون "أحد" قيل لعلمهم بصمديته تعالى دون أحديته وتعقب بأنه لا يخلو عن كدر لأن علم المخاطب بمضمون الخبر لا يقتضي تعريفه بل إنما يقتضي أن لا يلقى إليه إلا بعد تنزيله منزلة الجاهل لأن إفادة لازم فائدة الخبر بمعزل عن هذا المقام فالأولى أن يقال إن التعريف لإفادة الحصر كقولك زيد الرجل ولا حاجة إليه في الجملة السابقة بناء على أن مفهوم "أحد" المنزه عن أنحاء التركيب والتعدد مطلقا إلى آخر ما تقدم مع أنهم لا يعرفون أحديته تعالى ولايعترفون بها واعترض بأنه يقتضي أن الخبر إذا كان معلوما للمخاطب لا يخبر به إلا بتنزيله منزلة الجاهل أو إفادته لازم فائدة الخبر أو إذا قصد الحصر وهو ينافي ما تقرر في المعاني من أن كون المبتدأ والخبر معلومين لا ينافي كون الكلام مفيدا للسامع فائدة مجهولة لأن ما يستفيده السامع من الكلام هو انتساب أحدهما للآخر وكونه هو هو فيجوز أن يقال هنا إنهم يعرفونه تعالى بوجه ما ويعرفون معنى المقصود سواء كان هو الله سبحانه أو غيره عندهم ولكن لا يعرفون أنه هو سواء كان بمعنى الفرد الكامل أو الجنس فعينه الله تعالى لهم وقيل إن "أحد" في غير النفي والعدد لا يطلق على غيره تعالى فلم يحتج إلى تعريفه بخلاف الصمد فإنه جاء في كلامهم إطلاقه على غيره عز وجل، فلذا عرّف.[1]

لماذا بدأت السورة بـ"الأحدية" وانتهت بها :

وإنما كان ذلك كذلك لأن الأحد له صفتان :

الأولى أن لا أحد قبله ولا أحد بعده، فتم كذلك ذكره في أول الجواب وفي نهاية الجواب. فافهم. فهو الأول ليس قبله شيء وهو الآخر ليس بعده شيء. وهذه الصفة لا يصح بذكرها التفكر في شيء دون الله تعالى.

والثاني : أن لا شيء يكافئه. فهو الذي لا شيء يشبهه أو يعدله أو يكون له كفؤا. وقول أحد أولى من شيء. فقد تسامى وتعالى سبحانه وتعالى وكذلك هو لا إله إلا هو.

الجانب العددي في السورة :

نختم هذا البحث بتقديم بعض اللطائف التي تبين روعة ترتيب هذه السورة في القرآن.

بين يدي السورة :

سورة الإخلاص هي السورة رقم 112 في ترتيب المصحف،

عدد آياتها: 4،

[1] روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، الجزء 30، ص 275.

وعدد كلماتها : 15،

وعدد حروفها: 47.

وجوه الإحكام العددي في السورة :

لطائف عامة :

1- العجيب أن العدد 47 هو العدد الأولي رقم: 15.

2- الأعجب أن 47 هو مجموع الأعداد الأولية المذكورة في القرآن، وهي 6 أعداد: 19 + 11 + 7 + 5 + 3 + 2 = 47

3- مجموع العددين 15 و 47 هو: 62، وحاصل طرحهما هو: 32.

إن العدد الناتج من صف هذين العددين هو: 6232. ما هذا العدد؟ إذا علمنا أن عدد آيات سورة الإخلاص هو: 4، فمن السهل أن نلاحظ أن العدد 6232 هو مجموع أعداد الآيات في سور القرءان الباقية. (6236-4 = 6232).

موقع ترتيب السورة وعلاقته بعدد السور في القرآن:

جاءت سورة الإخلاص في موقع الترتيب الذي يدل عليه العدد 112، وهذا يعني أن عدد السور ابتداء من سورة الإخلاص وحتى نهاية المصحف هو: 3. العجيب أن مجموع أعداد الآيات في السور الثلاث هو: 15، بعدد كلمات السورة.(سورة الناس: 6، سورة الفلق: 5، سورة الإخلاص: 4).

والأعجب أن العدد الناتج من صف هذه الأعداد الثلاثة هو: 456،

وهذا العدد عبارة عن: 4 × 114، العدد 114 هو عدد سور القرءان الكريم.

الكسرة اليتيمة في السورة :

عدد حروف سورة الإخلاص هو 47، ومن أعجب الملاحظات أن من بينها حرفا واحدا جاء مكسورا، إنه حرف اللام في كلمة (يلد). والأعجب أن هذا الحرف جاء في وسط السورة تماما، حيث قسمها إلى قسمين متساويين: 23 حرفا قبله ، و: 23 حرفا بعده.

إن عدد الآيات ذات 23 حرفا في القرآن هو 77، وهذا العدد تماما هو عدد الأعداد المستخدمة أعدادا للآيات في القرآن.

السور التي تلي الإخلاص :

سورتان فقط في ترتيب القرآن جاءتا بعد الإخلاص هما الفلق السورة رقم 113 وذات 5 آيات والناس السورة رقم 114 وذات 6 آيات.

مجموع ترتيب السورتين هو 227.

إذا قمنا بجمع الأرقام المتسلسلة من 1 إلى 227: 1 + 2 + 3 + 4 ... + 227 فالناتج هو: 25878. هذا المجموع يساوي: 227 × 114.

هذا العدد 227 هو العدد الأولي الوحيد المستخدم عددا للآيات وأكبر من 114.

ولو حاولنا أن نحدد الأعداد الأولية المستخدمة أعدادا للآيات في سور القرآن فسنجدها 18 عددا. يعني من مجموع 31 عددا أوليا في سلسلة الأعداد من 1 إلى 286 عدد آيات سورة البقرة التي هي أطول السور، استخدم القرآن 18 عددا وترك 13. (العدد 13 هو عدد الأعداد التي استخدمها القرآن للدلالة على أعداد الآيات في سوره، كل منها أكبر من العدد 114).

أما مجموع الأعداد الأولية 18 المستخدمة أعداد للآيات : 908

المفاجأة هنا أن هذا العدد = 4 × 227.

ومعلوم أن 4 عدد آيات سورة الإخلاص و227 مجموع ترتيب السور التي تليها.

السور التي بدأت بـ"قل" :

نجد في القرآن 5 سور كل واحدة بدأت بقوله تعالى : "قل". هذه السور هي : سورة الجن وسورة الكافرون وسورة الإخلاص وسورة الفلق وسورة الناس.

أول ما نلاحظه توسط سورة الإخلاص هذه المجموعة.

مجموع التراتيب وأعداد الآيات للسورتين الجن والكافرون والتي تسبق الإخلاص في الترتيب هو : 72 + 109 + 28 + 6 = 215.

ومجموع التراتيب وأعداد الآيات للسورتين الفلق والناس والتي تلي الإخلاص في الترتيب هو : 113 + 114 + 5 + 6 = 238.

العجيب أن الفرق بين العددين هو بالضبط : 23.

مجموع أعداد آيات هذه السور الخمسة هو : 49. إذا لاحظنا أن مجموع تراتيب السورتين اللتين تليان سورة الإخلاص هو : 227، فإن العدد 49 يحدد ترتيب العدد 227 في مجموعة الأعداد الأولية.

مجموع أعداد الآيات للسورتين الجن والكافرون والتي تسبق الإخلاص في الترتيب هو : 28+6=34.

ومجموع أعداد الآيات للسورتين الفلق والناس والتي تلي الإخلاص في الترتيب هو : 5+6=11.

والفرق بينهما هو 23 أيضا.

فإذا نظرنا في مجموع التراتيب للسورتين الجن والكافرون والتي تسبق الإخلاص في الترتيب هو : 72+109=181.

ومجموع التراتيب للسورتين الفلق والناس والتي تلي الإخلاص في الترتيب هو : 113+114=227.

فالفرق بينهما هو 46 وهو ضعف العدد 23.

سورة الإخلاص وسور الفواتح :

من بين سور القرآن الـ114، افتتحت 29 سوره بما يصطلح عليه بعض الناس اليوم بالحروف المقطعة. ومن بين هذه السور الـ 29، نجد ثمان سور عدد آياتها أوليا، وقد ابتدأت هذه السور بالفواتح التالية:

الم، المر، طسم، يس، حم عسق، حم، حم، حم. ومجموع حروفها 23 حرفا.

تتوسط هذه السور الـ29 سورة العنكبوت وعدد آياتها 69. فهي في مجموعة السور الفواتح تحتل الرقم 15، وهو عدد كلمات سورة الإخلاص.

أول ما نلاحظه أن عدد الحروف في الكلمات الفواتح من البقرة إلى العنكبوت هو 47 حرفا، وهو عدد حروف سورة الإخلاص.

إذا علمنا أن عدد الحروف النورانية جميعا 78 فمعنى ذلك أن 31 حرفا استعمل بعد العنكبوت، وهو مجموع السور التي أعداد آياتها أوليا.

عدد تكرار حرف اللام في السورة :

تكرر حرف اللام في السورة 12 مرة. فإذا اتخذنا من اللام المكسورة الوحيدة في السورة مركزا لتوزيع هذا العدد سنجده على النحو التالي:

- 7 مرات، وهو عدد تكرار حرف اللام قبل اللام المكسورة.
- 4 مرات، وهو عدد مرات التكرار بعدها.

لقد قسمت اللام المكسورة عدد مرات تكرار اللام إلى العددين 7 و 4، وهما رقما العدد 47 عدد حروف سورة الإخلاص.

عدد حروف الآيات والسور الموافقة لها ترتيبا :

ومن عجائب العدد في سورة الإخلاص:

تتألف سورة الإخلاص من أربع آيات:

- الآية الأولى: عدد حروفها 11.
- الآية الثانية: عدد حروفها 9.
- الآية الثالثة: عدد حروفها 12.
- الآية الأولى: عدد حروفها 15.

إن مجموع هذه الأعداد هو: 47.

إذا بحثنا في ترتيب سور القرءان عن السور التي جاءت هذه الأعداد مواقع ترتيب لها، سنجد أنها:

- السورة رقم 11 هي سورة هود، عدد آياتها: 123.
- السورة رقم 9 هي سورة هود، عدد آياتها: 129.
- السورة رقم 12 هي سورة هود، عدد آياتها: 111.
- السورة رقم 15 هي سورة هود، عدد آياتها: 99.

إن مجموع أعداد الآيات في السور الأربع هو 462، هذا العدد عبارة عن صف العددين 62 وهو مجموع عدد الحروف في السورة مضاف إليه عدد الكلمات، و4 وهو عدد الآيات.

ومن عجائب العدد أن العدد 462 عبارة عن: $2 \times 7 \times 3 \times 11$، أربعة أعداد أولية مجموعها: 23.

علاقة سورة الإخلاص بالسورة رقم 15 :

السورة التي تأخذ العدد 15 في ترتيب القرآن هي سورة الحجر ذات الـ 99 آية.

أول ما يجب ملاحظته في هذه السورة أن مجموع ترتيبها وعدد آياتها هو 114، وهو عدد سور القرآن الكريم. والثاني أنها السورة التي تحتوي على آية الحفظ، وهي قوله تعالى : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

العجيب أن عدد كلمات سورة الحجر هو 654، مكونا من أرقام عدد آيات سورة الإخلاص والتي تليها. (سورة الناس: 6، سورة الفلق: 5، سورة الإخلاص: 4).

علاقة سورة الإخلاص بالسورة رقم 47 :

السورة التي تأخذ العدد 47 في ترتيب القرآن هي سورة محمد وآياتها 38.

أول ملاحظة حول هذه السورة، أن عدد الأعداد المستخدمة أعدادا للآيات كما ذكرنا هو 77، وأن العدد 38 وهو عدد آيات سورة محمد يأتي في الترتيب التصاعدي رقم 30، بمعنى أن 47 عددا هو أكبر من 38.

أقصر آيات سورة محمد هي الآية رقم 5 وهي مؤلفة من 3 كلمات: (سيهديهم ويصلح بالهم). وأطول آية في سورة محمد هي الآية رقم 15. والعجيب هنا أن عدد كلمات الآية المميزة بالأطول هو 44 كلمة (مثل الجنة التي وعد ..... أمعاءهم). مجموع العددين هو أيضا 47.

ومعلوم أن العدد 47 هو عدد حروف سورة الإخلاص.

علاقة سورة الإخلاص بسورة آل عمران :

سورة آل عمران هي السورة رقم 3 من بداية المصحف، عدد آياتها 200، المجموع: 203.

سورة الإخلاص هي السورة رقم 112 بحسب ترتيب المصحف، فهي إذن نظيرة سورة آل عمران في ترتيب القرآن، لأنها ستكون صاحبة الرقم 3 بالعد من آخر القرءان، (السورة رقم 112 في ترتيب المصحف)، عدد آياتها: 4، المجموع: 116.

العجيب أن مجموع العددين 203 و 116 هو: 319؛ ما هذا العدد ؟ إنه الفرق بين مجموع تراتيب القرءان، وعدد آياته. (319-6555 = 6236).

علاقة سورة الإخلاص بسورة الرحمن :

سورة الاخلاص باعتبار ترتيب سور النصف الثاني من القرءان (السور من 58-114) هي السورة رقم 55، عدد السور التالية لها سورتان مجموع آياتهما: 11 (الفلق 5، الناس 6).

السورة رقم 55 باعتبار ترتيب النصف الأول هي سورة الرحمن، عدد السور التالية لها سورتان مجموع آياتهما: 125 (الواقعة 96، الحديد 29).

العجيب أن الفرق بين العددين 125 و 11 هو: 114، وهذا هو عدد سور القرءان.

المثال الثاني: وقفات مع قوله تعالى: فمحونا آية الليل:

سنحاول، في هذا المبحث، التطرق إلى موضوع المادة الأكثر تواجدا في الكون.. المادة المظلمة التي تبقى إلى الآن مادة خفية لا توجد لدينا أية طريقة لرصدها و دراستها مباشرة.. مستعرضين وجهة نظر العلم

وموافقة ما ثبت علميا لما جاء به القرآن.. مبينين في الوقت نفسه القوة البيانية واليقين العلمي الذي لا نظير له الذي يحمله التعبير القرآني.

ومعلوم أن الله قد تحدى العالمين، من خلال قرآنه في جميع ما يتعلق بنا، بكلامنا ونظرنا وفكرنا..

تحدانا أن نأتي بمثل هذا القرآن..

تحدانا أن نخلق ذبابا..

تحدانا أن نقدم البرهان على عقائدنا وصدق أفكارنا..

إننا عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن في كل شيء.. و ليس فقط في ما يحمله من الفصاحة..

لم يقف العرب وحدهم أمام تحديه بل كل من كرمه الله ورزقه عقلا يستدل به على الحق..

ولعلنا نسأل.. كيف نعرف أنه الحق.. وسيأتينا الجواب في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

والآيات إما مرسلة أو منزلة، فالمنزلة هي القرآن كلام الله والمرسلة هي خلق الله.. ونفهم من الآية أن لن تبلغوا بعلمكم إلا ما تجدون له إشارة في آياتنا فإذا علمتم ذلك تبين لكم أن القرآن هو الحق، فإن مجال علمكم النفس والآفاق، والأمر هنا لا يتعلق فقط بالجسم وأعضائه ومختلف وظائفها ولكن أيضا بملكة التفكير فيها وملكة النظر والبرهان، لأنه لو تعلق الأمر بالجسد لكان الكلام في الآية عنه لا عن النفس ولكان ذكر الجسد أولى إذا كان المقصود هو فلما قصد به و غيره جمع في لفظ النفس.. و تماما لا تتعلق الآفاق بالأرض أو بما بلغناه من كوننا و لكن بكل ما يحيط بنا و يصح أن نبلغه و قدر لنا الله تعالى بعلمه بلوغه. لأن آيات الله فيها علم الكتاب و النفس و الآفاق متعلق بعلم الأسباب و بين علم الكتاب و علم الأسباب شأو و فضيلة.. ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[2]. ولا يصح أن تخالف الأسباب الكتاب لأنها به مقدرة ولحكمه خاضعة.

إن آيات القرآن لا يمكن الإحاطة بأسرارها في إطارها اللغوي فقط، مع أهمية ذلك و ضرورته، ولكن أيضا بملكة التدبر التي تتضمن التفكير أيضا ومساءلة القرآن، ولا يمكن الوصول إلى توثيق سبقه العلمي دون توظيف ما توفر عند أهل الزمن من علوم.

إن فهم الكون قد يتم لعقل المتدبر حتى دون أن ينظر للكون ذاته، و قد يتم للناظر في الكون حتى دون أن يقرأ القرآن، فإما أن تنظر في الخلق أو تتدبر القرآن أو تنظر فيهما معا وهو أجل. فعلم الكتاب وعلم

[1] سورة فصلت، السورة 41، الآية 53.

[2] سورة سبأ، السورة 34، الآية 6.

الأسباب مجهران قد لا يتيسر للإنسان أن يقوى على النظر بهما معا.. ولكن الغالب أن كل واحد فينا باستطاعته أن ينظر بأحدهما.

وعلم الكون (cosmology) الذي يهتم بدراسة بداية كوننا وتكوينه، وتطوره، يعاني في وقتنا الحاضر من حالة تشويش سيئة ! فالعلماء لا يعلمون ما الذي يكوّن 95 بالمائة من كوننا. ولا حاجة لأن نقول إنه وضع محرج بلا ريب. وعلى الرغم من أن معظم المرئيات في الكون أصبحت أكثر قابلية للفهم، من خلال الإنجازات الواسعة الحديثة في فهم تشكُّل النجوم والبناء المجري والأحداث المدهشة مثل المستعرات الفائقة (supernova)، إلا أنه يبدو أن هناك مُركَّبَة أخرى للكون، أطلق عليها العلماء مصطلح المادة المظلمة، من المحتمل أنها تشكل معظم كتلته، لا يمكن أن نراها، كما أننا لم نفهمها بعد.

ولأكثر من قرن كانت الإشارات إلى هذه المادة المعتمة قد روجت لردود أفعال الصحف العلمية، بل ووجدت طريقها كملف ضمن حلقات ملفات القضايا المجهولة.

العلماء مع ما يثير هذا الأمر لهم من إحراج يؤكدونه وبلا تردد وإن اختلفوا في توابعه. ففي حين يفسر البعض أنه الدليل على وجود مادة أطلقوا عليها اسم المادة المظلمة غير مرئية لأي تلسكوب، ولا يمكننا أن نراها ونشاهدها مع صدق برهنتنا على وجودها، يفسر البعض الآخر أن الدلائل على وجود هذه المادة مع كونها قوية لا يمكننا الجزم بها أبدا. غير أن الطرفين يتفقان حول استحالة مشاهدة ما تفوق نسبته 77 بالمائة من الكون وربما تصل إلى 95 بالمائة منه.

في هذا البحث، سنحاول التعرف أكثر على هذه المادة، ودلائل وجودها، وطرق تفسيرها، وكيف "نراها" إذا كانت معتمة و مظلمة ؟ وسنحاول تقديمها من خلال ما وصلنا من اكتشافات علمية وما نقرؤه في القرآن الكريم. ونتمنى أن يكون ذلك تعليميا ومسليا في آن معا.

سنبدأ، أولا، بطرح الموضوع من خلال القرآن الكريم الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ .:. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾[1].

لنقف مع قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾[2].

و ننظر ما فيها من مظاهر الإعجاز و دقائق العلم مما يجذب الأفهام إلى التأمل في بديع صنع الله و يهدي العقول للتفكر في روائع خلقه و يرفع الألباب للنظر في بدائع وحيه و أسرار كتابه.

[1] سورة الحاقة، السورة 69، الآيات 38 و39.

[2] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 12.

و نحن إذ نخوض بحر العلم بالقرآن، نستند إلى مورد كل علم، و أصل كل يقين، فإن فكرة العقل قد تستبدل و لا تبديل لكلمات الله، و نظر العلم قد يكذب و القرآن لا يكذب.

وقفات حول ما قاله المفسرون و آرائهم :

حول الوجوه اللغوية و الدلالية في الآية :

في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾، يقول الفخر الرازي في مفاتيح الغيب التفسير الكبير، أن في ذلك قولين :

القول الأول : أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار.

القول الثاني : أن يكون المراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر، أي وجعلنا في الليل والنهار آيتين هما الشمس والقمر، و يكون بذلك آيتين مفعولا أولا والليل والنهار ظرفين في موضع المفعول الثاني[1].

وبمثل هذا الكلام قال الزمخشري في الكشاف، وبه قال أبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط، ورجح الشوكاني في فتح القدير القول الأول، في حين رجح القرطبي في الجامع لأحكام القرآن القول الثاني. وزاد أبو حيان أن جعل هنا قد يحمل معنى صير، وقال الكرماني بغير ذلك، مستندا إلى كون ذلك يقتضي حالة تقدمت نقل الشيء إلى حالة أخرى.

في قوله تعالى: ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾:

على القول الأول : تكون الإضافة في آية الليل والنهار للتبيين، وتقديره : محونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي نفس النهار مبصرة.

وعلى القول الثاني : يكون المراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر، فمحونا آية الليل التي هي القمر وجعلنا آية النهار مبصرة، والتي هي الشمس.

ومعنى المحو في اللغة، كما أورده ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب، هو إذهاب الأثر، تقول محوته أمحوه، وانمحى، وامتحى : إذا ذهب أثره. وذكر أبو حيان أن الفاء في قوله تعالى : فمحونا، ليست بالضرورة تعقيبية، لجواز قولنا : بنيت داري فبدأت بالأس، وبمثل هذا قال ابن عطية في المحرر الوجيز. وقد تكلم في معنى ذلك بعض المتقدمين. كما تكلم فيها وبين روائعها وما تنطق به من حقائق الأستاذ الدكتور زغلول

[1] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء 10، ص10.

النجار. وربما يكون هذا البحث إحدى ثمار هذه الآية التي بأي وجه لغوي أخذتها تدل على عميق علم ودقيق حق، وتبرهن على أن قائلها يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون.

في قوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾:

وفيه قولان :

القول الأول: أنه متعلق بما هو مذكور قبل، وهو محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة، وبمثل هذا قال الفخر الرازي، وأكثر المفسرين[1].

القول الثاني: أنه متعلق بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾، دون محونا آية الليل، ولم أقف على من قال به من المفسرين ولا أدري إن كان أحدهم قال به ولا ما الذي أغفلهم عن هذا القول إن صح أن لا أحد قال به. ومثله أعطيتك كراسا وقلما لتكتب به، متعلق بالكراس والقلم معا. وأعطيتك مرآة وقلما لتنظر وجهك وترسمه تعلق الأول بالأول والثاني بالثاني. وأعطيتك محفظة وقلما لتكتب متعلق بالقلم دون المحفظة.

في قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾:

يقول الزمخشري في الكشاف: بيناه بياناً غير ملتبس، فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجة علينا[2]. وذهب القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، أي من أحكام التكليف[3]، وهو كقوله تعالى: ﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾. وبمثله قال الشوكاني[4]، و زاد الرازي أن ذكر المصدر في قوله تعالى: ﴿ تَفْصِيلًا﴾، إنما كان لأجل تأكيد الكلام و تقريره، وما نفهمه من ذلك فصلناه حقا وفصلناه على الوجه الذي لا مزيد عليه والله أعلم. وزاد ابن أبي زمنين في تفسير القرآن العزيز، أن كلمة كل وردت منصوبة بمعنى: وفصلنا كل شيء تفصيلا. وقال أبو حيان أن الظاهر في النصب كان على الاشتغال وهو أرجح من الرفع لسبق الجملة الفعلية في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، ومنهم من ذهب إلى أن وكل شيء معطوف على الحساب، وهو كلام مستبعد عند أهل اللغة و أعلام التفسير[5].

---

[1] انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء 10، ص10.

[2] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة 3، 1407هـ، الجزء 3، ص 423.

[3] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964 م، الجزء 20، ص 244.

[4] فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية، الشوكاني، دار المعرفة، 2004م، ص1667.

[5] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء 10، ص11.

الليل : بين الظل الممتد و المادة المخلوقة :

لم أجد، من المفسرين، من وقف على معاني كلمتي الليل والنهار في القرآن الكريم، سوى ما قرأت في بحث بعنوان (ظلمة الكون بين القرآن والعلم) للأخت الباحثة خديجة بنبشير حسني حيث تقول: عندما نستعرض الآيات المتعلقة بالليل نجدها تفرق في وضوح تام بين ليل الأرض وليل السماء، فإن المقصود بالليل في الآيات التي تتعلق بالأرض وحركاتها هو ليل الأرض. أما ليل السماء الذي يدل على ظلمة الكون الذي نحيا فيه فقد ورد في آيات عديدة تصف السماء وظواهرها، فالليل يؤخذ باعتبار سياقه..

ومع جميل ما قالته الأخت خديجة: إلا أن معاني كلمتي الليل و النهار في القرآن باعتبار السياق التي وردت فيه هي أكثر مما جاء في كلامها، بل الأعجب أن نظرة العالم للكون تخضع لهذه المعاني وتؤكدها.. فالليل ليس فقط ظاهرة تخص الأرض والسماء، ولكنها أكبر من ذلك فهو أيضا مخلوق حجب الله عنا رؤيته، وأغلب من تكلم في التفسير ذهب ظنه إلى الظاهرة الناتجة عن طلوع الشمس وغروبها.. غير أنه لا يخفى على أحد أن كل كلمة في القرآن مقصودة في حد ذاتها، ولا يمكن أن تحمل معناها المراد أي كلمة غيرها.. وقد أتقن القرآن اتقانا يقينيا حين استخدم هذه الألفاظ.. فهو لا يستعملها للغاية اللغوية أو الأسلوبية أو الجمالية من حيث السمع وتأثيرها على المتلقي فقط، ولكن أيضا لأجل ما تحمل من معان علمية تتوج ذلك الجمال وتزينه.. إن القرآن جاء ليصحح أخطاء العرب جاء ليصحح أخطاء العالم كله[1].

كنا نظن أننا نحسن التعبير إذا قلنا تشرق الشمس وتغيب، والشمس لا تشرق ولكنها تطلع، ولا تغيب ولكنها تغرب.. ولعل عدم التدقيق في معان الكلمات القرآنية هو الذي جعل بعض الضالين يستشهدون بالقرآن ظنا منهم أنهم يستفيدون منه لتسويق أفكارهم مع أنه مليء بالمفاجآت للكذابين.. ومن هؤلاء أتباع الفرقة الأحمدية الذين يقولون أن البعدية تعني في أصلها البعدية في المكان والزمان..

وتماما حين يتكلم القرآن الكريم عن الخلق كيف أنه تحويل الشيء إلى شيء وهو قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.. وأن الخالق وحده القادر على خلق الأشياء من اللاشيء وهو قوله تعالى: ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾... و من هنا تسقط نظرية حفظ المادة. لا شيء يخلق كل يتحول.. ليستبدل بقوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ؟ ومثل هذا الكلام في كل كلمة يستعملها القرآن.

في هذه الفقرة سنحاول فهم بعض المعاني المستفادة من كلمة الليل، يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

---

[1] وقع البحث بين يدي حين كنت أكتب هذا المبحث واختلف عندي فلم أجده.

[2] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 33.

و يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .:. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا .:. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾[1].

مع هذه الآيات وقفة.

يذكر الرازي في أحد المسائل المتعلقة بالآية، من سورة الأنبياء، إنه لا يجوز أن يقول كل في فلك يسبحون إلا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل، فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولا فإنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها والله أعلم[2]. ونحن نسأل لماذا لا يحصل الجمع بإضافة الليل والنهار ؟ فأما ظاهر كلام الرازي كونه غفل عن ذلك لأنهم، حسب فهمه، ليسوا من جنس واحد فالشمس والقمر مخلوقتين والليل والنهار ظاهرتين ناتجتين عن حركتهما، أما ظاهر الآية فينبئ كونهم جميعا مخلوقين وتصير بالتالي الواو واو عطف والكل كل جمع لا نحتاج لإثباته إلى تخمين النجوم وإدراجها هنا والله أعلم.

وذكر الرازي ما قاله الضحاك كون الفلك ليس بجسم إنما هو مدار هذه النجوم، وقول آخرون كونها أجسام تدور النجوم عليها. ونبه على كيفية ذلك فذكر قول البعض أن الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه. وقول الكلبي أنه ماء مجموع تجري فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لا تكون إلا في الماء، وردنا عليه في ذلك قولنا عن الفرس الذي يمد يديه في الجري سابح. وذهب يوسف الحاج أحمد في موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، كون الفلك هو المدارات الخاصة لكل كوكب، ويعني بها المسارات الإهليليجية الشكل التي تدور فيها الشمس وتوابعها وفق نظام دقيق، وهو وإن كان تفسيرا منطقيا ودقيقا فإنه ليس التفسير الوحيد ولا الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نقرأها من الآية.

ومع ذلك لم أقف على من بيَّن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾[3]. هل يجوز أن يكون الواو هنا واو عطف فيكون الليل والنهار مخلوقين كالشمس والقمر، والتالي يحمل الليل معنى غير المعنى الذي ذُهِب إليه.

وقد ذكرنا ما نراه في ما سبق من الكلام. والتالي فإن جملة كل في فلك يسبحون يتعلق بجميع ما قبلها لا بالشمس والقمر وحدهما.

ولعلنا نسأل عن سر الجمع في قوله تعالى: يسبحون، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[1]، فحمل الكلام على المثنى، فكيف يقول في سورة الرحمن: يسجدان، حملا على المثنى، ويقول هنا:

---

[1] سورة الفرقان، السورة 25، الآيات 45-47.

[2] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء 10، ص 15.

[3] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 33.

يسبحون، حملا على الجمع؟ ولعله ما ذهب إليه الزمخشري في الكشاف ولم يوضحه حين قال أن في تنوين كلمة كل عوض عن المضاف إليه[2] ومعناه كلهم في فلك يسبحون والله أعلم.

وهنا نسأل إن كان الليل والنهار يدخلان في هذا الكل كما الشمس والقمر ؟ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[3]، فهل أن المعنى من الليل والنهار هو الظاهرة الطبيعية التي تنتج عن امتداد الظل وانقباضه ؟ أم أنه يحمل معنًى ثان أدق وأعمق وأجل للناظرين ؟

فإن قيل لنا، أن الليل إنما هو الظاهرة التي تنتج عن احتجاب الشمس بطرف الأرض، قلنا لماذا يقول الله تعالى: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[4]،

و يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[5].

فيربط الليل والنهار بالشمس والقمر ربط ترتيب. أعني ما سر ترتيب كل هذه المخلوقات على هذا النحو ؟ خلافا لما جاء في الآيات من سورة الشمس، في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا .:. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا .:. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا .:. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾[6]، وفي الآيات من سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[7]،

فإنه لما ذكر الشمس أولا ذكر معها النهار أولا لارتباطهما كما ذكر القمر والليل بعد ذلك لارتباطهما، فكيف يذكر هنا الشمس أولا و يذكر معها الليل أولا في الترتيب ثم يذكر القمر ليذكر معها النهار في الترتيب ؟

الواضح من الآية أن في هذا الكون ما نبصر ونرى وما لا نبصر وليس باستطاعتنا رؤيته، وفهمنا من الآية أن ما لا نرى وليس باستطاعتنا مشاهدته هو آية الليل، ويكون ما نرى آية النهار، ووقع تقديم الليل الذي هو كل ما لا يرى ولا يبصر لنا عن النهار الذي يبصر وكشف لنا حاله، لأمور :

---

[1] سورة الرحمن، السورة 55، الآية 6.

[2] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة 3، 1407هـ، الجزء 3، ص424.

[3] سورة يوسف، السورة 12، الآية 4.

[4] سورة يس، السورة 36، الآية 40.

[5] سورة فصلت، السورة 41، الآية 37.

[6] سورة الشمس، السورة 91، الآيات 1-4.

[7] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 96.

1- أن في الكون ما يمكن إبصاره و ما لا يمكن إبصاره و ليس لنا وسيلة لإبصاره، و ليس معنى الإبصار بصر العين المجرد.

2- أن المادة المظلمة التي لا يمكن إبصارها هي الأكثر نسبة في الكون و الأول في ترتيب الخلق.

3- أنها إنما خلقها الله كذلك لابتغاء فضل الله تعالى علينا.

4- أن المادة المرئية من الكون يتحقق من خلالها معرفة الزمن و العلم بالسنين و الحساب.

والله تعالى أعلم.

فأما الأول فمثاله، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ .:. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾[1].

و أما الثاني فبيانه، قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ .:. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾[2].

و قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3].

(33) سورة الأنبياء.

وأما الأمران الثالث والرابع فبيانه، الآية التي نحن بصدد تدبرها والله تعالى أعلم.

ويشير القرآن الكريم أن الله تعالى خلق هذه الأشياء تباعا:

فبدأ بالظلمة (الليل)

ثم المواد المضيئة (النهار)

ثم النجوم (الشمس)

ثم الكواكب (القمر)

وجعل لكلٍّ فلك يسبح فيه فسبحان الله الخالق البارئ المصور.

وهذا التصوير تكرر في القرآن في أكثر من مرة منها، قوله تعالى: إذا الشمس كورت (فإنه بتكويرها لم يعد هناك نهار، إنما هو الليل الدامس التي تضيئنا نجومه)، ثم قال تعالى: وإذا النجوم انكدرت (فإن أول ما يذهب إليه بصر ابن آدم إذا أظلم الليل، نجومه.. فكيف إذا انكفأت النجوم وانكدرت، فإنه ولابد سينزل

---

[1] سورة الحاقة، السورة 69، الآيات 38 و39.

[2] سورة الحجر، السورة 15، الآية 15.

[3] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 33.

ببصره من السماء إلى الأرض ينظر ما حوله، وأول ما يبصره ناظره النازل إلى الأرض، الجبال)[1]، قال تعالى: وإذا الجبال سيرت (يا الله.. كيف هو حال الناس يومئذ وقد فزع بعضهم إلى بعض يريد النجاة، فإذا العشير لا يلتفت إلى عشيره، وإذا المملوك لا يحمل مالكه) قال تعالى: وإذا العشار عطلت (لابد وقد فُقِد من العشار نجدتهم أن يفر إلى البراري، فإذا كل ما فيها هائم) قال تعالى: وإذا الوحوش حشرت (كيف بابن آدم وقد سدت أمامه أفق البر إلا أن يلجأ إلى البحر كما لجأ موسى) قال تعالى: وإذا البحار سجرت (هنالك أيقن ابن آدم أن لا مهرب.. وبدأه السؤال.. نسأل الله العفو والعافية.

وَهُوَ

الَّذِي خَلَقَ

والذي نستفيد من الآية الكريمة، أن قراءاتها اللغوية توضح لنا أن الليل لا يفيد فقط ما انقطع عنه ضوء الشمس، ولا النهار يفيد فقط ما أضاءت عليه، وإنما يفيد الليل كل مادة لا تصدر ضوءا أو تموجا يمكننا

[1] وقد يسأل السائل: لماذا لم يذكر القمر هنا.. أليس متى أظلمت بزغ القمر منيرا في السماء ؟ والجواب: أن نور القمر متعلق بضوء الشمس، فلما كورت الشمس أضحى من الجهل أن يذكر القمر، وهو من الإعجاز العلمي في كتاب الله. ونظيره، قوله تعالى: اقتربت الساعة وانشق القمر.. فإنه هنا لم يذكر الشمس. ذلك أن انشقاق القمر ليس له تعلق بالشمس ولا انعكاس ضوئها عليه، إنما هو انشقاق ذاتي لا فقط ما تراءى للناظرين.

مشاهدتها من خلاله فمحي أثرها المباشر لإبصارها وأن النهار يمثل كل مادة تصدر ضوءا أو تموجا يمكننا رصدها من خلاله.

فتكون مادة الليل لا أثر لها يدل عليها مباشرة، إنما الدلالة على وجودها تأتينا من غيرها. ومادة النهار لها أثر يدل عليها مباشرة.

السنين و الحساب : الأيام و الشهور و حكاية السنين الضوئية :

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

و يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[2].

وفي كليهما ذكر للسنين والحساب :

في الآية الأولى : يكون علم ذلك مرتبط بضوء الشمس ونور القمر ومنازلهما، ومنه معرفة الساعات والأيام والشهور والسنين والأعوام وغيرها مما يرتبط بحياة الإنسان العامة. معنى ذلك أن المعرفة بالسنين هنا مبني على ما يظهر في القمر من الزيادة والنقصان في النور، فيبدو في أول الأمر في صورة الهلال، ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدراً كاملاً، ثم يأخذ في الانتقاص قليلاً قليلاً، إلى أن يعود إلى المحاق، وتماما ما يظهر في الظل بدليل الشمس عليه من امتداد وانقباض والله تعالى أعلم.

في الآية الثانية : يكون علم ذلك مرتبط بآية الليل التي محيت وآية النهار المبصرة.

يقول الطبري في جامع البيان في تفسير القرآن: واختلف أهل العربية في معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، فقال بعض نحويي الكوفة معناها: مضيئة، وكذلك قوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾، معناه : مضيئا، كأنه ذهب إلى أنه قيل مبصرا، لإضاءته للناس البصر. وقال آخرون : بل هو من أبصر النهار : إذا صار الناس يبصرون فيه فهو مبصر، كقولهم: رجل مجبن: إذا كان أهله وأصحابه جبناء، ورجل مضعف: إذا كانت رواته ضعفاء، فكذلك النهار مبصرا: إذا كان أهله بصراء. ومعنى ذلك أن يكون في ذاته مبصرا مضيئا، وإما أن يكون الناس قادرون على الإبصار فيه بوسائلهم، وليس ذلك لليل كما هو واضح. فدل قول المفسرين أن المعرفة بالسنين والحساب هنا مبنية في الأساس على هذا الفرق. معنى ذلك أن معرفة الزمن يرتبط بالشيء الذي يمكن إبصاره والشيء الذي لا يمكننا ذلك، أعني بآية الليل والنهار. فإن كانت

[1] سورة يونس، السورة 10، الآية 5.

[2] سورة الإسراء، السورة 17، الآية 12.

آية الليل قد محيت ولا يمكن مشاهدتها ولا رصدها، وكانت آية النهار مبصرة، فإن السنين لن تكون سنين ساعات وشهور، لارتباطها بالليل والنهار لا بالشمس والقمر، إنما هي سنين الضوء والله أعلم[1].

وربما هو ما توضحه الآيتان، فالأولى، قال فيها تعالى: ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. والثانية، قال فيها جل شأنه: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

التفسير العلمي :

من أي شيء يتركب الكون ؟

من الأشياء التي أثارت الإنسان منذ القدم معرفة عالمنا ومحاولة تحديده والبحث في مكوناته.

ذهب الفلاسفة الأيونيون إلى القول بأن العالم مركب من مادة واحدة. وقرر أناكسيمنس، أن هذه المادة هي الهواء، عازيا تعدد مظاهره إلى التكاثف والتخلخل.

واعتقد بعض اليونانيين أن الكون مكون من أربعة عناصر أساسية هي:

1- التراب

2- الهواء

3- المـاء

4- النـار

وذهب ديموقريطوس، وهو من الذريين (430 ق.م)، إلى القول أنه في الواقع يوجد ملاء و خلاء أو بمعنى آخر ذرات فقط وفراغ.

فالكون عبارة عن فراغ : يوجد به مواد بشكل غير متواصل. والمادة هي تآلف جسيمات صغيرة دائمة الحركة التلقائية ويوجد بينها فراغ. وأصغر جزء في المادة هو ما نسميه الذرة وهو غير قابل للتجزئة والإنقسام.

واعتقد هذا الفيلسوف أن كل الذرات متماثلة وصلبة وغير قابلة للانضغاط إلى جانب أنها غير قابلة للإنقسام، وأن الذرات تتحرك بأعداد لا حصر لها فى فضاء فارغ. وأن الاختلاف فى الشكل والحجم الذرى يحدد الخصائص المختلفة لكل مادة.

وطبقاً لفلسفة ديموقريطس، فإن الذرات ليست المكون الأساسي للمواد فقط ولكنها تكون أيضاً خصائص النفس الإنسانية.

---

[1] تفسير الطبري، الطبري، دار المعارف، الجزء 17، ص 396.

فعلى سبيل المثال فإن الآلام تسببها "الذرات الشريرة" وذلك لأن هذه الذرات تكون على شكل إبر، بينما يتكون اللون الفاتح من الذرات المسطحة ذات الملمس الناعم، وقد اعتقد ديمقريطس واعتقد معه الناس أفكارا هي بلا شك تثير تهكمنا الآن ولكنها كانت منذ قرون، العلم الذي لا يبارى.

واعتقد الذريون، و ربما يكون أفلاطون معهم في الاعتقاد، أن النار مكونة من جسيمات هرمية الشكل وأن الأرض مكونة من جسيمات مكعبة الشكل وأن الهواء مكون من جسيمات لها شكل المجسم المنتظم ذو الثمانية أوجه وأن الماء مكون من جسيمات لها شكل المجسم المنتظم ذو العشرين وجها... الخ

في الفترة ما بعد ديموقريطوس، وإلى أيامنا هذه بقي الاعتقاد السائد، أن الكون هو ذرات وفراغ. وتمت دراسة الذرة على أساس علمي:

ففي العام 1800، ذهب دالتون (جامعة كامبردج) إلى الاعتقاد أن جميع العناصر في الطبيعة مكونة من أجسام صغيرة جدا، هي عبارة عن كرات صماء، لا ترى و غير قابلة للتجزئة تسمى الذرة. وأن ذرات نفس العنصر متشابهة في الخواص (الشكل، الحجم، الكتلة) وذرات العناصر المختلفة مختلفة، وأن المركبات مكونة من ذرات مختلفة. تختلف المواد عن بعضها البعض بسبب اختلاف الذرات المكونة لها[1].

وجاءت نظرية دالتون بشكل مختلف عما سبق ذلك كونها تعتمد في الأساس على التجربة والمشاهدة المباشرة، وتؤسس لقوانين بقاء الكتلة وقانون النسب الثابتة وقانون النسب المتعددة.

وفي العام 1897، أثبت تمبسون، أنه يوجد ما هو أصغر مما خيل لدالتون ولمن سبقه أنه أصغر عنصر في المادة.. يعني ماهو أصغر من الذرة ذاتها، الإلكترونات، وبين أن الذرة ما هي إلا جسم موجب الشحنة تنتشر الإلكترونات فيه.

وذهب ثارفورد في العام 1911، للقول بأن معظم حجم الذرة هو عبارة عن فراغ.. وأن معظم كتلتها تتمركز في هذا الفراغ وتحمل شحنة موجبة وتدعى النواة.. وأن الإلكترونات تحمل شحنة سالبة وتدور بصفة عشوائية حول النواة.. وأن قطر الذرة يكبر قطر النواة مابين 100000 و 10000 ضعف ؟؟..

في عام 1913 اقترح الفيزيائي الدنماركي نيلز بور نموذجًا للذرة تنتظم فيه الإلكترونات في مدارات متوالية الاتساع حول نواة صغيرة تتكون من البروتونات والنيوترونات. ويقترح بور أن الإلكترونات تدور حول النواة في مسارات دائرية وبمدارات محددة.

وقد عدلت هذه النظرية التي تعتبر اليوم أقرب النظريات إلى الحقيقة.. اعتمادا على :

1- الطبيعة المزدوجة للإلكترون.

[1] مجلة آفاق العلم، العدد 8، جوان 2006، ص 21.

2- مبدأ عدم التأكد لهايزنبرج لتحديد مكان وسرعة الإلكترون.

3- إيجاد معادلة تصف حركة الإلكترون الموجية (معادلة شرود نجر).

واستمر هذا الاعتقاد، إلى أيامنا هذه، بأن الذرة عبارة عن جسيم فراغي يتألف من نواة صغيرة الحجم، ثقيلة الوزن، موجبة الشحنة وتتركز فيها كتلة الذرة، تحوي البروتونات الموجبة والنيوترونات المتعادلة، ويوجد حول النواة فراغ هائل تتحرك فيه الإلكترونات في مجالات فراغية مختلفة الأشكال والأحجام بسرعة كبيرة تصل إلى 2000كم / ثا.. وأن الإلكترونات تدور حول النواة بدون توقف مشكلة سحابة إلكترونية تلف النواة.

سنكون أمام سؤال عميق يخص هذه الحقيقة.. هل صحيح يوجد في الكون فراغ ؟

لو تأملنا الموضوع من وجهة نظر رياضية :

سنجد أنه يشبه إلى حد بعيد موضوع الخط المستقيم، فإن النظرة الأولى للخط المستقيم تفيد أنه بالإمكان اعتباره مؤلفا من نقط.. غير أن السؤال المدهش هنا هو :

كيف نستطيع أن نوفق بين هذه الفكرة و اتصال الخط المستقيم ؟ ليس المستقيم سلسلة من النقط، أو بعبارة أخرى سلسلة من الثقوب، إنه كل متصل.. إذا كان المستقيم كذلك فكيف نقول أن الكون هو عبارة عن ذرات متقاربة أو بعبارة أخرى هو عبارة عن فراغ.. إن هذا ليس بالأمر المنطقي ..

إن المسافة بين الذرتين لا تؤثر في ذاتها في جوهر الموضوع، إذ مهما صغرت فإن الذرتين تبقيان منفصلتين، تماما كموضوع النقطتين في المستقيم، و هنا سنكون أمام صعوبة كبيرة في تقسيم الزمان و تقسيم الحركة وهي انتقال جسم ما من موضع معين إلى موضع آخر في زمن معين..

الواضح أن فكرة الذرة هي فكرة ناقصة وربما خادعة..

أو لنقل أنها تهم جانبا فقط من كوننا.. وتخص نظاما فقط من نظمه العميقة.. نظام المادة المرئية لنا..

إننا واهمون إذن ونحن نبارك هذه النظريات التي تساوي الشيء باللاشيء.

فلنترك الآن بور ونظريته، ولنترك هايزنبرغ وحساباته، وشرودنجر ومعادلاته.. ولننظر في ما توصل إليه علماء اليوم.

لقد تأكد للعلماء اليوم أنه لا وجود للفراغ أبداً، بعدما اكتشفوا أن كل جزء من أجزاء الكون مهما كان صغيراً مملوء دائماً بالطاقة، مثل طاقة الضوء أو الأشعة الكونية أو الأشعة الراديوية وغير ذلك. والتالي فإن الكون غني بالبناء، في كل جزء منه مهما صغر هناك نوع من المادة والطاقة، ولا وجود للفراغ أبداً. فالطاقة تملأ كل شيء في الكون.

إن التجارب المخبرية تظهر أن ما يبدو لنا أنه فراغ، هو في الحقيقة يغلي بالأجسام الخفية التي لا تظهر لنا ولا يمككنا رصدها أو مشاهدتها وإن ملكنا الدليل على وجودها. والتالي ما كان الناس يعتقدونه في الذرة وأنها بناء فراغي كان وهما مبنيا على محض ظنون.. فذلك الفراغ الذي في الذرة هو ملاء بالطاقة المظلمة..

وطبيعي جدا أنه إذا لم يكن فراغ في الذرة فلا وجود للفراغ في أي جزء مهما عظم من هذا الكون.. وهو ما أكده العلماء أيضا.

سنحاول في الفقرة التالية الانتقال من الكيمياء إلى الفيزياء..

فبين عامي 1905 و1915، أنجز العالم الشهير ألبرت أينشتاين نظريته الثورية عن النسبية الخاصة، والتي قلبت مفاهيم الفيزياء رأساً على عقب. وبعدها بنحو عشر سنوات، انتهى أينشتاين من صوغ الشق الثاني من تلك النظرية، وحملت اسم النسبية العامة، التي ركّزت على تفسير المظاهر الكونية مثل الجاذبية وسرعة الضوء وتجاذب المجرات وغيرها. وحينها، بدا وكأنه فرغ من صوغ نظرية متكاملة تتمتع بالانسجام والقدرة على إعطاء تفسير متناسق للكثير من المظاهر الطبيعية بما فيها تلك التي بدت غير مفهومة قبله. باختصار، بدت نسبية أينشتاين بنياناً متكاملاً، إلى حدّ أنه استعملها في حساب أبعاد الكون الذي بدا له شديد الاستقرار. ولم ينجّه ذلك من النقد، حتى أنه فطن بنفسه إلى ضرورة تغيير بعض استنتاجاته. فإذا كان الكون مستقراً، فكيف (يتحمل) أثر الجاذبية التي رأى أينشتاين أنها تنجم من انحناء (النسيج) الذي يضم الزمان والمكان، والذي يشار إليه أحياناً باسم زمكان ؟

ولتلافي هذا التناقض الظاهري، أدخل إلى نظريته عاملاً مفترضاً سماه الثابت الكوني Cosmological (Constant)، وتصوّر أنه قوة تعاكس الجاذبية فتُدخل الاستقرار الى الكون.

ولم يثبت على رأيه، كما بالنسبة إلى أشياء أخرى في نظرياته !

ففي عام 1929، برهن عالم الفلك الأميركي إدوين هابل، الذي أشرف على مرصد ماونت ويلسون، أن الكون في توسع مستمر.

وزاره أينشتاين في السنة التالية، فأقنعه هابل بما لاحظه. وخرج أينشتاين لينتقد نفسه، ويعلن أن الثابت الكوني، باعتباره قوة كونية معاكسة للجاذبية، لم يكن سوى غلطة كبيرة. غير أن افتراضه و إن لم يكن دقيقاً وبلا أساس، لكن الكون يحتوي فعلاً قوة ضخمة يعاكس فعلها قوة الجاذبية، بل أن طاقة تلك القوة تنتشر في أرجاء الكون الشاسع بأكثر مما تفعل الجاذبية أضعاف المرات ! هذه الطاقة هي ما أُطلق عليها اسم الطاقة المظلمة Dark Energy ، لأن العلماء لم يتوصلوا لحد الآن إلى فهمها.

والمعلوم أن الجاذبية التي نعرفها ترتبط بالمادة بالشكل الذي نألفه، أي أن لها كتلة ووزناً وشكلاً وأبعاداً وغيرها. أما الطاقة المظلمة، فإنها ترتبط، حسب رأي العلماء، بنوع خاص من المادة تُغاير تلك التي نعرفها. ويسمونها المادة المظلمة، وهي أيضا غير مفهومة !

خلال هذه السنوات، عثر العلماء على دليل أول مباشر عن وجود المادة المظلمة وطاقتها. ويعتقد علماء الفلك، الذين يشيرون اليها أيضاً باسمي «الطاقة السوداء» و «الطاقة الشبح»، بوجود هذه القوة وبأنها تملأ الكون بنسبة عالية، وأنها تتمتع بضغط سلبي يعبّر عن نفسه باعتباره قوة تنافرية معاكسة للجاذبية الكونية.

وتُختبر هذه الطاقة بصورة غير مباشرة، من خلال المشاهدات الفلكية التي تحتسب سرعة تمدد الكون. وتبقى إلى الآن موضوعا غامضا وعصيا على العلماء.

ويذكّر هذا الغموض، في فهم المادة المظلمة، ببدايات اكتشاف نواة الذرّة في الثلث الأول من القرن العشرين، حين رسم العلماء نماذج تفترض وجود نواة صلبة ومتناهية في الصغر في مركز الذرّة. واستتبع ذلك احتساب الطاقة الهائلة التي تحملها قوى مفترضة، حينها، لا يعرف كنهها. وسرعان ما تسارعت التجارب للاستفادة من هذه الطاقة الافتراضية لتثبت وجودها. ثم أثبتت عملقتها بفارق كبير عن الطاقات الكلاسيكية المعروفة، أثناء التفجيرات النووية في هيروشيما وناكازاكي.

في أواخر العشرينات من القرن العشرين، اكتشف هابل أن الأجرام البعيدة جداً تسرع بالابتعاد أكثر من الأجرام الأقل بعداً.

وقد أتاحت الأقمار الاصطناعية والتلسكوبات الفضائية، التوصل الى قياسات لبقايا الضوء الخافت الناجم عن الانفجار العظيم (Big Bang) فيما يسمى باللحظة صفر من الزمن. وكذلك رُصدت الانفجارات النجمية البعيدة، وحُلّلت أضواؤها وعُرفت سرعة ابتعادها عنّا. وبات من قوانين العلم أن نقول بأن الأجرام الأبعد في الكون تبتعد عنا بسرعة تفوق تلك التي تبتعد بها الأجرام الأقرب، ما يعني أن الكون يتمدّد بسرعة متزايدة، وهو ما توصل إليه هابل[1].

وفي عام 1998، أنجز علماء الفيزياء الفلكية مدعومين بأجهزة كومبيوتر متطورة وبأرشيف فلكي غني، درس 40 مجرة. وتكوّنت لديهم صورة عن بحر عظيم من الطاقة تسبح فيه بلايين المجرات، وأطلقوا عليها اسم الطاقة المظلمة.

[1] مجلة آفاق العلم، العدد الأول، نوفمبر 2005م، ص 6-9.

ويتفق العلماء حالياً بناءً على الأرصاد والمشاهدات الفلكية المحققة، أن الطاقة المظلمة، تشكل أكثر من 70 في المائة من كثافة حضور الطاقة في الكون، وتشكل المادة المظلمة أكثر من 20 بالمائة من الكون.. أما ما يمكننا رؤيته فإنه يقل عن 4 بالمائة منه.

لقد تطلب الجواب عن السؤال : هل صحيح يوجد في الكون فراغ ؟ أكثر من 2500 سنة على ما نعلم، اجتمع فيه الفلاسفة والمنطقيون وعلماء التجربة كي يظفروا أخيرا بشيء من الإجابة وهي أن هذا الكون كله ملاء وهو خال من الفراغ، وليس فيه ما نستطيع أن نطلق عليه صفة الخلاء أو اللاشيء..

وأعجب من ذلك.. فالذي أثبته العلماء هو وجود طاقة ومادة لا قبل لنا برؤيتها لأن آثارها قد محيت عنا، وليس باستطاعتنا مشاهدتها.. وهي تملأ كل شيء غير قابل للمشاهدة ولا يعطي ضوءا أو يعكس نورا فنستطيع رصده.. إنه مظلم وعلى هذا الأساس جاءت تسميته كذلك.. إنه كالليل لا ينفذ منه الضوء ولا يعكسه.

أدلة وجود المادة المظلمة :

يستطيع المرء أن يكشف عن وجود شيء ما، بأن يراقبه مباشرة، أو أن يراقب أثره في شيء آخر أكثر وضوحا، أو الوقوف على دليل يدل عليه.

بعد ثورة كوبرنيكوس ونسبية أينشتاين نجد أنفسنا أمام مشهد جديد في مسيرة العلوم ، فبفضل ما توصلنا إليه خلال السنوات القليلة الماضية نعرف أن المادة "العادية" (التي تشكل كل شيء وتدخل في تركيبنا نحن البشر)، ما هي إلا نسبة بسيطة من الكتلة الكلية للكون فهناك عنصر آخر يدخل في تركيبته ، عنصر ليس معروفا لنا ولا يصدر عنه ضوء، هناك آثار يمكن تتبعها لكن ليس هناك ما يمكن رؤيته...

قبل أكثر من 60 سنة تنبه الفلكيون إلى أن النجوم في مجرة درب التبانة تدور حول مركز المجرة بسرعة أكبر مما تتوقعه النظريات والحسابات الفلكية, وبما أن سرعة النجوم تعتمد على الجاذبية الناتجة عن كتلة المجرة ككل ، فقد توصل الفيزيائيون إلى نتيجة تقول بوجود كمية مادة أكبر من المادة المرئية لنا.

تمت مراقبة نفس الأمر على مستويات أكبر ؛ فالمجرات تدور حول مركز مجموعتها بسرعة أكبر من المتوقع.

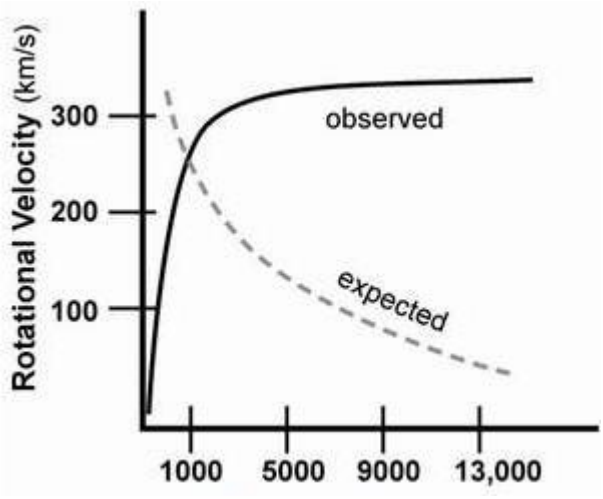

يوضح هذا الشكل علاقة سرعة المجرات ببعدها عنا ، فالحسابات النظرية تؤكد أنه كلما كانت المجرة أبعد كانت سرعتها أقل ، ولكن القياسات الواقعية بينت العكس ، فكلما كانت المجرة أبعد كانت سرعتها أكبر.

يقول موردیخاي ميلجروم عالم الفيزياء النظرية في معهد وايزمان للعلوم في فلسطين المحتلة: قوانين الفيزياء تحدد وبدقة متناهية كما من المادة يجب أن يوجد حتى يتم التوازن بين تحركات الأجرام والمجرات، اكتشاف أن الكتلة الكلية للكون المرئي هي أدنى من الرقم الذي تم حسابه أمر محير.

المادة الغامضة لا تصدر ما يمكننا رصده حتى بواسطة أدوات رصد الأشعة الكهرومغناطيسية مثل أشعة جاما وأشعة إكس أو الأشعة تحت الحمراء، فلا يمكننا معرفة تكوينها لأنه لا توجد أية طريقة تمكننا من ذلك مع اختفائها الكامل عن كل أجهزة الرصد.

يقول كارلو روبيا الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء: في السنوات الأخيرة قمنا بإجراء حسابات دقيقة خاصة بإشعاعات الميكرو ويف الخلفية (Background Microwave Radiations)، التي هي صدى الانفجار العظيم، مما مكننا، إلى درجة عالية من الدقة، من حساب الكثافة الكلية لكتلة المادة التي يحتويها الكون... إشعاعات الميكرو ويف الخلفية هي ما وصلنا من اللحظات الأولى لولادة الكون، لكن هذه الإشعاعات غير موزعة بشكل متساو في الفضاء : هناك مناطق بها طاقة أكثر ومناطق بها طاقة أقل.

بدراسة هذه الاختلافات في الطاقة، توصل الفيزيائيون إلى معرفة ديناميكية توسع الكون واكتشفوا أن قوة الجاذبية الناتجة عن كتلة كل المادة الموجودة في الكون يمكنها أن توصلنا إلى التوازن الذي كان موجودا لحظة حدوث الانفجار العظيم.

تم التقاط صورة أشعة اكس هذه لمجموعة من المجرات بواسطة القمر الصناعي (ROSAT) و تظهر كميات من الغاز (اللون الأحمر) مما يثبت أن الجاذبية الفاعلة على هذه المجموعات أكبر من كل محتويات المجرات مجتمعة ، و يعتقد العلماء أن الجاذبية الإضافية هنا ناتجة عن المادة المظلمة.

لكن سرعة المجرات في تباعدها الواحدة عن الأخرى (في توسع الكون) ليست في تنازل وإنما في تصاعد مستمر، فقد اتضح أن الكون لن ينكمش على نفسه كما يظن البعض، بل على العكس هو يسارع في التمدد.

وهنا نسأل : ما الذي يعطيه هذه الدفعة المستمرة في التسارع ؟

تم في الفترة الأخيرة القيام بالعديد من الأبحاث التي توصلت إلى الكشف عن مادة غير مرئية... فقد اكتشف فابريتزيو نيكاسترو (Fabrizio Nicastro)، من مركز (Harvard Smithsonian Center for Astrophysics) في الولايات المتحدة، وجود كميات كبيرة من الباريونات (Bayrons)، إحدى الجسيمات المكونة للذرة، بقرب مجموعة المجرات التي تضم درب التبانة. هذه المادة تشكل ما يشبه السديم الحار الذي يحيط بمجرتنا وجاراتها.

يقول نيكاسترو : تؤكد أبحاثنا أن كتلة هذا السديم تساوي ثلثي كتلة مجرتنا و المجرات التي بقربها.

الأهم من ذلك أنه لا يمكننا رصد أو رؤية السديم بشكل مباشر، ومن المتوقع، حسب نيكاسترو، أن السديم يقوم بامتصاص إشعاعات قادمة من أجرام سماوية بعيدة جدا مثل الكوازار (Quasar). وهو ما تؤكده النتائج التي توصل إليها باستخدام القمرين الصناعيين فوز (Far Ultraviolet Spectroscopic Explorer) و شاندرا (CHANDRA)، حيث اكتشف أكثر من خمسين سديما محيطا بمجرتنا... تمتص الذرات في هذه السدم الإشعاعات الخارجية مما يمكننا من رصدها بمعرفة وجود تغير في كمية الإشعاعات التي نرصدها قادمة من أجرام توجد هذه السدم بيننا وبينها.

مم تتكون المادة المظلمة :

يؤكد معظم الفيزيائيين أن المادة المظلمة مكونة من كميات كبيرة جدا من جسيمات ثقيلة وطاقة نشطة منخفضة. من هنا جاءت فرضية وجود جسيمات، ويمب WIMP (Weakly Interacting Massive Particles)، التي يجب أن تكون أثقل بخمسين مرة من البروتونات والتي، حسب النظرية، لا تتفاعل مع المادة العادية وإنما تخترقها أو تمر من خلالها.

ويعتقد أن الWIMPs تكونت في اللحظات الأولى لولادة الكون.. هذه النظرية تفترض أن مجرتنا محاطة بالWIMPs من كل الجهات والتالي تتعرض مجموعتنا الشمسية " لقصف " من جزئيات الWIMPs.. ومع تأكدنا من وجود هذه الجسيمات باستخدام المراصد الخاصة، يبقى من غير الممكن بعد قياس أبعادها وأوزانها بدقة لأن هذه الجسيمات شفافة، فهي تمر خلال المادة العادية كما ذكرنا[1].

مع أن طبيعة المادة المظلمة غير معروفة حتى الآن، إلا أننا نعرف بدقة كميتها في الكون... كل أنواع المادة (المظلمة و العادية) يصدر عنها جاذبية من المفروض أن تبطئ حركة الكون، لكن تسارع الكون يشير إلى أن هذه المادة الخفية تعمل بشكل معاكس للجاذبية مما يعطي للكون توازنه.

ويؤمن العلماء اليوم بأن هذه المادة الخفية تحتوي على طاقة في كل ما يبدو لنا فضاء فارغا، قد تكون ناتجة عن حقول تعمل على المستوى الأدنى من الذري (Subatomic).

أقوال العلماء :

يقول داغ كلاو الباحث في جامعة أريزونا في تسكون، الذي قاد الدراسة التي أشرفت عليها وكالة الطيران والفضاء الاميركية «ناسا» سوية مع جامعة هارفارد قوله، أن «الكون الذي تهيمن عليه المادة المظلمة، كان يبدو مستحيلا (أي مناف للعقل والطبيعة)، ولذلك أردنا أن نختبر (الأمر) لتحديد ما إذا كان تفكيرنا يتسم بعيوب أساسية»، وأضاف أن «هذه النتائج هي برهان مباشر على أن المادة المظلمة موجودة» فعلا.

وحدث الاكتشاف الخارق عندما استخدم العلماء البيانات التي سجلها مرصد تشاندرا المداري العامل على الأشعة السينية «أشعة إكس»، وهي البيانات التي قدمت معلومات عما أسماه العلماء أكبر ظاهرة لتحرر الطاقة المرصودة في الكون منذ الانفجار العظيم .

وقال العلماء إن مجموعة الطلقة «Bullet Cluster» قد ولدت بعد اصطدام مجموعة عملاقة من المجرات الواقعة على مبعدة 3 مليارات سنة ضوئية، مع مجموعة صغيرة من المجرات، وأنها تظهر وجود المادة

[1] مجلة آفاق العلم، العدد 8، جوان 2006، ص 24.

المظلمة. وفي الواقع فقد جرد هذا الاصطدام، المادة المظلمة عن المادة المرئية ودفعها بعيدا عنها. وبعد أن جردت، تم التعرف على المادة المظلمة بوضوح بعد رصد توليدها للجاذبية الشديدة.

علق شون كارول الباحث في علوم الكون في قسم الفيزياء بجامعة شيكاغو الذي لم يشارك في البحث: «إننا نملك الآن دلائل مباشرة.. ولا يوجد أي سبيل لتفسير الملاحظات التي رصدت من دون وجود المادة المظلمة». وبينما كان العلماء يدعمون ولسنوات نظرية وجود المادة المظلمة.. التي أزداد دعمها أكثر بفضل تأييد كبار العلماء والمؤسسات العلمية في هذا المضمار، فأن نظريات متعارضة لها تقوت أيضا مع الزمن، وكانت تروج لتعديل قوانين الجاذبية التي وضعها نيوتن واينشتاين. وكانت النظريات المتعارضة تعتقد أن تلك التعديلات في الجاذبية يمكنها تفسير الجاذبية الكونية أكثر من المادة المظلمة. وكان ستايسي ماكغاو الباحث في الفيزياء الفلكية في جامعة ماريبلاند، واحدا من المتشككين في نظرية المادة المظلمة، وهو غير مقتنع حتى الآن بوجودها. وقال: «لقد كنت أعرف بهذه النتائج منذ بعض الوقت، وأوافق على أنها مهمة وقد تقدم تعليلات حول المادة المظلمة، مقبولة اكثر من تفسير الجاذبية البديلة.. ومع ذلك فمن المبكر القول إنها تقدم ذلك»! وأضاف ماكغاو أن الرصد الأكيد لدقائق المادة المظلمة سيعني «التقاطها داخل المختبرات وليس القول فقط إن تأثيراتها هي الوحيدة التي يمكن أن تفسر ما يجري رصده (في الكون»).

وقال الباحثون في «ناسا» الذين شاركوا في البحث، إن المهمة المقبلة ستتمثل في فهم المادة المظلمة «والطاقة المظلمة المرتبطة بها» والتعرف عليها في المختبرات. وظلت هذه المهمة صعبة حتى الآن، لأن المادة المظلمة لا تبقي بعدها أي أثر، سوى توليدها لشدة الجاذبية .

وقال كارول أن نتائج الاكتشاف لا تشير إلى منشأ المادة المظلمة.. فهي تشير لنا إلى أن المادة المظلمة موجودة، إلا انها لا تذكر لنا ماهيتها وكميتها الكبيرة. إن المغامرة الكبرى لا تزال أمامنا.

وقال العلماء إن المادة التي يمكن رصدها، أي تلك الذرات الموجودة في كل شيء ابتداء من الغازات ومرورا بالأفيال إلى النجوم.. تشمل 5 في المائة من مادة الكون كله. وتشكل الجسيمات الدقيقة للمادة المظلمة، التي لا تملك سمات يمكن إدراكها سوى توليدها لمجالات الجاذبية واختراق أي جسم من دون ترك أثر، حوالي 20 في المائة.. أما البقية الباقية فإنها تظل محاطة بألغاز أكبر وأعمق من المادة المظلمة، وهي التي تملأ فراغ الكون وتجابه الجاذبية فيه وتبدو وكأنها تدفع الكون نحو التوسع بسرعة أكبر .

وقال مكسيم ماركيفتش الباحث في جامعة هارفارد ـ مركز سميثونيان للفيزياء الفلكية في كمبردج في ولاية ماساشوسيتس أحد أعضاء فريق البحث، إن اكتشاف الفريق قد تم بفضل رصد مرصد تشاندرا لآثار الاصطدام بين المجرات. وقد تمكن المرصد من رصد عملية غير اعتيادية جرى فيها انفصال غازات فائقة الحرارة لمجموعتي المجرات عن بقية النجوم .

وقال علماء الكون أن الغازات فائقة الحرارة لها صفات تؤهلها لأن تصبح موضعا لأي مجالات من الجاذبية، إلا أنها وبدلا من ذلك توجهت مع النجوم، ولن يحدث ذلك كما قال ماركوفتش إلا إذا تم انفصال المادة المظلمة عن الغازات والتحاقها بالنجوم. وتنشر نتائج البحث في مجلة «أستروفيزيكال جورنال ليترز».

الخلاصة :

مهما كانت طبيعة المادة المظلمة وطاقتها، فإن اكتشافها أدى بالعلماء إلى إعادة النظر في قصة ولادة الكون ومزيد التفكير في مراحل تطوره وحقيقة مكوناته، وبحسب ما توصلنا إليه من معلومات، نجد أن الكون به طاقة مظلمة بنسبة 73 بالمائة ومادة مظلمة (يستحيل رصدها و مشاهدتها) بنسبة 23 بالمائة، ومادة عادية بنسبة 4 بالمائة منها ما نسبته 0.4 بالمائة مادة مضيئة.

أثبتت القياسات الحديثة أن الكون في معظمه يتألف من مادة مظلمة وطاقة مظلمة بنسبة 96 % (73 % طاقة مظلمة ، 23 % مادة مظلمة) وكل ما نراه من الكون هو أقل من 4% .

المثال الثالث: الإعجاز العددي في ترتيب سور القرآن

من الطبيعي ونحن نخوض مسألة تتعلق بالعدد، أن نقدم لعلم العدد استنطاقا لفوائده وتوضيحا لتعلقه بموضوع ترتيب القرآن.

فمن المعلوم أن علم العدد، هو علم يهتم بدراسة خصائص العدد. والعدد هو الكثرة المكونة من مرتبة فما أكثر. ومعلوم أيضا أننا نعتمد في علم العدد على بعض الأصول العددية التي نسلم بصدقيتها لبداهتها ولا نحتاج أن نقيم الدليل عليها، ربما لأنها فوق العقل وربما لأنها جماع المنطق. وأبرز هذه الأصول أو المسلمات هي:

1- أن الصفر عدد طبيعي
2- وأن تالي كل عدد طبيعي، عدد طبيعي.

3- وأن مجموع عددين طبيعيين هو عدد طبيعي.

4- وأنه إذا كان حاصل ضرب عددين طبيعيين مساويا للواحد فإن كليهما يتساوى في القيمة مع الواحد.

5- وأنه إذا أضيفت نفس القيمة لعددين مختلفين، حافظ العددان على قيمة الواحد بالنسبة للآخر من حيث الكبر و الصغر.

6- وأن كل عددين طبيعيين مختلفين ليس لهما تال واحد.

7- وأن أي خاصية تصدق مع عدد طبيعي، إذا كانت صادقة مع عدد أكبر منه وصادقة مع تال ذلك العدد، فهي صادقة مع جميع الأعداد الأكبر من الأول.

و ينقسم العدد إلى أقسام قد لا يأت أحد على إحصائها، وسنحاول تقديم أبرزها.

فينقسم العدد من حيث الزوجية و الفردية إلى قسمين : أعداد زوجية وأعداد فردية: فالأعداد الزوجية هي الأعداد التي تقبل القسمة على اثنين كالأربعة و الستة.

ومنها الزوجية الدائمة وهي الأعداد التي يمكن أن تنصف دائماً حتى تنتهي إلى الواحد كأربعة وستين نصفها اثنان وثلاثون ونصف اثنين وثلاثين ستة عشر ونصف ستة عشر ثمانية ونصف ثمانية أربعة ونصف أربعة اثنان ونصف اثنين واحد، فهي إذن قوة للاثنين.

و قد حار العلماء في الإجابة عن السؤال التالي :

ماهي الأعداد الزوجية الدائمة التي تكون جميع مراتبها زوجية دائمة ؟ وقد وقف علماء الرياضيات على خمسة منها و هي 1 و 2 و 4 و 8 و 128 و لم يستطيعوا معرفة ما إذا كان ثمة بقية باقية أو هي منحصرة في هذه الخمسة.

و من الأعداد الزوجية الأعداد الزوجية غير الدائمة وهي التي تقبل القسمة أكثر من مرة واحدة على اثنين إلا أنها لا تنتهي إلى الوحدانية كالإثني عشر ينقسم إلى ستة ثم إلى ثلاثة.

وزوج الفرد وهي الأعداد التي تقبل القسمة مرة واحدة على اثنين كالمائة والأربعة عشرة ونصفها سبع وخمسون.

والقسم الثاني هو قسم الأعداد الفردية : وهي الأعداد التي لا تنقسم على اثنين كالثلاثة والخمسة.

ومن أقسام الأعداد، الأعداد الأولية : وهي الأعداد التي لا تنقسم على غير الواحد إلا على نفسها، كالثلاثة والخمسة والسبعة، أي ليس له نصف ولا ثلث ولا غيره من الأجزاء إلا الجزء الذي هو سميه كالثلث للثلاثة والخمس للخمسة.، و ليس منها عدد زوجي عدا الاثنين.

و قد اهتم الرياضيون بها لأهميتها و تولد بقية الأعداد عنها إذ ما من عدد طبيعي إلا و يكتب في صورة جذاء أعداد أولية كالثلاثين جذاء اثنين في الثلاثة في الخمسة، و هي القاعدة الأساسية للأرثميطيقا.

و لهذا حاول الرياضيون أن يوجدوا قواعد تبسط القسمة على هذه الأعداد. و قد تمكنوا من ذلك مع الأعداد الأولية الأصغر من ثلاثة عشر و هي 2، 3، 5، 7، 11، 13.

قاعدة : قابلية الأعداد للقسمة على 2، 3، 5، 7، 11، 13.

ليكن العدد الطبيعي (n).

يكون العدد (n) قابلا للقسمة على :

I. 2 إذا كان العدد الممثل للآحاد فيه يقبل القسمة على 2، أي إذا كانت قيمة الآحاد فيه 0 أو 2 أو 4 أو 6 أو 8.
II. 5 إذا كان العدد الممثل للآحاد فيه يقبل القسمة على 5، أي إذا كانت قيمة الآحاد 0 أو 5.
III. 3 إذا كان مجموع مراتبه يقبل القسمة على3، و هو الحال أيضا مع العدد 9 و إن كان ليس أوليا.
IV. 7 إذا كان الفرق بين ضارب الأعداد في المراتب دون الآحاد و ضعف العدد في الآحاد قابلا للقسمة على 7.
V. 11 إذا كان الفرق بين مجموع الأعداد في المراتب الزوجية و مجموع الأعداد في المراتب الفردية يقبل القسمة على 11.
VI. 13 إذا كان الفرق بين ضارب الأعداد في المراتب دون الآحاد و تسعة أضعاف العدد في الآحاد قابلا للقسمة على 13.

ومن أقسام العدد أيضا:

الأعداد المربعة : و هو حاصل ضرب عدد بمثله كالتسعة حاصل الثلاثة في الثلاثة.

والأعداد التامة : و هي الأعداد التي تساوي مجموع أجزائها كالستة نصفها و ثلثها و سدسها.

والأعداد الزائدة : و هي التي يزيد مجموع أجزائها على جملتها كالاثني عشر نصفها و ثلثها و ربعها و سدسها و جزؤها من اثني عشر ستة عشر.

والأعداد الناقصة : و هي التي ينقص مجموع أجزائها على جملتها مثل العشرة نصفها و خمسها و عشرها ثمانية.

والأعداد المتحابة : و هي الأعداد التي إذا جمعت أجزاء كل واحد منها تساوي مجموعها مع مجموع الآخر.

والأعداد المضاعفة : مثل الأربعة هي ضعف الاثنين والستة ثلاثة أمثالها.

و الأعداد الزائدة : و منها الزائدة جزءا كالثلاثة إذا قيست بالاثنين فإنها تزيد على الاثنين نصف الاثنين، و منها الزائدة أجزاء كالخمسة إذا قيست إلى الثلاثة زادت عليها ثلثي الثلاثة وهما جزءان للثلاثة.

و الأعداد المضاعفة الزائدة : و منها المضاعف الزائد جزءاً كالسبعة إذا قيست إلى الثلاثة فإن فيها ضعف الثلاثة، و المضاعف الزائد أجزاء كالثمانية إذا قيست إلى ثلاثة فإن فيها ضعف الثلاثة وثلثيها.

ولهذه الأقسام أقسام أخرى مشتركة الأسماء تحت كل نوع منها كالمضاعف الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي إلى ما لا نهاية له وكذلك المضاعف الزائد جزءا الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي إلى ما لا نهاية له وكذلك سائر الأقسام الباقية.

والأعداد المطلقة :

و هي الأعداد التي تتولد عنها بقية الأعداد دون الاشتراك مع غيرها، و ليس في الرياضيات عدد مطلق غير الواحد، فهو العدد الوحيد المطلق و سائر الأعداد تكرار للواحد أو أجزاء الواحد.

فإذا علمنا بعض أقسام العدد، حسن بنا أن نقدم لبعض مبادئ العد :

مفكوك العدد الطبيعي : ليكن (n) عدد طبيعي، نسمي مفكوك العدد الطبيعي (n)، حاصل ضرب العدد الطبيعي (n) بما دونه من الأعداد الطبيعية وصولاً إلى العدد (1)، و نرمز إليه ب$(n!)$، يعني

$$n!=n\times(n-1)\times...\times2\times1$$

التباديل : نسمي كل تقابل لمجموعة منتهية في نفسها تبديلا. يعني كل ترتيب لعناصر هذه المجموعة. عدد التباديل لمجموعة منتهية مكونة من عدد (n) من العناصر هو مفكوك العدد (n).

التوافيق : هي الطرق المختلفة لاختيار وانتخاب (r) من الأشياء المأخوذة من أشياء عددها (n) بدون اعتبار ترتيبها فيما بينها أو نظام انتخابها، و عددها هو $C_n^r = \binom{n}{r} = \frac{n!}{r!(n-r)!}$.

والحقيقة أن كلا منا يقلب صفحات كتاب الله، فمنا من ينظر فيها، و منا من يعمى عنها.. و كل يسمع كلام الله من خلال آياته.. و يتنصت مناجاة الله له.. و كثير من غفل عن آيات الله.. و هو يناديه.. وليس غريبا إذن أن نرى الآية الواحدة آيات.. و لا عجيبا أن نغفل عن آية و يراها غيرنا.

فالعابد يرى الآيات على سجادته وهو متجه إلى الله.. والكيميائي يراها في مكاييل الأشياء وأوزانها.. والمتكلمون يرونها في ما يصح القول بجوازه وجواز الدلالة عليه وفيما يصفونه بالموجود والمعدوم والقديم والمحدث والجوهر والجسم وغيرها من الأشياء التي اشتغل أهل هذا الفن.. واللغويون يرونها من حيث ما فيه من روائع التشبيه وبدائع المجانسة وعجائب المطابقة وما استوى فيه من وجوه الأعراب وتنزيل الأفعال وما انتفى عنه من عيوب الكلام عامة، فهم بذلك يرونه رؤية الحاذق لحروفه، المتمرس بألفاظه الذي لم تستعجم عليه ضمة ولا فاتته غنة.. والفلكي يرى هذه الآيات من خلال النجوم وما ثبت منها وما سار، ومعاني ثبوتها وسيرها وأفلاك سيرها ومنازلها بالنسبة لهذه الأفلاك، وكل حسب فنه.. فأين هؤلاء من عالم الرياضيات الذي اشتغل بالمعقولات فشرد لها ذهنه ؟.. هل يمكن له أن يتمتع بفكره ساعة مع آيات الله ؟ هل يمكن أن يرى روعة كلام الله من خلال ما يصنع ؟ لكن كيف له أن يرى عجائب كتاب الله وصناعته العدد والحساب والإحصاء وقضايا الهندسة ؟ أليس الجراح قد رأى ذلك تحت حد سكينه، وهو يرى تسبيح أعضاء الإنسان وكمال نشأتها تماما كما جاء في كتاب الله ؟ والعالم بالوراثة قد رأى ذلك بعين مجهره وهو يتفحص الخلايا التي تنطق بما كلمنا الله تعالى؟ إذا كانت هذه الصناعات وهي بعيدة عن الحرف ومعاني اللغة ترجمت حقائق القرآن وأظهرتها لنا ؟ فهل يكون الأمر كذلك مع صناعة العدد ؟ لماذا نخاف من العدد أن نواجه العالم به ونتدبره في كتاب نقرأ بين آياته.. وأحصى كل شيء عددا.. لماذا نخاف صراعا إذا تدبرنا بالهندسة وهي العلم بمقادير الأشياء كتابا نقرأ فيه.. وخلق كل شيء فقدر تقديرا.. ألا تحملنا هذه الصناعة إلى باب الله تعالى.. ألسنا أكفاء الناس فنمنح ما عندنا لله ؟ أليس في الرياضيات من الجدارة ما ليس في غيرها.. أليس بالعقل كرمنا الله ؟ وهل تفهم آيات الله تعالى بالرياضيات ؟

ربما يقف الرياضي على هذا، لأنه يعجز كغيره عن إدراك ما لا يدرك ورؤية ما لا يرى.. لقد خفي على الطبيعيين معنيان، معنى العدم ومعنى الوجود.. كان جل أعمال العلماء منصبا على هذين الأمرين، إثبات الوجود، والتحكم في العدم.. وهذه الأشياء في الرياضيات نراها بعين ثانية. ولنضرب على ذلك مثالا:

لو أردت جمع الأعداد الفردية، سأجمع $1+3+5+...$ و هكذا إلى ما لا نهاية.

فلو أردت جمع الأعداد الزوجية، سأجمع $2+4+6+...$ و هكذا إلى ما لا نهاية.

و نحن نصل إلى المالانهاية سأسألكم أي المجموعين أكبر من الثانية ؟

لنا في ذلك ثلاث ملاحظات :

الملاحظة الأولى : $(1+3=4)$ و $(1+3+5=9)$ هكذا، $(2+4=6)$ و $(2+4+6=12)$ و هكذا، مجموع العددين الأولين من المجموعة الثانية أكبر من مجموع العددين الأولين من الأولى، و هو نفس الأمر مع الثلاثة الأولى من المجموعتين، و لا أنه سيكون نفس الأمر كلما أخذنا مجموعتين تراتبيتين من نفس المرتبة من المجموعتين، سيكون إذن مجموع الأعداد الزوجية أكبر من مجموع الأعداد الفردية.

الملاحظة الثانية : كان أجمل أن تنتبه إلى ألآتي $(3+5=8)$ و $(3+5+7=15)$ و هكذا، سنترك العدد الأول من المجموعة الأولى و نضيفه حين نصل إلى ما لا نهاية، $(2+4=6)$ و $(2+4+6=12)$ و هكذا، مجموع العددين الأولين من المجموعة الأولى أكبر من مجموع العددين الأولين من الثانية، و هو نفس الأمر مع الثلاثة الأولى من المجموعتين، و لا أنه سيكون نفس الأمر كلما أخذنا مجموعتين تراتبيتين من نفس المرتبة من المجموعتين، سيكون إذن مجموع الأعداد الفردية أكبر من مجموع الأعداد الزوجية.

عجبا !!..

الملاحظة الثالثة : بل الأجمل أن تنتبه إلى الآتي $(1+3=4)$ و $(1+3+5=9)$ و هكذا، $(4+6=10)$ و $(4+6+8=18)$ و هكذا، سنترك العدد الأول من المجموعة الثانية و نضيفه حين نصل إلى ما لا نهاية، مجموع العددين الأولين من المجموعة الثانية أكبر من مجموع العددين الأولين من الأولى، و هو نفس الأمر مع الثلاثة الأولى من المجموعتين، و لا أنه سيكون نفس الأمر كلما أخذنا مجموعتين تراتبيتين من نفس المرتبة من المجموعتين، سيكون إذن مجموع الأعداد الزوجية أكبر من مجموع الأعداد الفردية.

هذا أعجب ؟

غير أنك قررت أن تضيف عددا و ها نحن و صلنا معك و لم تضف عددا ؟..

و ماذا ينفع أن نضيف عددا إلى ما لا نهاية ؟ ستبقى الما لا نهاية ما لا نهاية..

صحيح ؟.. فإذا أنقصنا منها عددا.. هل تتغير و تنقص ؟ ..

كلا.. لا ينقصها طرح عدد ولا تزيدها زيادة.. حسبنا أن نسميها ما لا نهاية..

عجيب أمر المالانهاية.. شيء لا يزيد إذا زيد و لا ينقص إذا أنقص..

هل يجوز أن نسميه شيئا..

هل يجوز مقارنة الما لانهائيات ؟

طبعا يجوز ذلك، سأقدم لك مثالا.. مجموعة الأعداد الطبيعية و مجموعة الأعداد الحقيقية أو الصحيحة.. ليسا متكافئين في الما لا نهاية.. لذلك اتفق الرياضيون أن يسموا الما لانهاية في الأعداد الطبيعية بما لانهاية المعدود.. و الما لانهاية في الأعداد الحقيقية بما لانهاية فوق المعدود.

و هل توجد أشياء غير قابلة للعد ؟ .. آه .. نعم.. قلت الأعداد الحقيقية هي بالفعل لا يمكننا أن نحصيها.. لكنها عقلا يمكن أن تحصى مع أننا لا نستطيع..

سأسأل هذا السؤال.. هل بوسع الرياضيين أن يتجاوزوا الأعداد الحقيقية ؟ وهم بعد ليس بوسعهم إحصاؤها ؟..

الجميل في الرياضيات أنها تتجاوز هذه المبهمات لتظهر ما بعدها.. فبعد دراسة الأعداد الطبيعية ثم الأعداد النسبية التي تجمع الأعداد الموجبة والسالبة وبعد دراسة الأعداد الكسرية والأعداد الحقيقية.. وقف الرياضيون على شاطئ الرياضيات من جديد وبعد لم يتجاوزوه.. لأنهم ما فقهوا كل شيء عن الرياضيات لا في علم العدد ولا غيره، إنما عرفوا منه بعض الأشياء.. وقف الرياضيون على ما اصطلحوا عليه بمجموعة الأعداد المركبة وهي الأعداد التي تمثل مجموع جزأين يسمى الأول الجزء الحقيقي للعدد ويسمى الثاني الجزء الخيالي.. وهو مركب جديد يحاولون به دخول بحر الرياضيات الذي مازالت أمواجه تلقي بهم نحو شاطئه كل مرة.. إنهم يتخيلون أشياء ويصنعون لأنفسهم غيبا، حتى ولو بالأعداد..

من أجمل ما وقفت عليه في هذا الجانب ورقة بعنوان (الرياضيات من الإلحاد إلى الاعتقاد) للباحث العراقي جلال الحاج عبد يقول فيها :

الصفر يساوي الصفر، عبارة صادقة $0=0$

يمكن كتابتها بهذه الصورة، $(1-1)=(1-1)$، هذه كذاك عبارة صادقة

ضرب أي عدد في صفر، صفر. هذه عبارة صادقة، فالصفر هو العنصر الماص في مجموعة الأعداد،

$$(1-1)=(1-1)\times 12$$

نقسم طرفي هذه المعادلة على $(1-1)$، عبارة نشك بصدقها $\frac{(1-1)}{(1-1)}=\frac{(1-1)}{(1-1)}\times 12$

نحن إذن بين أمرين، بين أن نقبل هذا التساوي أو أن نرفضه.

إذا قبلنا هذا التساوي، سيكون لدينا $\frac{(1-1)}{(1-1)}=1$، في هذه الحالة و عودة إلى المعادلة السابقة سيصبح لدينا $1=12$، و النتيجة يجب قبول تساوي أي عدد آخر مع الواحد، حتى نصل إلى وحدة الوجود.

إذا رفضنا هذا التساوي، رياضيا ستكون هذه القيم $\frac{(1-1)}{(1-1)}$ أو $\frac{0}{0}$ أو $\frac{\infty}{\infty}=\frac{\frac{1}{\infty}}{\frac{1}{\infty}}=\frac{0}{0}$ مبهمة، و لا تتعامل الرياضيات مع ما هو مبهم.. إذن ما هو الحل.. بإمكان الرياضيات أن تدنو من المبهمات إلى أقصى درجة من الدنو، فلننظر :

نعلم أن $\sin(0)=0$ إذن $\frac{\sin(0)}{0}$ قيمة مبهمة، لكن $\lim_{x\to 0}\frac{\sin(x)}{x}=1$، كذلك $\lim_{x\to 1}\frac{x^2-1}{x-1}=2$

و غيرها من النهايات.

لن تبلغ $\frac{\sin(x)}{x}$ قيمة الواحد حين تتساوى قيمة x مع الصفر، لكنها تقترب منه إلى أي درجة من الاقتراب حين ندني القيمة x من الصفر. الإبهام إذن هو عند بلوغ قيمة الصفر لا عند اقترابنا منه.. إذن كيف يمكن الاعتماد على الرياضيات للوصول بها إلى الله، في الوقت الذي تعجز فيه هي من الوصول إلى بعض عناصرها ؟ فإن وصلت فسوف تتغير جميع مفاهيمها.

ربما يسأل السائل كيف للرياضيات أن تحكم على قيمة $\frac{0}{0}$ أو $\frac{\infty}{\infty}$ على أنها مبهمة، ثم تجتازها بكل بساطة. إذا كانت $\frac{0}{0}$ أو $\frac{\infty}{\infty}$ منطقية فلماذا نتجاوزها، ثم لماذا لا نعلمها، وإذا كانت غير منطقية فما يفيد أن نتجاوزها ما دامت هي كذلك.

هنا سيقف الرياضي لو كان منصفا معترفا أن من الأشياء ما كان أمرها خارج العقل والتالي خارج المعرفة ؟ وهنا يستوقفني كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم : " لا تفكروا في الله و فكروا في خلق الله فإنكم لن تقدروه قدره ".

من المسلمات الرياضية كما أوردنا تالي كل عدد طبيعي، عدد طبيعي، وأنه لا يمكن لعددين طبيعيين مختلفين أن يكون لهما تال واحد. مع الأعداد كل عدد يحمل موقعا خاصا في مجموعة الأعداد، لا يمكن أن نغير ترتيب الأعداد بحسب مشيئتنا و إلا فلا معنى للمنطق الرياضي وقتها.

هنا و أنا أتحدث عن موضوع ترتيب الأعداد، يحضرني كلام جميل كتبه الباحث نصر الله أبو طالب بعنوان (لفتات حول اللغة الربانية التي كتبت بها المعلومات الوراثية)، يقول فيها : لو أن أحدنا أراد أن يؤلف كتابا عن أي موضوع لصنف ما يكتب إلى فصول يجمع إلى كل فصل جوانبه المشتركة.. كل ذلك ليسهل على القارئ تدبره و الإحاطة النسبية به.. لكن اللغة الربانية التي سطرت بها المادة الوراثية داخل الخلية، لم تنظم على هذا الأساس.. فجزيء الليف الرابع (الكولاجين الرابع) يتكون من ستة جزيئات، كل منها يصنعه جين وراثي هو أبعد ما يكون موقعا عن الآخر..

المسافات التي بينها تعتبر بحق هائلة عندما تقاس بقياسات ذلك العالم المتناهي في الدقة.. وحتى يستوعب القارئ ذلك، نذكر له تشبيه الباحثين لعملية العثور على جين بعملية اكتشاف موقع كرة قدم مخفية في أحد الطوابق الأرضية في عمارة بالولايات المتحدة الأمريكية.. وعلى القارئ أن يتخيل .. أن أحدنا لا يستطيع أن يحافظ على لفة خيط من عدة أمتار يفتحها ويلفها، إذ سرعان ما "تتشعبط" عليه، فكيف بمائة كم من خيط الخياطة الرفيع تلف وتفك ملايين المرات باليوم ضمن نواة الخلية التي لن يزيد حجمها عن دولاب صغير.. وتتناغم فقرات منه متباعدة في عمل مشترك يصل في بعض البروتينات كبروتينات الهموجلوبين الى طبع عشرات الترليونات أو آلاف البلايين من الجزيئات البروتينية بالثانية الواحدة.. أعظم أيها القارئ بملك الله وقدرته!

فما الذي إذاً يجعل هذه الجينات المتخصصة في بناء جزئ بروتيني محدد أن تتداعى آنياً من مواقعها المتباعدة من كروموسومات مختلفة لصناعة ذلك الجزيء البروتيني.. وكيف يتم استيعاب الأعداد الهائلة من المجموعات المتشتتة من الجينات استيعابها زماناً ومكانا لتنطلق فريقا واحدا متآزرا..

إنّ التصنيف والتبويب أساس في كل انشاءات البشر لمساعدة العقول البشرية على الألمام والأستيعاب وتجنب أخطاء السهو والنسيان.. لكن الخالق أغنى مَن يكون عن التذكير أو الحاجة الى وسائلة بما فيها من تصنيف أو تبويب.. وللخالق في توزيع المادة الوراثية على ما هي عليه حكمةٌ لا شك في وجودها وإن جهلها البشر وعجزوا عن اكتشافها..

ويجد القارئ للقرآن الكريم عرضاً لقضايا عديدة في مواضع متعددة من المصحف.. في كل موضع به طرح متجدد بلون أو تفصيل اضافي.. تتجدد فيه روح القارئ ووجدانه اثناء التلاوة، فالهدف ليس حشواً لمعلومات بل تربية لوجدان وروح وقلب.. لم يتم في عرض قضاياه كآيات الجهاد أو الأحكام مثلا الحرص على جمعها الى مواضع واحدة من المصحف، بل توزعت آيات الكتاب في مجموعات جميلة مؤثرة(السور)، لكل واحدة حلاوة تميزها، تحكم توزيعها عواملُ لا نعلمها يبدو من بينها وحدة النسق والنظم والموضوع أحيانا..

استوقفتني هذه الأشياء لما نظرت في كتاب الله تعالى.. فوجدته وصل إلينا مشتملا على مائة و أربعة عشر سورة، موزعين بترتيب اتفق الصحابة عليه، و اتفق العلماء على تحريم مخالفته.. ربما تساءل المرء.. لماذا ورد ترتيب القرآن على النحو و لم يكن على نحو مخالف ؟ .. لماذا خالف ترتيب القرآن ترتيب نزول سوره ؟ ولماذا لم يكن ترتيبه على حسب مواضيعه مثلا ؟

فصول القرآن سوره.. الآية الواحدة تحمل كل القرآن و تختزله و تدل على ما فيه.. ليس هو مشعبا إلى مواضيع.. فلم تجمع آيات الجهاد وحدها و العقيدة وحدها و التوحيد وحده و الفقه وحده.. و لم يكن القرآن مبوبا إلى باب الصلاة و الزكاة و الكلام عن العدل.. إنما كان سورا.. إذا قرأها الإنسان أو تليت عليه وقف ملجم اللسان لا يقوى.. بها تحدى الله بني آدم أن يأتوا بمثلها..

وكان سؤال مهم وجب النظر فيه.. لماذا هذا الترتيب بالذات ؟.. أم أنه ترتيب من الله تعالى.. لعل البعض لا يذهب إلى ذلك فيقول أنه مادام قد اختلف العلماء في هذا الأمر فلا يمكن التسليم فيه..
ولا يخفى على أحد اشتهار الخلاف بين أهل العلم سلفاً وخلفاً في قضية ترتيب القرآن. وأنى لمسألة وقع فيها الخلاف بين أهل العلم أن يرفع عنها.

ومع هذا، فلا يعدم أحد أن يسأل عن النتيجة المترتبة في صورة ما لو افترضنا أنا استطعنا رفع ذلك الخلاف الواقع في المسألة ؟

وحري بنا ونحن نخوض في مسألة ترتيب سور القرآن، أن نقدم أقوال المتكلمين في المسألة، وهي أربعة أقوال:

الأول: قول من قال بالتوقيف[1]، فألحق المسألة بالوحي، وأجرى عليها ما يجري على الوحي فأدخله في جملة ما تضمنه من المعاني والعلوم المبَرّزة لأعاجيبه، المبَيّنة لفصاحته وبلاغة تراكيبه، الكاشفة عن وجوه إعجازه، الداخلة إلى حقيقته من مجازه، المقررة لحججه وبراهينه، الواجب على المسلم تدبرها واستنباط ما فيها.

والثاني: قول من قال بالاجتهاد[2]، وهو أن ترتيب القرآن اجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم لا دخل للوحي فيه.

والتالي لولا واجب الإتباع واجتناب الابتداع، وواجب إكرام الصحابة رضي الله عنهم، لحسن أن نرتبه على هيأة أمرأ وترتيل أدق. وإنما الأمر في ذلك كالأصوات بعضها أمهر من بعض وبعضها أجود من بعض. والتالي فدراسته لا يتجاوز النظر في فعل الصحابة وما تعلموه، ولا يرقى أن نتكلم عن إحكام فيه يتجاوز حدود نظر البشر.

والثالث: قول من زاوج بين الرأيين ليخلص إلى أن الترتيب بعضه توقيفي وبعضه اجتهادي. واختلط على هؤلاء التوقيف والتوفيق، فلم يتسن لهم أن يبينوا ما نسبوه من الترتيب للصحابة وما هو منزل بالوحي، وصعب عليهم ذلك واستحال[1].

---

[1] وبه قال ربيعة بن فروخ التيمى شيخ الإمام مالك رحمهما الله. وهو اختيار الحسن ومحمد وأبى عبيد, وهو اختيار أبى بكر الأنبارى.

وهو قول أبي جعفر النحاس، وهو أحد قولي الباقلانى. وهو اختيار برهان الدين الكرمانى واختيار جماعة من المفسرين منهم القرطبى. وحكاه السيوطى فى الإتقان قولا للغرناطي صاحب كتاب (البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن) وحكاه السيوطى أيضا اختيارا لابن الحصار. وهو احتمال للحافظ بن حجر على ما فى الفتح, وحكاه السيوطى اختيارا للطيبى.

وقطع به جماعة من المعاصرين كالشيخ أحمد شاكر فى تخريجه لمسند الإمام أحمد وتابعه على اختياره هذا الشيخ صبحى الصالح فى كتابه علوم القرآن.

[2] وهو اختيار أبى الحسين بن فارس فى كتابه المسائل الخمس, واعتمده أبو بكر الباقلانى فى أرجح قوليه وهو ظاهر المحكى عن مكى بن أبى طالب, وهو اختيار ابن تيميه على ما حكاه عنه غير واحد من الحنابلة.

والقول بأن ترتيب السور فى المصحف اجتهادى محكى أيضا عن أبى جعفر بن الزبير وهو اختيار الزركشى فى البرهان, وهو اختيار الحافظ بن حجر على ما في الفتح، وهو ظاهر كلام القاضى بن عياض على ما ذكره النووى والحافظ بن حجر. وإليه ميل الرزقانى فى المناهل.

والرابع: قول من ساوى بين الأمرين رفعا للخلاف. فقوله أنه سواء كان ترتيب سور القرآن توقيفيا أم اجتهاديا فإنه يجب احترامه وكفى، تاركا احتمال أن يكون توقيفيا أو اجتهاديا احتمالا مفتوحا. حيث وجد هؤلاء أن أسهل الحلول لهذه المعضلة هو المساواة بين الأمرين.

فأما القول الأول فاستدلوا عليه بأمور:

الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ السبع الطوال بترتيبها الذي عليه المصحف، وهو ما روي عن معبد بن خالد أنه صلى الله عليه وسلم صلى بالسبع الطوال فى ركعة وأنه كان يجمع المفصل فى ركعة. وهذا يعارض بحديث حذيفة بن اليمان، رضي الله عنهما، عن قراءته صلى الله عليه وسلم بسورة البقرة ثم النساء ثم آل عمران في ركعة، فلا نخلص منه إلى شيء سوى جواز ذلك في الصلاة، أو نسخه وكراهة فعله على اختلاف بين الفقهاء.

والثاني: ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفي قال كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف. فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: طرأ علي حزبي من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه. فقلنا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد حدثنا أنه قد طرأ عليه حزبه من القرآن فكيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : تحزبه ثلاث سور, وخمس سور، وسبع سور, وتسع سور, وإحدى عشرة سورة, وثلاث عشرة سورة, وحزب المفصل ما بين ق فأسفل.

والثالث: ما ثبت عن جبريل أنه كان يعارض النبي صلى الله عليه وسلم كل عام مرتين، وعرض عليه القرآن مرتين في السنة التي قبض فيها. ولا ريب أن القرآن قد جمع على العرضة الأخيرة. فكان ترتيب تلك العرضة وحيا لا مرية فيه.

والرابع: أن ترتيب القرآن معلوم في صدور كثير من الصحابة. حيث جمع القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم جمع منهم.

والخامس: أن الصحابة أجمعوا على هذا الترتيب في عهد عثمان، وإجماعهم هذا إشارة إلى التوقيف.

والسادس: أنه لا يفهم كيف تفرقت السور المتجانسة بداياتها إن كان ذلك بدون توقيف.

---

[1] وذلك أن منهم من قصر الإجتهادى على سورتى الأنفال وبراءة كالبيهقى، ومن تابعه، كالسيوطى. ومنهم من خصه بما عدا السبع الطوال والحواميم والمفصل كابن عطية. ومنهم من ذهب إلى أن الإجتهادى منحصر فى الأقل من سور القرآن, لكنه يتعدى الأنفال وبراءة إلى غيرهما من سور القرآن كالزهراوين مع النساء, وهذا اختيار أبى جعفر بن الزبير.

والسابع: ما علم من تناسب ترتيب تلك السور وانتظامها واتساقها وإحكامها حتى لكأن جميعها السورة الواحدة، وصدق الوصف أن القرآن الحل المرتحل.

والثامن: أنه من البعيد أن يتسق كل شيء في القرآن بالوحي ويترك ترتيبه بلا وحي فيجتهد فيه الناس. فإننا نحتاج في حياتنا أن نرتب الأمر والنهي والطلب والدعوة وندعي الحكمة في ذلك، فكيف إذا كان ذلك الأمر والنهي والطلب والدعوة من جلال الله.

والتاسع: اجماع الأمة على اتباع ذلك الترتيب وتحريم مخالفته.

والعاشر: ما روى عبد الرزاق عن ابن عيينة عن الأعمش عن إبراهيم قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فلْيَسألْه عما قبلها، يريد، والله أعلم، أن ما قبلها يدله على تحرير لفظها بما تدعو إليه المناسبة.
قلت: ولا ريب من أنه إذا كانت الآية أول السورة، فالتي قبلها ما كان في آخر السورة التي سبقتها، فتم بذلك أن ترتيب السور كان بالتوقيف.
وأما القول الثاني فاستدل عليه أصحابه بأمور:

الأول: ما علم من اختلاف ترتيب الصحابة لمصاحفهم الخاصة قبل أن يجمع القرآن فى عهد عثمان, فقالوا: لو كان هذا الترتيب توقيفا منقولا عن النبى صلى الله عليه وسلم ما ساغ لهم أن يهملوه ويتجازوه ويختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذى تصوره لنا الروايات[1].

قلنا: ولا أحد يجهل إجماع الصحابة على مصحف عثمان بدون التقول في ترتيبه.

والثاني: ما روي عن ابن عباس أنه قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى براءة وهي من المئين وإلى الأنفال وهي من المثاني فجعلتموهما في السبع الطوال ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال عثمان: كان النبي صلى الله عليه وسلم مما تتنزل عليه الآيات فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له: ضع هذه الآية في السورة كذا التي يذكر فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآية والآيتان فيقول مثل ذلك، وكانت الأنفال من أول ما أنزل عليه بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها فمن ثم وضعتها في السبع الطوال ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم.

---

[1] تذكر الروايات أن مصحف أبى بن كعب رضي الله عنه، كان مرتبا هكذا: الفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران... إلخ. وأن مصحف علي كرم الله وجهه ورضي عنه، كان مرتبا على النزول هكذا: اقرأ ثم المدثر ثم ق ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكى والمدنى.

فذهب في خلد القوم أن عثمان رضي الله عنه هو من قرن بين الأنفال والتوبة لظنه أنهما سورة واحدة ولم يفصل بينهما البسملة.

والثالث: ما روي عن أبي عبد الله حذيفة بن اليمان، رضي الله عنهما، قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحوا من قيامه ثم قال: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريباً من قيامه[1].

قلنا: ولا يعدم أحد أن يقول أن متعلق الحديث لا يفهم منه موضوع ترتيب المصحف بقدر ما يفهم منه جواز القراءة على غير ذلك الترتيب في الصلاة خاصة، أو أنه منسوخ بقراءته عليه الصلاة والسلام بالسبع الطوال في ركعة، أو لعل ذلك قبل توقيف الترتيب.

والرابع: ما أخبر به يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال أي الكفن خير ؟ قالت ويحك وما يضرك. قال يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لم ؟ قال لعلي أؤلف القرآن عليه فإنه يقرأ غير مؤلف. قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه و سلم وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [2]. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده قال فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السورة.

والخامس: قولهم أن لو كان ترتيب سور القرآن بتوقيف النبي صلى الله عليه وسلم لظهر وفشا ونقل مثله كما هو الحال بالنسبة للآي في السورة الواحدة، فلما انعدم ذلك دل على أنه لم يكن منه توقيف فيه.

وأما القول الثالث فاستدلوا عليه بما ثبت من الروايات، في شأن بعض السور أنه النبي قرأها على غير الترتيب الذي عليه في المصحف وورود الروايات بخلافها. فجمعا بين كل تلك الروايات خلصوا إلى أن بعض ترتيب القرآن بالتوقيف وبعضه كان اجتهادا من الصحابة رضي الله عنهم.

---

[1] رواه مسلم في صحيحه، ورواه أبو عوانة في مستخرجه، وأبو داود، والنسائي، والترمذي. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

[2] سورة العنكبوت، السورة 29، الآية 22.

وأما أصحاب القول الرابع فمنطقهم، أن ماذا نجني من إثارة المسألة غير الاختلاف. وهل يجوز أن يكون شيء من علم القرآن خافيا على الصحابة رضي الله عنهم، وهم من ولاهم الله تعالى حفظه وإبلاغه إلينا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا: أما قولهم عما نجنيه من الإقرار بتوقيف ترتيب القرآن، احتمال أن يكون بابا من أبواب إظهار عظمة القرآن. فإن أنكرناه، مع قيام هذا الترتيب بدون اختلاف فيه، نكون قد أخفينا شيئا منه وجب إظهاره للناس.

فإن قيل: إنما ذلك احتمال قد لا يوافقه الواقع، ولعلكم بتقرير التوقيف في الترتيب تدعون ما ليس فيه. قلنا: لا ريب أن من تدبره النظر فيه من كل نواحيه. وإنما كان أمر الله بالتدبر مطلقا، وكان الأمر بالتدبر من وجهين:

الأول: تدبره بغاية إظهار انعدام الاختلاف فيه.

والثاني: تدبره بغاية فتح أقفال القلب التي تمنعه من إدراك الحق.

ثم إن المتدبرين أكثروا في القول في المناسبة، ولطائف العدد، حدا لا ينكره إلا جاحد أو جاهل. ولا ريب أن ذلك في الدلالة العقلية حق لأنه واقع لا نستطيع إنكاره أو ادعاء خلافه.

فإن قيل: وهل يجوز أن يكون شيء من علم القرآن خافيا على الصحابة رضي الله عنهم؟

قلنا: وما الذي يمنع أن تكون خافية طالما أنها لا تتعلق بحكم شرعي أو عقائدي يلزم العمل والإيمان به.

وإذا لم نتمكن من رفع الخلاف في مسألة ترتيب سور القرآن، فإننا نطمع أن لا تكون هذه المسألة مستنداً للرافضين للمسائل العددية، حيث يجزمون أن الترتيب من فعل الصحابة رضوان الله عليهم. فنحن إذن نطمع في إقرارهم بأن المسألة محتملة.

فإن أكثر لطائف القرآن مودعه في الترتيبات، والروابط[1].

ولو نظرنا في إمكانية ترتيب سور القرآن بصورة ثانية لكان لنا العدد $n=114!$، أي مفكوك العدد 114 من الإمكانيات، و هو عدد يفوق ال 10^{200} من الإمكانيات.

و السؤال هنا كيف اتفق الصحابة من بين كل هذه الإمكانيات لترتيبه على هذه الصورة ؟

[1] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار الكتاب العربي، 1999م، الجزء 2، ص 216.

نحن لا تعنينا إجابة على هذه الأسئلة لأنها ستستند إلى قناعات كل واحد ممن يوجه إليهم السؤال.. وستختلف ولا شك الإجابة حسب تلك القناعات..والمهم الآن، هو هل يجوز أن نتأمل هذا الترتيب ونتدبره ؟ وطبيعي جدا أن الجواب سيكون بالإيجاب هنا.. فإذا تأملنا هذا الترتيب ربما أجبنا على السؤال التالي : هل يجوز أن يكون هذا الترتيب من صنع البشر ؟

إننا مع الأعداد مع كائنات متغيرة الشكل و الصورة فهي تأخذ صورة النظام الذي تنتمي إليه، فالذي نصطلح عليه وما يتعامل به الناس اليوم هو النظام العشري للأعداد، وتكتب الأعداد فيه بلغة حروفها 9,8,7,6,5,4,3,2,1,0.. والذي نتعامل به مع الأجهزة الرقمية هو النظام العددي الثنائي ويكتب العدد فيه بلغة حروفها الواحد و الصفر ويمكننا الحديث عن الأنظمة العددية بالنسبة لأي عدد آخر..

ولعلنا مع ترتيب سور القرآن وآياته، سنجد لغة أبلغ من هذه اللغة التي تحكم الأعداد.. وأنظمة أدق وأحكم.. وكما هو الحال بالنسبة للأعداد.. سننظر في استخدام القرآن لأعداد محددة للدلالة على أعداد الآيات، ومواقع ترتيبها، في سوره البالغة 114 سورة، وللدلالة على أعداد الكلمات والحروف في تلك الآيات، وما ينشأ عن تلك الأعداد من علاقات رياضية محكمة، ذات دلالات على مصدر القرآن وإعجاز ترتيبه كما ارتضى الرياضيون اعتماد أنظمة عددية محددة، و تماما كما تختلف صورة العدد من نظام عددي إلى آخر سيتعمق هذا النظام مع القرآن، و ينشأ عنه ما سنسميه الأنظمة العددية في القرآن.

نظام ترتيب السور بحسب أعداد الآيات:

ليس من الصدفة للناظر في آيات القرآن أن يقف على أن أعدادا بعينها قد استخدمت للدلالة على ترتيب سور القرآن، هي الأعداد المتسلسلة من 1 إلى 114. فكل سورة تحمل واحدا من الأعداد الـ 114 رقما دالا على موقع ترتيبها في المصحف. فسورة الفاتحة هي السورة رقم 1، وسورة البقرة هي السورة رقم 2، إلى أن نصل إلى السورة رقم 114، التي هي سورة الناس، آخر سور القرآن في ترتيب المصحف. والتالي لا وجود لسورتين تحملان نفس رقم الترتيب للدلالة على موقعهما. مع أننا نجد في القرآن الكريم أكثر من مجموعة من السور تشترك كل منها في العدد نفسه ، للدلالة على أعداد الآيات فيها. و لعل صورة الأنظمة العددية في القرآن التي ذكرناها آنفا، ستتضح أكثر لو أننا أمعنا النظر في هذا التماثل في عدد الآيات بين بعض السور، إذ من الملاحظ أن بعض سور القرآن قد جاءت متماثلة في أعداد آياتها، كما ذكرنا، سورتان وثلاث سور وأربع سور وخمس سور، تشترك في عدد واحد من الآيات. ومثال ذلك، سورة الشرح وسورة التين وسورة البينة وسورة الزلزلة وسورة التكاثر، خمس سور تتألف كل واحدة منها من ثمان آيات، وكلها مرتبة في النصف الثاني من القرآن، ومثال ذلك أيضا، سورة إبراهيم و سورة القلم وسورة الحاقة، ثلاث سور تتألف كل واحدة منها يتألف من 52 آية، ولكنها مختلفة باعتبار ترتيبها، فسورة إبراهيم

مرتبة في النصف الأول من القرآن (14 / 52)، أما سورة القلم (68 / 52) و سورة الحاقة (69 / 52) فهما من سور النصف الثاني من القرآن .. و قد اعتمدنا رواية حفص عن عاصم..

ظاهرة التماثل في أعداد الآيات في بعض سور القرآن تستدعي النظر والتدبر . ففي حين نجد خمس سور كل منها مؤلفة من ثماني آيات ، لا نجد سورة مؤلفة من عشر آيات مثلا. إن أول ما يمكن أن يستنتجه المتدبر أن الأعداد المتسلسلة من 1 إلى 114 الدالة على مواقع ترتيب سور القرآن، لم تستخدم كلها للدلالة على أعداد الآيات في سور القرآن، ذلك أن كل تكرار لعدد ما، يصاحبه نقص واحد من الأعداد الـ 114 المستخدمة. فإذا افترضنا مثلا أن عدد السور التي تحمل أعدادا مكررة واحدا وعشرين سورة، فهذا يعني أن القرآن استخدم من الأرقام الـ 114 ، 94 رقما (عددا) وترك عشرين .. و لعلنا نسأل هنا :

لماذا استخدم القرآن الأعداد من 1 إلى 114 للدلالة على ترتيب سوره ؟ بمعنى آخر لماذا كان عدد سور القرآن 114 سورة ؟ وأي هذه الأعداد استخدمها للدلالة على عدد آيات سورة من سوره و أيها لم يستخدمها ؟ وهل استخدم أعدادا أخرى من خارج هذه السلسلة (أكبر من العدد 114) ؟ وهل تمّ استخدام هذه الأعداد وفق نظام ما ؟ (يمكن أن نسميه نظاما عدديا). وماذا وراء ذلك من أسرار الترتيب القرآني ؟

كما ذكرنا سابقا، فإن لكل نظام عددي أساس، يسمى قاعدة، فالنظام العشري أساسه و قاعدته العشرة، و النظام الثنائي أساسه و قاعدته الاثنين، و هكذا.. أما مع ترتيب سور القرآن فأول ما يلفتنا هو العدد 114 الذي يمثل عدد سور القرآن، و ربما لا يحمل هذا العدد خاصية تميزه أكثر من كونه عدد سور القرآن.. و ارتباطه بالقرآن جعلنا نفكر في ما إذا كان يحمل من الميزات ما يمكن أن نتحدث من خلالها عن نظام عددي لترتيب سور القرآن، يكون أساسه العدد 114. و طبعا سيختلف الحديث هنا، فليس الموضوع موضوع كتابة الأعداد في نظام العدد 114، و لكن الموضوع موضوع العلاقات المنظمة لأعداد آي سور القرآن و أرقام ترتيبها بهذا العدد.

تتألف مجموعة الأعداد من 1 إلى 114 من مجموعتين من الأعداد :

1 – مجموعة الأعداد الزوجية وعددها : 57 عددا .(2 ، 4 ، 6 ... 114)

2 – مجموعة الأعداد الفردية وعددها : 57 عددا . (1 ، 3 ، 5 ... 113)

هذه الحقيقة المجردة والتي لا تختلف حولها الآراء، ولا يمكن لأحد أن ينكرها أو يدعي الجهل بها، هي موجهنا الأول في إعداد عدد من الجداول نحدد من خلالها الأعداد الفردية المستخدمة في القرآن أعدادا للآيات، والأعداد غير المستخدمة، وكذلك الأعداد الزوجية المستخدمة، والأعداد غير المستخدمة، و التي ستمكننا، بإذن الله تعالى، من الإجابة على أسئلتنا السابقة ..

أول ما نلاحظه في هذا الجانب استخدام القرآن **32** عددا من بين الأعداد الفردية السبع والخمسين وتركه **25** عددا (**جدول رقم 1**) .. و عجب أنه استخدم من بين الأعداد الزوجية السبع والخمسين **32** عددا، أيضا، وترك **25** عددا (**جدول رقم 2**). وهذا يعني أن مجموع الأعداد المستخدمة للدلالة على أعداد الآيات في سور القرآن من بين أعداد السلسلة من 1 إلى 114 هو **64** عددا فقط، وأن عدد الأعداد غير المستخدمة هو **50** عددا . وليس من الصعب، على أحد، ملاحظة أن هذا النمط في استخدام الأعداد قد تمّ وفق نظام محدد، يقوم على التماثل بين عدد الأعداد الزوجية والفردية المستخدمة، وبين عدد الأعداد الزوجية والفردية غير المستخدمة.

ولسنا نغفل هنا أن نشير إلى أن العدد 32، الذي يمثل عدد الأعداد المستخدمة، يمثل أيضا درجة تجمد الماء بحساب الفهرنهايت، التي هي درجة الصفر المائوية. و لن نقول أنها إشارة قرآنية لذلك، إنما فقط لنعلم أن أهميته في القرآن، تحيلنا إلى التفكر في ميزاته الرياضية و ميزانه العلمي.. ولنا أن نقول أنه يمثل حسابيا قوة الخمسة للاثنين، فهو عدد زوجي دائم، عوامله 1 و 2 و 4 و 8 و 16 و 32. و يمثل أصغر عدد له بالضبط سبعة حلول لمعادلة أولير.. وللعلم فإن دالة أولير هذه، أو الدالة (في) كما اصطلح الرياضيون على تسميتها، هي دالة نظرية الأعداد، وتستعمل في الرياضيات الخالصة، وفي نظريات المجموعات، وفي المبرهنة الجبرية للأعداد، والمبرهنة التحليلية، وتعتمد كذلك في الرياضيات التطبيقية، مرورا بالحسابات التوافقية، وتلعب دورا هاما في نظرية المعلوماتية و خاصة التشفير. وهي دالة من مجموعة الأعداد الطبيعية نحو نفس المجموعة، حيث صورة العدد (n) بالدالة هو عدد الأعداد الأولية فيما بينها الأصغر من (n).

أما العدد 64، فمن ميزاته أنه عدد زوجي دائم وأنه أول قوة موجبة للاثنين، لا يكون عددا فيرما (أي لا يكتب بشكل $2^{2^n}-1$) ولا يكون عددا لمارسان (أي لا يكتب بشكل 2^n-1)، وهو عدد ذاتي، أي لا يمكن كتابته بصورة مجموع عدد آخر مع مجموع مراتبه، كالعدد 21=15+5+1 الذي هو عدد ليس ذاتيا، وهو مربع ال8 و مكعب ال4 و قوة الستة لل2، وهو سابع عدد ممركز مثلثي، كونه يكتب بالصورة التالية $\frac{3n^2+3n+2}{2}$ ، $(n=6)$.

و ربما تساءل المرء هنا، لماذا تتميز الأعداد المذكورة في القرآن عن غيرها ؟ ومن أهدى محمدا صلى الله عليه وسلم كل هذا العلم بحالات الأعداد وخصائصها حتى يكون ترتيب القرآن على هذا النحو و لم يكن على نحو آخر ؟ إنه حقيقة معجز فليس معقول أن تجتمع الصدفة في كل فصل من فصول هذا الترتيب.. غير أننا لن نحمل أحدا على إتباع ما نرى.. وسنترك لكم الجواب.. ولنمضي الآن، فلا شك أننا نسير في روضة كثيرة الزهر، عبقة الشذى، وحسبنا إن لم نصب جنيا أن نر زهرا ونشم عطرا.. وما أروعه من زهر حين ينبت من آيات الله و كلماته.. وما أطهره من عطر حين نتنسمه من نسائم القرآن..

ولعلنا أن مجموع الأعداد الـ 9 غير المستخدمة من بين الأعداد الفردية في النصف الأول هو 319 [1 ، 23 ، 27 ، 33 ، 39 ، 41 ، 47 ، 51 ، 57] وهو الفرق بين مجموع أرقام ترتيب سور القرآن وعدد آياته (6555 – 319 = 6236) .

ثم ماذا ؟

لقد استخدم القرآن من بين الأعداد الفردية في السلسلة من 1 إلى 57، 20 عددا وترك 9، بينما استخدام 9 أعداد من بين الأعداد الزوجية في السلسلة من 58 إلى 114، وترك 9. والتالي يكون عدد الأعداد المستخدمة في السلسلة من 1 إلى 57 هو 43 عددا ، و عددها من السلسلة من 58 إلى 114، 21 عددا.

والعدد 9 هو رابع عدد مربع وهو مربع كامل، بمعنى أن جذره عدد طبيعي، وهو عدد ممركز مكعب، يعني أنه يأخذ صورة $n^3+(n+1)^3$، وهو أول عدد كابركاري، والعدد الكابركاري هو كل عدد مربعه يكتب في صورة جزأين منفصلين يساوي مجموعهما ذلك العدد، ومربع التسعة 81، و 8+1=9، و هو أيضا رابع الأعداد القوية، و العدد القوي هو كل عدد إذا قبل القسمة على عدد آخر قبل القسمة على مربع ذلك العدد، وهو يقبل القسمة على 3 وعلى مربع ال3. وهو عدد موتزكيني، ونعني بالعدد الموتزكيني كل عدد طبيعي يمثل عدد الطرق لاختيار أوتار لا تتقاطع من بين الـ $\frac{n(n-1)}{2}$ وترا تربط كل نقطتين من القمم. ولهذه الأعداد تطبيقات جمة في الجيومتريا (الهندسة) والحساب وعلم العدد.

أما العدد 20 فأول ما نلاحظه عنه أنه زوجي غير دائم، وأنه عدد ذاتي، وهو خامس عدد مستطيل، والعدد المستطيل هو كل عدد تمثل جملته حاصل ضرب عددين متتالين، فهو حاصل ال4 في ال5، وهو خامس عدد نيفيني، والعدد النيفيني هو كل عدد يقبل القسمة على مجموع مراتبه في نظام عددي معين، وهو يقبل القسمة على 0+2، وهو خامس عدد ثلاثي هرمي، لأننا نستطيع كتابته بالشكل $\frac{n(n+1)(n+2)}{6}$، والملاحظ أن هذه الأعداد ما اشتهرت وعلم تميزها إلا قبل سنوات قليلة فكيف اتفق تميزها في الرياضيات مع تميزها في القرآن الكريم ؟ ومن الذي أعلم محمدا صلى الله عليه و سلم والصحابة رضوان الله عليهم أن لهذه الأعداد كل هذه الأهمية في الحساب فاختاروا أن تكون أرقاما لسورهم وأعدادا لآياتها ؟ وكيف نفسر و جودها في هذا الكتاب دون غيرها ؟

لو نظرنا الآن في الأعداد التي استخدمها القرآن خارج السلسلة 1–114.. لقد استخدم القرآن من خارج سلسلة الأعداد 1–114، للدلالة على أعداد آيات سوره، **13** عددا. وقد نشأ عن ذلك مجموعة

السور الـ **13** الأطول بين سور القرآن الكريم. وبذلك يصبح عدد الأعداد المستخدمة في القرآن للدلالة على أعداد الآيات في سوره كلها، **77** عددا لا غير.

ولسنا نغفل أن نشير إلى بعض الميزات الرياضية للعدد 13، فمن خصائصه، مثلا، أنه توأم العدد 11، ونذكر أننا نسمي عددين أوليين بأنهما توأمين إذا كان الفارق بينهما 2، ومجموعهما يقبل القسمة على 6 دائما، ما عدا 3 و 5، فإن مجموعهما لا يقبل ذلك. ومن خصائصه أيضا كونه عدد مجاور للعدد 17، ونسمي عددين بأنهما متجاورين إذا كانا أوليان و الفارق بينهما أربعة. وهو أيضا عدد يجانس العددين 7 و 19. و نسمي عددين أوليين بأنهما متجانسان أو يحملان نفس الجنس، إذا كان الفارق بينهما 6. ومن خصائصه العجيبة التي انتبه إليها الرياضيون أن مربع معكوسه يساوي معكوس مربعه، $13^2 = 169$ و $31^2 = 961$ وأن مجموع مراتب مربعه التي هي $(1,6,9)$ يساوي مربع مجموع مراتبه $(1+6+9) = (1+3)^2$.

أما العدد 77، فمن خصائصه أنه مجموع ثلاث مربعات متتالية و هي 4 و 5 و 6، $(77 = 6^2 + 5^2 + 4^2)$، وأنه مجموع السبعة الأعداد الأولية الأولى المخالفة للواحد، $(77 = 19+17+13+11+7+5+3+2)$، وأنه حاصل ضرب عددين أوليين متتاليين $(77 = 11 \times 7)$..

ولنا أن نسأل هنا.. هل جاء استخدام القرآن لـ 32 عددا فرديا لا غير، من بين مجموعة الأعداد الفردية السبع والخمسين في السلسلة $1 - 114$، ومثله 32 عددا من بين مجموعة الأعداد الزوجية مصادفة ؟ أم أنه قد تم وفق نظام ما ؟

وهل جاء استخدام القرآن لـ 13 عددا لا غير ، من خارج السلسلة $1 - 114$ ، مصادفة أيضا ؟

لسنا مبالغين إذا قلنا أن لا مصادفة، ولا مجال لتضارب الآراء في تفسير هذه التوازنات، فالقرآن قد خزّن لنا إشارات واضحة لمحاور هذا النظام في معادلة الترتيب القرآني.. وإليك بعض روائعه.. فافهم ترشد.

$6 = 1+1+4$

$114 = 19 \times 6$.

$13 = 19 - 6$.

$32 = 19 + 13$.

$25 = 19 + 6$.

كيف اتفق لنا هذا ؟ أليس هذا بالأمر العجيب ؟ ..

ربما سأل سائل إنا نراك تعتمد الضرب تارة والجمع تارة أخرى والطرح تارة ثالثة.. والحق أنه لا ضير في اعتماد ذلك هنا لأننا نبحث عن العلاقات التي تجمع هذه الأعداد.. وربما إذا لم يتيسر لنا الآن فهم لماذا كانت العلاقة مرة بالجمع ومرة بالضرب ومرة بالطرح أن يتيسر لنا ذلك مستقبلا.. ولعل اعتماد الطرح بدل اعتماد الجمع ما يزيد سر أنظمة القرآن وضوحا.. وهو من أين أخذته بين المراد قوي العماد هاديا إلى سبيل الرشاد..

ثم ماذا ؟ ..

لعلنا نلاحظ مجموع الأعداد المستخدمة وغير المستخدمة بالصورة التالية :

تتألف مجموعة مراتب سور القرآن، من 57 عددا زوجيا و 57 عددا فرديا.. العدد الكلي للأعداد المستخدمة هو **64**، و العدد الكلي للأعداد غير المستخدمة هو **50**. و أي علاقة تجمع الأعدادا الثلاثة 64 و 50 و 57.. تدبر معي..

$13 - 6 =$ **7**.

$57 + 7 =$ 64 .

$57 - 7 =$ 50.

أليس هذا عجيبا؟..

ربما لا يكون كذلك عندك أنت.. أما أنا فأراه كذلك ثم إني على يقين أن القرآن قد استخدم أعدادا محددة للدلالة على أعداد الآيات في سوره، مراعيا أن يكون عددها وَفق العلاقات الطبيعية المجردة في العدد 114، وهو العدد الذي اختاره الله عددا لسور كتابه الكريم، دون غيره.

وهذا يعني أن أساس الأعداد **32** (عدد الأعداد الزوجية وكذلك عدد الأعداد الفردية المستخدمة) و **25** (عدد الأعداد الزوجية غير المستخدمة وكذلك عدد الأعداد الفردية غير المستخدمة) و **13** (عدد الأعداد المستخدمة من خارج السلسلة) للدلالة على أعداد الآيات في سور القرآن، كان وفق نظام عددي محكم أساسه العدد 114، عدد سور القرآن الكريم .

و ماذا أيضا ؟ .. ألسنا نقول بوحدة القرآن.. و ارتباط بعضه ببعض، حتى سميت فصوله سورا، كما سورة الجدار يشد بعضه بعضا.. و منه كانت بعض تسميات سوره بأم القرآن وقلب القرآن والزهراوان.. فما تجلي هذه الأنظمة العددية مع هذه الوحدة ؟ ..

لعلنا نعمد إلى أول سورة في القرآن وآخر سورة فيه من حيث الترتيب.

أول سور القرآن ترتيبا هي سورة الفاتحة ، المؤلفة من **7** آيات ، وأولها آية البسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " المؤلفة من **19** حرفا. وآخر سور القرآن ترتيبا هي سورة الناس المؤلفة من **6** آيات، وآخرها قوله تعالى " من الجنة والناس " المؤلفة من **13** حرفا. لقد تمّ تحديد عددي الآيات، في السورتين اللتين تمثلان أول القرآن وآخره ترتيبا وعددي الحروف في الآيتين الأولى والأخيرة ، على نحو يشير إلى محاور النظام العددي الدي تحدثنا عنه (19 ، 13 ، 7 ، 6)، انظر معي..

19 : عدد حروف الآية الأولى (بسم الله الرحمن الرحيم)

13 : عدد حروف الآية الأخيرة (من الجنة والناس)

7 : عدد آيات السورة الأولى (الفاتحة)

6: عدد آيات السورة الأخيرة (الناس)

و من هذه الملاحظات، يكون لدينا :

$19 \times 6 = 114$.

$19 - 6 = 13$.

$19 + 13 = 32$.

$7 + 13 = 20$.

$19 + 6 = 25$.

أليست العلاقات ذاتها أعيدت إلينا.. هذا باعتبار عدد الآيات، وعدد الحروف. فماذا باعتبار عدد الكلمات ؟

إذا بحثنا عن الآية الأولى في ترتيب المصحف المؤلفة من **19** كلمة، نجد أنها الآية رقم **13** في سورة البقرة ! ألا تعجب ؟.. لقد جاءت في موقع محدد يُلاحظ فيه القصد. ولا يخفى ما فيه من تأكيد العلاقة السابقة الرابطة بين أول آية في ترتيب القرآن وآخر آية ومحور تلك العلاقة، العددان 19 و 13. وأجمل من ذلك أن الآية رقم 13 في سورة البقرة، تأتي بعد 19 آية من بداية المصحف. ما أجمل هذه الصدف.. وما أكثرها لو قبلنا أن تكون صدفا.. غير أني أعلم أن الصدفة لا تعاد إلا قليلا و لكنها هنا تعاد في كل حين.. تابع معي..

ماذا عن الآية الأخيرة في ترتيب آيات القرآن المؤلفة من 19 كلمة ؟

لعلنا نعني الآية رقم **13** في سورة الممتحنة ، السورة الوحيدة بين سور القرآن المؤلفة من **13** آية. أليس من الواضح أيضا أن موقع هذه الآية محدد بقصد وتدبير وتخطيط ؟

و أعجب من ذلك أن من بين آيات سورة الممتحنة آية أخرى مؤلفة من 19 كلمة ، وأن تلك الآية هي الآية رقم **6**. وهذا يعني أن آخر آيتين مؤلفة كل منهما من 19 كلمة في ترتيب آيات القرآن هما الآيتان 6 و 13 في سورة الممتحنة المؤلفة من 13 آية.

والسؤال هنا :

أليست هذه الأعداد هي محاور أحد أنظمة أعداد الآيات في سور القرآن ؟

بعد اكتشافنا لعدد الأعداد المستخدمة في القرآن للدلالة على أعداد الآيات في سوره، على النحو الذي أوضحنا، يجب أن ندرك أن مجيء الآية الأولى في ترتيب القرآن مؤلفة من 19 حرفا، والأخيرة من 13 حرفا، ومجيء الآية الأولى المؤلفة من 19 كلمة في رقم الترتيب 13، والآية الأخيرة في رقم الترتيب 13 أيضا، وفي السورة المؤلفة من 13 آية، ليس مصادفة و لا دون قصد، إنما هو تنبيه واضح للتدبر في هذين العددين وما يختزنانه من أسرار ودلالات. فإن لم نفعل ذلك فإننا سنستمر بالمرور العابر على تلك الأعداد، دون أن ندرك ما تخفيه من أسرار ترتيب القرآن الكريم .

ولنا هنا أن نسأل أن لو افترضنا أن عدد سور القرآن 113 سورة ، أو 115 ، فهل كان يمكننا أن نربط بين عدد الأعداد المستخدمة ، وعدد الأعداد غير المستخدمة، وعدد الحروف في الآيتين الأولى والأخيرة في ترتيب القرآن، بالأعداد **19 و 13 و 6 و7** محاور النظام العددي؟

والجواب بالطبع لن يكون بالإيجاب، فقد حُددت تلك الأعداد وفق العلاقات المجردة الطبيعية في العدد 114 عدد سور القرآن الكريم.

لعلنا الآن نعمد إلى دراسة ظاهرة التكرار في أعداد آيات السور.. فتأمل معي:

بما أن عدد سور القرآن 114 سورة، وأن من بينها **13** سورة عدد الآيات في كل منها أكبر من العدد 114، فإن مجموعة الأعداد ال64 المستخدمة من بين أعداد السلسلة 1 – 114، قد استخدمت للدلالة على أعداد الآيات في 101 سورة (114 – 13 = 101) .

ولو افترضنا أن كل عدد من الأعداد الـ 64 يدل على عدد الآيات في سورة من سور القرآن، فهذا يعني أن هناك 37 سورة سيأتي عدد الآيات في كل منها أحد الأعداد الـ 64 المستخدمة (101 – 64 = 37)، بعبارة أخرى ستشترك بعض سور القرآن في العدد الواحد من الآيات . مثال ذلك، من بين سور القرآن ثلاث سور عدد الآيات في كل منها 3 ، و سورتان عدد الآيات في كل منها 4 ، وأربع سور عدد الآيات في كل منها 5.

وعدد هذه الأعداد التي تكرر استخدامها في القرآن أكثر من مرة من بين الأعداد الـ 64، هو **24** عددا، وقد استخدمت للدلالة على أعداد الآيات في **37** سورة .

ومما تثير ملاحظته مزيد التفكر في نظام الترتيب في القرآن، هذه المعادلة $(37-24=13)$، وهو عدد السور التي لم يتكرر عدد آياتها في السلسلة 1–114.

ثم إن عدد الأعداد التي تكرر استخدامها في النصف الأول من القرآن هو **7**، وعدد الأعداد المشتركة بين نصفي القرآن هو **5** (أي اشتركت في العدد الواحد من الآيات سور من النصف الأول وسور من النصف الثاني)، وعدد الأعداد التي تكرر استخدامها في النصف الثاني من القرآن هو **12**. و لك أن تنظر العلاقة التي تجمع الأعداد الثلاثة 5 و 7 و 12. ومن اللطائف أن ال7 و ال5 هما مراتب العدد 57 الذي يمثل عدد عناصر مجموعتي الأعداد الزوجية والفردية في السلسلة 1–114. أليس في هذا ما يدل على أن هذا النظام في ترتيب سور القرآن لم يكن يخضع لعقل بشري و أن لا دخل لأفكار البشر فيه..

لعلنا قد ذكرنا أن عدد أطول سور القرآن وهي التي جاءت أعداد آياتها من خارج السلسلة 1 – 114 (أي أكبر من العدد 114) هو 13 سورة (جدول رقم 11) . وما يعجب له كل واحد منا هو أن هذه السور قد وضعت في المصحف بطريقة ملفتة للنظر، وقد رتبت في مواقع محددة بحيث جاء مجموع أرقام ترتيبها **169**، الذي هو مربع العدد 13. وأعجب من ذلك أن أقصر هذه السور هي سورة المؤمنون، وعدد آياتها 118، وأطولها سورة البقرة وعدد آياتها 286. إذا قمنا بالعد ابتداء من العدد 118 وحتى العدد 286 ، نجد أن البعد هو **169** أيضا. وما هو أبدع مما أوردنا أن عدد مرات ورود لفظ الجلالة " الله " في سورة التوبة هو أيضا **169**.. فإذا تأملنا نظام تكرار لفظ الجلالة في هذه السور،

نلاحظ أن مجموع مرات ورود لفظ الجلالة في السور الأربع التالية لسورة التوبة هو 282 وهو كذلك عدد مرات ورود لفظ الجلالة في سورة البقرة [1]. ومجموع مرات ورود لفظ الجلالة في السور السبع السابقة لسورة التوبة هو 620 . اللافت للانتباه هنا أن الفرق بين عددي المرات هو 338 (620 – 282 = 338) عدد هو عبارة عن 2 × **169**.

سبحان ذي الجلال..

وأروع مما قلنا أن لفظ الجلالة " الله " قد ورد **13** مرة في كل من سورة " المؤمنون " وسورة " الشعراء ".

وأن مجموع عددي الآيات في السورتين هو 345 (227 + 118 = 345). جميل جدا .. لكن أيُّنا لا يعرف جمع عددين ؟ .. كلنا نعرف ذلك.. غير أنه لا يعرف سر ذلك إلا القليل.. تدبر معي..

يرتبط العدد 345 في القرآن بالعدد 114 عدد سور القرآن، ذلك أن مجموع الأرقام المتسلسلة من 1 – 114 والتي تدل على مواقع ترتيب سور القرآن هو 6555 . وهذا العدد هو عبارة عن 19 × 345 . ويسير جدا أن نلاحظ الإشارة إلى هذه الحقيقة العددية في الآية التي تذكر العدد **19** في القرآن وهي قوله تعالى : " عليها تسعة عشر " (30 المدثر)، فهو العدد الذي مراتبه أعداد الحروف في كلمات الآية.

عليها تسعة عشر

3 4 5

[1] ملاحظة : ورد لفظ الجلالة في سورة البقرة في 114 آية ، نستنتج أن عدد الآيات التي لم يرد في أي منها هو 172 = 86 × 2 . (تأمل : 86 × 2 ، وقارن بالعدد 286 عدد آيات سورة البقرة) .

قسمة الأعداد المستخدمة أعدادا للآيات بين نصفي القرآن الكريم:

كنا ذكرنا أن العدد **77** هو عدد الأعداد المستخدمة في القرآن أعدادا للآيات في سوره البالغة 114 سورة، **13** عددا كل منها أكبر من العدد 114 [1]. استخدمت للدلالة على أعداد الآيات في 13 سورة . و**64** عددا كل منها أقل من العدد 114، استخدمت للدلالة على أعداد الآيات في 101 سورة .

نستنتج أن من بين سور القرآن **37** سورة (101 – 64 = 37) جاء عدد الآيات في كل منها أحد الأعداد الـ 64 أيضا، وقد نتج عن ذلك اشتراك بعض سور القرآن في العدد الواحد من الآيات .

والسؤال الذي نود طرحه الآن، كيف قسمت هذه الأعداد بين نصفي القرآن ؟[2].

جميل أن نعلم أن نصفا القرآن قد اشتركا في خمسة أعداد، أي : اشتركت في كل منها سور من النصف الأول من القرآن وأخرى من النصف الثاني، هي (**7** ، **29** ، **18** ، **30** ، **52**) مما يعني أن توزيع الأعداد الـ 77 سيكون باعتبارين :

الاعتبار الأول : إحصاء الأعداد الخمسة المشتركة في النصف الأول .

الاعتبار الثاني : إحصاء الأعداد الخمسة المشتركة في النصف الثاني.

ولعل أول ما يلاحظ في الأعداد الخمسة المشتركة، أن من بينها عددان فرديان هما (7 و 29) ومجموعهما 36. وثلاثة أعداد زوجية هي (18 و 30 و 52) ومجموعها 100. أما الفرق بين مجموع أعداد المجموعين فهو **64**، الذي يمثل العدد الكلي للأعداد المستخدمة من بين سلسلة الأعداد 1– 114.

ثم إننا إذا أحصينا الأعداد الخمسة المشتركة من بين الأعداد المستخدمة في سور النصف الأول (وكُرّر استخدامها في النصف الثاني) يصبح عدد الأعداد المستخدمة في النصف الأول **49** عددا و هو مربع

---

[1] يعطينا صف العددين 13 و 64 العدد 1364 ، ويساوي : 44 × 31 . يمكننا كتابة هذه النتيجة بالصورة التالية : (4 × 11) × [(4 ×11) – (14 – 1)] . إشارات مكررة إلى العدد 114 .

[2] النصف الأول من القرآن : السور السبع والخمسون الأولى في ترتيب المصحف ، والنصف الثاني : السور السبع والخمسون الأخيرة ترتيبا .

العدد 7، وفي سور النصف الثاني **28** عددا و هو أربعة أضعاف هذا العدد (7). فلو أننا عدد الأعداد المشتركة الذي هو 5 ، كان 6 ، أو 4 مثلا، فلن توجد هذه التناسقات و التوازنات. لكأن هذه اللغة، لغة العدد تقول لنا أنه ما من موضع سورة أو آية أو كلمة أو حرف في القرآن إلا و له حكمة و قصد و يحمل سر الكتاب ذاته الذي توكل الله تعالى بحفظه.. فافهم ترشد..

قسمة الأعداد الـ 77 إلى 44 و 33 :

إذا أحصينا الأعداد المشتركة الخمسة (52 ، 30 ، 29 , 18 ، 7) من بين الأعداد المستخدمة في سور النصف الثاني من القرآن ، وكُرّر استخدامها في سور النصف الأول ، فسيكون عدد الأعداد المستخدمة أعدادا للآيات في سور النصف الأول من القرآن (السور من 1 – 57) هو: **44** عددا ، مؤلفة من : **13** عددا كل منها أكبر من العدد 114 (اللون الأحمر)، و **31** عددا كل منها أصغر من العدد 114. (لاحظ العددين 13 و معكوسه 31). وبذلك يكون عدد الأعداد المستخدمة في سور النصف الثاني من القرآن **33** عددا، (77 – 33) .

ولعلنا نذكر بعض خصائص العدد 31، الذي هو معكوس العدد 13، وهو عدد أولي، ومن بدائعه أن الأعداد 331 و 3331 و 33331 و 333331 و 3333331 و 33333331 كلها أعداد أولية وهي ستة أعداد تمثل أصغر مراتبها العدد 31.. بيد أننا إذا تجاوزنا فلن نحصل على عدد أولي فالعدد 333333331 مثلا ليس أوليا..

أما العدد 33 فأول ما نعرفه عنه أنه يحمل عدد فقرات الإنسان مجموع لها العصعص..

أما العدد 28، فليس غريبا عن لغة القرآن، فهو عدد حروفها، وهو عدد تام

$(1+2+4+7+14=28)$.

ثم ماذا ؟ ..

لقد تمت قسمة العدد 77 بين نصفي القرآن، إلى العددين 49 و 28 بالاعتبار الأول، وإلى العددين 44 و 33 بالاعتبار الثاني. لنتأمل إعجاز الترتيب القرآني في قسمة العدد 77، بطريقة صف الأعداد :

صف العددين 49 و 28 :

يعطينا صف العددين 49 و 28 العدد 4928. ربما لازلنا نذكر أن العدد **77** هو العدد الكلي للأعداد المستخدمة للدلالة على أعداد الآيات في سور القرآن كلها. أما العدد **64** فهو عدد الأعداد المستخدمة

من بين سلسلة الأعداد 1 – 114 . ونُلاحظ أن الفرق بين العددين هو **13** وهو عدد الأعداد المستخدمة الأكبر من العدد 114. الأمر العجاب الذي لم أكن أنتظره و لا تنتظره أنت هو هذه المعادلة :

$$4928 = 77 \times 64.$$

$$4928 = 11 \times 7 \times 64.$$

قف لحظة و أجبني أكنت تنتظر هذا ؟ .. و بعد أن تجيب نفسك، لن أدعك تسألني وسأعجل إليك أنا بسؤالي ماذا لو صففنا العددين بالطريقة المعكوسة، بأن نجعل العدد 49 هو الأول و 28 هو الثاني ؟

العدد الناتج عن ذلك سيكون بالطبع 2849.. لتسأل نفسك ماذا تنتظر كنتيجة ؟ ستفاجأ أيها الحبيب فالنتيجة هي هذه المعادلة:

$$2849 = 77 \times 37$$

$$2849 = 11 \times 7 \times 37$$

و التي تنقلنا مباشرة إلى هذه المعادلة: **114= 77 + 37**، وهو عدد سور القرآن الكريم.. أما العدد **37** فهو أيضا عدد سور القرآن التي استخدمت فيها الأعداد المكررة . وأما العدد **77** فهو عدد سور القرآن التي استخدمت فيها الأعداد للمرة الأولى.

ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. أيكون هذا من تدبير بشر.. سأترك لك فأجب نفسك بما تراه، أما أنا فلا أرى إلا بتدبير وتقدير إلهي حكيم.

صف العددين 44 و 33 :

صف العددين 44 و 33 يعطينا العدد 4433 والعدد 3344.

وسيكون لدينا هذه المعادلات :

$$4433 = 11 \times 13 \times 31 .$$

$$44 = 13 + 31.$$

$$3344 = 44 \times 4 \times 19 .$$

.19× 4 × 4 × 11= 3344

ما الذي جعل هذه الأعداد تشترك في قابلية القسمة على 11، ربما سنفهم الأمر أكثر، إذا نحن صففنا هذه الأعداد الأربعة، سوف نحصل على مجموعة من الأعداد كلها من مضاعفات العدد 11، كيفما صففتها (ذلك أن مجموعها هو 154 عدد من مضاعفات العدد 11).

. 11 × 4480403 = 49284433

. 11 × 2590403 = 28494433

. 11 × 2585903 = 28444933

. 11 × 4025903 = 44284933

. 11 × 4044803 = 44492833

. 11 × 4494803 = 49442833

. 11 × 4030259 = 44332849

. 11 × 3040259 = 33442849

. 11 × 3025859 = 33284449

. 11 × 2575859 = 28334449

. 11 × 4025759 = 44283349

. 11 × 2585759 = 28443349

. 11 × 3025904 = 33284944

. 11 × 2575904 = 28334944

. 11 × 4484804 = 49332844

. 11 × 3044804 = 33492844

. 11 × 2590304 = 28493344

. 11 × 4480304 = 49283344

. 11 × 4044848 = 44493328

. 11 × 4494848 = 49443328

. 11 × 3044948 = 33494428

. 11 × 4484948 = 49334428

. 11 × 4030448 = 44334928

. 11 × 3040448 = 33444928

ولعل ناظرا في جملة هذه المعادلات التي أوردنا من يتحفنا بالمزيد من لطائفها..

ربما عرفنا الآن أن عدد الأعداد المستخدمة في سور النصف الأول من القرآن هو 49 عددا (باعتبار الأعداد الخمسة المشتركة بينهما). وبما أن عدد سور النصف الأول من القرآن 57 سورة، فهذا يعني أن من بين سور النصف الأول 8 سور تتكرر أعداد الآيات فيها، (جدول رقم 14). فنحن نسأل : ما السر في هذه السور ؟

إننا نعني سؤالنا..

وأول ما نلاحظه، ويسيرٌ على الكل ملاحظة ذلك، أن مجموع أرقام ترتيب السور الـ 16 في نصفي القرآن هو : 217 + 348 = 565 .[1]

و هذا العدد 565 هو عدد ثنائي الاتجاه، بمعنى أنه يقرأ من اليمين إلى الشمال تماما كما يقرأ بمعكوس ذلك، و لمثل هذه الأعداد أهمية كبيرة في الرياضيات الحديثة حتى أننا نحاول إيجاد طرق و خوارزميات تكون نتيجتها أن نحصل على عد ثنائي الاتجاه، من ذلك خوارزمية الأعداد ثنائية الاتجاه، و التي كتب لها أن تتوقف مع العدد 196، و كنا أشرنا لذلك في ورقات تحمل عنوان: من أسرار العدد ثلاثة في القرآن[2]،

[1] توضيح : سبق أن قلنا أن عدد الأعداد المكررة في النصف الأول هو 7، فكيف تكون ثمانية أيضا ؟ نلاحظ أن العدد 29 هو من بين الأعداد الخمسة المشتركة بين نصفي القرآن، وبذلك يكون عدد الأعداد المكررة هو 7 إذا أحصينا العدد 29 في النصف الثاني. و 8 أعداد إذا أحصيناه مع الأعداد في النصف الأول من القرآن.

[2] مقال شارك به الطالب في المؤتمر الدولي للإعجاز العددي الذي أقامته الهيئة المغربية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، الرباط–المغرب، 2007م.

وهذه الخوارزمية التي توقفت عند هذا العدد الذي يمثل سرا كبيرا في عالم الأعداد ما زالت بانتظار حل لها، عجز الرياضيون عنه حتى الآن،(565 = 113 × 5)، و السؤال الآن هو لماذا هذا العدد 565 ؟ و ما السر فيه ؟

لقد ذكرنا آنفا أن عدد الأعداد المستخدمة للدلالة على أعداد الآيات في سور القرآن كلها هو 77 عددا. و اعتبارا لقانون الزوجية في العدد، فأن عدد الأعداد الفردية المستخدمة أعدادا للآيات في سور القرآن كلها هو 37 عددا، و مجموعها 2323 ، و عدد الأعداد الزوجية 40 عددا، و مجموعها 2888. إننا نجمع و لعل أحدا يسألنا.. ما ارتباط ذلك بالعدد 565، و الجواب سيكون عجيبا.. فالفرق بين المجموعين هو **565** (2888 – 2323 = 565). و لعلك لن تعجب.. و سأقول لك حينئذ هون عليك، فلعلك ترى في ما سنقول لك الآن عجبا.. فعدد سور النصف الأول من القرآن 57، و مجموع أرقام ترتيبها 1653، ومجموع آياتها 5104.. و ماذا بعد ؟

يمكننا أن نصنف سور النصف الأول من القرآن إلى مجموعتين :

16 سورة، مجموع تراتيبها 565 ، ومجموع آياتها 1080، و 41 سورة مجموع تراتيبها 1088 ، ومجموع آياتها 4024 .

من العجيب في العلاقات الرياضية بين هذه الأعداد أن صف العددين 4024 و 1088 الذي هو : 40241088 ، هو من مضاعفات العددين 64 و 114 .

40241088 = 352992 × **114** .

40241088 = 628767 × **64** .

و معلوم أن العدد 114 هو عدد سور القرآن، و أن العدد 64 هو عدد الأعداد المستخدمة أعدادا للآيات في السلسلة الأعداد 1–114 . ومن العلاقات العجيبة، أيضا، أن الفرق بين مجموعي الآيات 4024 و 1080 ، هو 2944 ، هذا العدد هو أيضا من مضاعفات العدد 64 .

2944 = 64 × 46 .

(ونلاحظ في هذه العلاقة أن العدد 46 هو معكوس العدد 64) .

ثم ماذا ؟ ..

عدد الأعداد المكررة، كما سبق أن ذكرنا، هو **8**، و مما تثير ملاحظته أن الأعداد الثلاثة : 1080 و1088 و4024، كلها من مضاعفات هذا العدد 8.

1080 = 135 × **8** .

1088 = 136 × **8** .

4024 = 503 × **8** .

و أجمل أن العدد **64** هو مربع هذا العدد **8** .

ولعلك مازلت في شك مما نقول.. غير أن الصدق الذي في قلبك سيجعلك تسأل نفسك أليس غريبا أن يجمع ترتيب القرآن كل هذه العجائب ؟ .. و لعلك تسأل ألم يكونوا ينتقون هذه العلاقات من عند أنفسهم.. لكنك تتراجع و تقول.. حتى و إن فعلوا.. أليس ما بين أيدينا كافيا لمشاهدة روعة الترتيب.. وأنه لا يصح لترتيب مثل هذا استخدم أعدادا بعينها وأنظمة بعينها، على النحو الذي رأينا.. أن يكون من فعل بشر..

ولعلنا سنبحر ثانية بمصاحبتك مع روائع هذا الترتيب.. **فالفرق بين** مجموع أعداد الآيات في السور ال16 (1080) ومجموع أرقام ترتيب السور 41 هو (1088) هو **8**. كما أن هذه المجموعة من السور تبدأ بسورة الأنفال ، السورة التي تحمل رقم الترتيب **8** ، وتنتهي بسورة الفتح ، السورة رقم 48 وهو ستة أضعاف العدد **8**.

ثم إن مجموعة الأعداد الـ 77 تتألف من مجموعتين من الأعداد. الأولى : **64** عددا من داخل سلسلة الأعداد 1-114 ، وتتألف من مجموعتين32 عددا فرديا + 32 عددا زوجيا. والثانية : **13** عددا من خارج السلسلة 1- 114 (أكبر) وتتألف من مجموعتين : 5 أعداد فردية + 8 أعداد زوجية. وبذلك يصبح عدد الأعداد الفردية المستخدمة أعدادا للآيات في سور القرآن كلها **37** عددا ، مجموعها **2323**، وعدد الأعداد الزوجية **40** عددا ، مجموعها **2888** .

أول ما نلاحظ أن عدد الأعداد التي تكرر استخدامها 24 عددا، **9** أعداد من بين الأعداد الـ 32 الفردية من السلسلة (1 – 114) وقد استخدمت في 17 سورة ، مجموع آياتها 399، و **15** عددا من بين الأعداد الـ 32 الزوجية ، وقد استخدمت في 20 سورة ، مجموع آياتها 626، و هو عدد ثنائي الاتجاه أيضا..وقد نتج عن هذا التوزيع للأعداد أن يكون عدد سور القرآن فردية الآيات 54 سورة ، وعدد السور زوجية الآيات 60 سورة.

ونلاحظ هنا أن عدد الأعداد الفردية 37 عددا ، وقد استخدمت في 37 سورة (من غير تكرار) مجموع أعداد آياتها 2323 . و نحصل على المعادلة التالية :

$2323 = 23 \times 101$.

أما عدد الأعداد الزوجية ف40 عددا، وقد استخدمت في 40 سورة (من غير تكرار)، و مجموع أعداد آياتها 2888. و نحصل على هذه المعادلة :

$2888 = 8 \times 19 \times 19$. [1]

وعدد الأعداد الأولية من بين الأعداد الـ 77 هو 18 عددا ، مجموعها 908 ، عدد من مضاعفات الرقم 227 ($4 \times \mathbf{227}$) . وهذا يعني أن عدد الأعداد الصحيحة المستخدمة أعدادا للآيات هو 59، و العدد 227 هو العدد الأولي الأكبر المستخدم في القرآن عددا لآيات سورة " الشعراء "، ومن الملاحظ هنا أن الفرق بين العددين 399 (مجموع أعداد الآيات في السور التي استخدمت فيها الأعداد الفردية المكررة) و 626 (مجموع أعداد الآيات في السور التي استخدمت فيها الأعداد الزوجية المكررة)، هو أيضا **227** [2]. فافهم ترشد.. و إليك هذه الآية فتفكر..

قال الله تعالى : لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ..

نظام الحالات الأربعة لسور القرآن الكريم:

علمنا أنه لا اختلاف في أن القرآن يتألف من 114 سورة ، أوله سورة الفاتحة المؤلفة من 7 آيات ، وآخره سورة الناس المؤلفة من 6 آيات.

ولا اختلاف في أن الأعداد الطبيعية منها ما هو زوجي وما هو فردي. والتالي، فإن سور القرآن الكريم باعتبار أعداد آياتها، إما أن تكون زوجية الآيات وإما أن تكون فردية الآيات. وباعتبار الأرقام الدالة على مواقع ترتيبها كذلك، فهي إما زوجية الترتيب وإما فردية الترتيب.

---

[1] إذا قمنا بإحصاء أعداد كلمات آيات القرآن كلها، سنجد أن مجموع عدد الأعداد الفردية المستخدمة أعدادا للكلمات في آيات القرآن هو 1444 وكذلك مجموع الأعداد الزوجية، أي أن مجموع الأعداد المستخدمة أعدادا لكلمات الآيات هو 2888 أيضا.

[2] انظر موضوع قانون الحالات الأربع لسور القرآن : معجزة الترتيب القرآني، الأستاذ عبد الله جلغوم –جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ص19.

ومثاله:

1- سورة الفاتحة :

عدد آياتها : 7 عدد فردي ، ورقم ترتيبها :1 عدد فردي. فهي سورة فردية الآيات فردية الترتيب.

2 - سورة البقرة :

عدد آياتها : 286 عدد زوجي ، ورقم ترتيبها : 2 عدد زوجي. فهي سورة زوجية الآيات زوجية الترتيب.

3- سورة المائدة :

عدد آياتها : 120 عدد زوجي ، ورقم ترتيبها: 3 عدد فردي. فهي سورة زوجية الآيات فردية الترتيب.

4- سورة الأنعام :

عدد آياتها : 165 عدد فردي ، ورقم ترتيبها:6 عدد زوجي. فهي سورة فردية الآيات زوجية الترتيب.

ولا تخرج سورة عن حالة من هذه الحالات الأربعة.

وليس بدعا أن نسأل عن عدد سور القرآن زوجية الآيات، والمواقع التي رتبت فيها على امتداد المصحف ؟

وما عدد السور فردية الآيات ؟ ما المواقع التي رتبت فيها ؟

هل هناك علاقة بين ترتيب هذه السور وأعداد آياتها ؟

أجرينا هذه الدراسة اعتمادا على مصحف المدينة المنورة برواية حفص عن عاصم، واعتمادا للعدد الكوفي في ترقيم الآيات. وتحصلنا على النتائج التالية:

سور القرآن فردية الآيات:

أظهرت الإحصاءات أن عدد سور القرآن فردية الآيات 54 سورة. وحينما تأملنا الأرقام الدالة على ترتيب هذه السور في المصحف اكتشفنا النظام التالي :

إن من بين هذه السور 27 سورة (النصف) فردية الترتيب، وأما السور ال 27 الباقية (النصف) فهي زوجية الترتيب.

وقد يرد البعض الأمر في مجيء نصفها 27 سورة فردية الترتيب ونصفها الثاني27 سورة زوجية الترتيب على هذا النحو من التناسق والتوازن، إلى المصادفة. ولهم ذلك. لكن لنتابع:

سور القرآن زوجية الآيات:

أظهرت الإحصاءات أن سور القرآن الباقية وعددها 60 سورة جاء كل منها من عدد زوجي من الآيات.

فإذا توقفنا عند الأرقام الدالة على مواقع ترتيبها على امتداد المصحف، فإننا سنقف على ظاهرة مماثلة للظاهرة التي شاهدناها في السور فردية الآيات.. فهي تأكيد لها ودليل عليها، وابتعاد بها عن شبهة المصادفة والعشوائية .

إن من بين السور الستين زوجية الآيات 30سورة (النصف) زوجية الترتيب، أما السور الباقية وعددها 30 سورة فهي فردية الترتيب.

ولعلنا نسأل هنا: من رتب السور فردية الآيات والسور زوجية الآيات على امتداد المصحف بحيث جاءت متناظرة من حيث الترتيب ؟ هل يمكن رد هذا النمط من التوزيع إلى المصادفة؟ أليس من الواضح أن زيادة أو نقصان آية في أي سورة كان كافيا لإخفاء هذا التوازن والتناسق أيضا ؟

وهل أحصى الصحابة رضي الله عنهم، أعداد الآيات في سور القرآن سورة سورة، ثم رتبوها على هذا النحو مراعين هذه العلاقة ؟

ألا تتطلب هذه المهمة الكبيرة: جمع القرآن وترتيبه، الاجتماع والتشاور بين الصحابة ؟ بل سلسلة من الاجتماعات . فلماذا لم يصلنا من ذلك شيء.

وإذ لا يمكن أن نفسر أن هذه الحقائق جاءت بفعل مصادفة عمياء. فمن يكون إذن صاحب هذا الترتيب؟ ومن حدد أعداد الآيات في هذه السور بهذه الصورة والتي أدت إلى هذا النمط من الترتيب ؟

الإحصاء القرآني:

لقد طرحنا في بداية هذا المبحث السؤال عن عدد سور القرآن فردية الآيات وعدد السور زوجية الآيات، وبعد عملية الإحصاء اللازمة اكتشفنا عددهما . فهل نحن أول من أحصى عدد هذه السور ؟
إذا تأملنا خصائص العدد 114، سنكتشف أننا لسنا أول من أحصى حالات سور القرآن ، لقد سبقنا القرآن إلى ذلك .. وأودعه لنا في معادلتين على نحو يمكننا اكتشافه بالتدبر .
(المعادلتان هما : $19 \times 6 = 114$ ، $19 \times 3 = 57$)
وأساسهما العدد 114 عدد سور القرآن الكريم . (يتألف العدد 114 من 57 عددا زوجيا + 57 عددا فرديا وهذا هو أساس المعادلة الثانية) .

لنتأمل كيف خزن القرآن إحصاءه لحالات سور القرآن :

المعادلة الأولى : 19 × 6 = 114 .

19 = 9 + 10 (9 أكبر الأرقام : عدد فردي+ 10 أصغر الأعداد : عدد زوجي) [1]

إن حاصل ضرب العدد 9 (العدد الفردي) في 6 = 54 وهذا هو عدد السور فردية الآيات .

إن حاصل ضرب العدد 10 (العدد الزوجي) في 6 = 60 وهذا هو عدد السور زوجية الآيات .انتهى الإحصاء .

لماذا لم تتدخل المصادفة هنا فتزيد آية في أي سورة أو تنقص آية لتخل بهذا الإحكام والتوازن ؟ إن زيادة أو نقصان آية في إحدى السور زوجية الآيات سيجعل منها سورة فردية الآيات وهذا يكفي لاختفاء هذا الترتيب المحكم المتوازن . فلماذا لم يحدث ذلك ؟

أليس من الواضح أن أعداد الآيات في سور القرآن محددة ومحسوبة على نحو يترتب عليه أن تأتي منسجمة تماما مع القانون الذي تمثله معادلة الترتيب 19×6 والتي هي صورة العدد 114 عدد سور القرآن ؟ وأن هناك من أودع سر العددين 60 و 54 عددي السور زوجية الآيات والسور فردية الآيات في المعادلة 19 × 6 ، ليكون ذلك حين اكتشافه بعد زمن ما من نزول القرآن دليلا على صحة أعداد الآيات في تلك السور وأنها لم تأت هكذا مصادفة أو دون حساب ؟

كيف نفسر مجيء أعداد الآيات على هذا النحو المحكم مع ما نعلمه من نزول القرآن مفرقا حسب الحاجات والوقائع خلال ثلاث وعشرين سنة ، وترتيبه على نحو مختلف تماما عن ترتيب النزول ؟

وهذا هو القرآن بين أيدينا وبإمكان أي كان أن يتأكد من صحة الإحصاء الذي ادخره القرآن لنا.

المعادلة الثانية هي : (19 × 3 = 57).

(يتألف العدد 114 من : 57 عددا زوجيا + 57 عددا فرديا ، وهذا هو أساس المعادلة الثانية : 57 = 19 × 3).

والآن لنتأمل الإحصاء التفصيلي المخزن في المعادلة الثانية:

[1] الرقم 6 : هو أول عدد تام: حيث أن عوامله 1 ، 2 ، 3 : يساوي مجموعها مضروبها .

إن حاصل ضرب العدد 9 (العدد الفردي) في 3 = 27 وهذا هو عدد السور فردية الآيات فردية الترتيب ،وهو كذلك عدد السور فردية الآيات زوجية الترتيب .

إن حاصل ضرب العدد 10 (العدد الزوجي) في 3 = 30 . وهذا العدد هو عدد السور زوجية الآيات زوجية الترتيب ، وهو كذلك عدد السور زوجية الآيات فردية الترتيب .

هل جاءت أعداد الآيات في سور القرآن على هذا النحو مصادفة أيضا ؟ هل قامت بترتيب نفسها بنفسها؟ وما معنى أن تصلنا سور القرآن بهذه الأعداد من الآيات ؟ وفق نظام رياضي واضح لا مجال للتشكيك فيه ؟[1].

إن زيادة آية أو إنقاص آية في سورة زوجية الآيات سيجعلها فردية الآيات ،كما أن زيادة أو إنقاص آية في سورة فردية الآيات سيجعلها زوجية الآيات ، وفي الحالين سيختل هذا البناء المحكم.

والسؤال هنا : ما معنى أن يصلنا القرآن بهذا الترتيب وبهذه الأعداد، إلا أن يكون محفوظا كما وعدنا الله ؟

مواقع ترتيب سور القرآن:

عرفنا أن عدد سور القرآن زوجية الآيات 60 سورة ، وعدد السور فردية الآيات 54 سورة ، وقد تم تخزين الإشارة إلى هذين العددين في معادلة الترتيب الأولى 19 × 6 .

ولعلنا نسأل ما المواقع التي رتبت فيها هذه السور على امتداد المصحف ؟

إن مجموع هذه الأرقام ال 114 (4+3+2+1..114) هو : 6555 .
العدد 6555 يساوي : 19 × 345 .[2]
ما السر في هذين العددين 19 و 345 ؟
إن حاصل ضرب العدد 9 (العدد الفردي) في 345 = 3105 : هذا العدد هو مجموع الأرقام الدالة على مواقع ترتيب السور فردية الآيات في القرآن كله وعددها- كما مر- 54 سورة .

وإن حاصل ضرب العدد 10 (العدد الزوجي) في 345 = 3450 .

هذا العدد هو مجموع الأرقام الدالة على ترتيب السور زوجية الآيات في القرآن وعددها 60 سورة.

---

[1] يقول بعض معارضي الإعجاز العددي : إن مثل هذه العلاقات يمكن وجودها في أي كتاب . والقصد من هذا الكلام نفي الإعجاز العددي في القرآن !

[2] يرتبط العدد 19 بالآية رقم 30 سورة المدثر وهي قوله تعالى " عليها تسعة عشر " .. نلاحظ هنا : إذا كتبنا تحت كل كلمة في الآية عدد حروفها أن العدد الناتج لدينا هو 345 .

أليس من الواضح أن مواقع ترتيب سور القرآن محددة أيضا وفق نظام رياضي أساسه العدد 114 وهو العدد الذي اختاره الله عددا لسور كتابه الكريم ؟ ما معنى أن يأتي مجموع الأرقام الدالة على مواقع السور فردية الآيات 3105 والذي هو حاصل ضرب 9 في 345 ومجموع الأرقام الدالة على مواقع السور زوجية الآيات 3450 والذي هو حاصل ضرب 10 في 345. (لاحظ أن الفرق بين المجموعين هو : 345) ..

وهذا يعني، أن مواقع تلك السور محددة وفق العلاقة الموجودة في العدد 114، واكتشافنا هذا – بعد خمسة عشر قرنا من نزول القرآن– يعني أنه لم يطرأ على مواقع تلك السور أي تغيير منذ أن نزل القرآن .

والسؤال هنا : من واضع هذا النظام ؟ أهناك غير الله سبحانه وتعالى ؟ إن تحديد مواقع سور القرآن قد تم وفق قانون ونظام محكم لا يمكن نسبته إلى الاجتهاد أو المصادفة ، فهو ترتيب إلهي محكم هادف ناطق بمصدر القرآن وإعجاز ترتيبه .

والسؤال الآخر: ألا يكشف لنا هذا الترتيب عن الهدف (الحكمة) من وراء توجيهات جبريل عليه السلام للرسول صلى الله عليه وسلم أن يضع هذه الآية هنا وتلك هناك وهذه السورة هنا وتلك هناك ؟

كانت الآيات أو السورة تنزل ، ويحدد جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم موقعها سلفا (أي قبل اكتمال نزول القرآن) في الترتيب النهائي للقرآن ، والذي سيتم نقله بالتدريج. أما ظهور هذا الترتيب ، فهو مرتبط باكتمال نزول القرآن ولن يظهر قبل ذلك . [1]

السور المتجانسة والسور غير المتجانسة:

ونصل هنا إلى اكتشاف رائعة من روائع ترتيب سور القرآن.

مجموعتان من سور القرآن تختزنان السر في عدد آيات القرآن وعدد سوره، متجانسة وغير متجانسة [1]. ونعني بالسورة المتجانسة ما كان رقم ترتيبها وعدد آياتها فرديين أو زوجيين، مثل سورة الفاتحة 7/1 وسورة البقرة 286/2.

[1] وجب التنبيه هنا إلى عدم الخلط بين السور زوجية الآيات والسور زوجية الترتيب، فعدد السور زوجية الترتيب هو 57 سورة ومجموع أرقامها : 3306. بينما عدد السور زوجية الآيات 60 سورة مجموع أرقام ترتيبها 3450 . ومجموع الأرقام الدالة على مواقع السور فردية الآيات هو : 3105. وأنبه هنا أيضا إلى أن عدد السور فردية الترتيب 57 سورة ومجموع أرقامها هو 3249 ، بينما عدد السور فردية الآيات هو : 54 سورة .

وبهذا الاعتبار فإن عدد السور المتجانسة : 57 سورة مؤلفة من مجموعتين :

السور زوجية الآيات زوجية الترتيب وعددها : 30 سورة .

السور فردية الآيات فردية الترتيب وعددها : 27 سورة .

والعجيب هنا، هو أن مجموع أعداد الآيات في السور المتجانسة هو : 2933 آية . وأن مجموع الأرقام الدالة على ترتيبها هو : 3303. والأعجب أن مجموع العددين هو 6236 الذي هو عدد آيات القرآن الكريم.

نكتشف هنا العلاقة الواضحة التي لا ريب فيها بين مواقع ترتيب سور القرآن وأعداد آياتها على نحو تشمل سور القرآن كلها، ونفهم أن مواقع هذه السور وأعداد آياتها قد حددت وفق نظام رياضي بحيث يختزن في النهاية الإشارة إلى العدد 6236 عدد آيات القرآن الكريم ،والإيحاء بأن هذا العدد هو العدد الصحيح لآي القرآن الكريم.

ولعله من الواضح أن أي تغيير في مواقع هذه السور أو أعداد آياتها سيخل بهذا النظام المحكم . ولنتبين دقة هذا النظام :

وكمثال سنأخذ سورة البقرة، التي هي إحدى السور المتجانسة، فهي زوجية الآيات زوجية الترتيب. إن زيادة أو نقصان آية فيها سيجعلها سورة فردية الآيات زوجية الترتيب ، وسيؤدي هذا التدخل إلى أن يصبح عدد السور فردية الآيات 55 سورة بدل 54 ، والسور زوجية الآيات 59 سورة بدل 60 .

كما أن هذا التدخل سيخل بحالة التماثل في العدد 2690 – على النحو الذي سيأتي بعد – ولو قمنا مثلا بإجراء تغيير في موقع سورة البقرة وليكن مثلا مع سورة آل عمران وكلاهما زوجية الآيات ..

سيؤدي هذا التدخل إلى أن تصبح سورة البقرة زوجية الآيات فردية الترتيب (بدل زوجية الآيات زوجية الترتيب) وأن تصبح سورة آل عمران زوجية الآيات زوجية الترتيب (بدل زوجية الآيات فردية الترتيب) ..

في ظاهر الأمر قد يبدو أننا حافظنا على أن تظل مجموعة السور المتجانسة كما هي ، إلا أن هذا التدخل سيؤدي إلى أن يصبح مجموع أعداد الآيات في السور المتجانسة 2847 بدل 2933(بسبب الاختلاف

---

[1] لاحظ هنا أن العدد 114 يتألف من 57 عددا فرديا + 57 عددا زوجيا ، من الطبيعي في هذه الحالة أن يكون عدد السور فردية الترتيب 57 كما أن عدد السور زوجية الترتيب 57 ، فليس هنا موطن الإعجاز . موطن الإعجاز أن يأتي عدد السور المتجانسة 57 وعدد السور غير المتجانسة 57 ..(التماثل في العدد وليس في السور).

بين عددي الآيات في سورة البقرة 286 وعدد الآيات في سورة آل عمران 200) ولن يعود مجموع أعداد الآيات ومجموع أرقام ترتيب هذه السور يؤدي إلى الناتج : 6236 عدد آيات القرآن على النحو الذي أوضحناه .

كما سينتج عن هذا التدخل خلل آخر في السور غير المتجانسة .

والسؤال هنا : من حدد أعداد الآيات في هذه السور وعين لها مواقعها على امتداد المصحف بحيث يؤدي ذلك إلى هذه العلاقة بين أعداد الآيات في سور القرآن ومواقع ترتيبها والإشارة في النهاية إلى العدد 6236 عدد آيات القرآن الكريم ؟

أليس واضع هذا النظام يهدف إلى إخبارنا بأن كل ما في القرآن قد تم بحساب وتقدير ، وأنظمة تؤكد أنه غير قابل للزيادة أو النقصان ؟

ثم المجموعة الثانية، وهي مجموعة السور غير المتجانسة، والسورة غير المتجانسة هي ما كان رقم ترتيبها زوجيا وعدد آياتها فرديا أو العكس. ومثالها، سورة آل عمران 200/3 وسورة الأنفال 75/8

وبهذا الاعتبار فإن عدد السور غير المتجانسة 57 سورة. وهي مؤلفة من مجموعتين :

السور زوجية الآيات فردية الترتيب : 30 سورة .

السور فردية الآيات زوجية الترتيب : 27 سورة .

والعجيب هنا، أننا حينما نتأمل الجداول الإحصائية التي أعددناها للسور غير المتجانسة سنكتشف أن مجموع الأرقام الدالة على مواقع ترتيبها في المصحف هو : 3252. ومجموع أعداد آياتها هو : 3303.

أما مجموع هذين العددين هو : 6555 .. هذا العدد هو مجموع الأرقام المتسلسلة من 1 – 114، التي هي الأرقام الدالة على مواقع ترتيب سور القرآن.

بعبارة أوضح: فإن لغة الأرقام هنا تؤكد أن عدد سور القرآن 114 سورة لا زيادة ولا نقصان.

ونفهم منها أيضا أن مواقع هذه السور وأعداد آياتها قد حددت وفق نظام رياضي بحيث يختزن الدليل على أن عدد سور القرآن 114 سورة.

وقد كشف لنا نظام التجانس أن الفرق بين مجموع أرقام ترتيب سور القرآن وهي الأعداد المتسلسلة من 1 – 114 وعدد آيات القرآن هو : 319 .

6555 – 319 = 6236 .

ومعنى ذلك أن العدد 319 هو الرابط بين ترتيب سور القرآن وأعداد آياتها ، وفي ترتيب القرآن من الأدلة ما يكفي لإثبات هذا الرأي . (كما أن هذا العدد هو الرابط بين ترتيب سور القرآن وأعداد آياتها ومجموع الأرقام الدالة على مواقع ترتيب آيات القرآن كلها والذي هو : 333667 .. موضوع لا مجال له هنا) .. ما أود أن ألفت الانتباه إليه هنا ملاحظة العدد 319 في معادلة الترتيب الثانية : 57 = 19 × 3 ..

السور المتجانسة وغير المتجانسة بين نصفي القرآن:

وباعتبار العدد 114، فإنه يمكننا تقسيم القرآن على نصفين:

النصف الأول: السور السبع والخمسون الأولى في ترتيب المصحف وهي التي تحمل أرقام الترتيب من (1 – 57) ويتألف هذا العدد من 29 عددا فرديا + 28 عددا زوجيا . ذلك يعني أن عدد السور فردية الترتيب 29 وأن عدد السور زوجية الترتيب 28 . وباعتبار نظام التجانس يتألف هذا النصف من: 28 سورة متجانسة + 29 سورة غير متجانسة.

النصف الثاني من القرآن: السور السبع والخمسون الأخيرة في ترتيب المصحف وهي التي تحمل أرقام الترتيب من (58 – 114) . يتألف هذا العدد من 29 عددا زوجيا + 28 عددا فرديا . أي 29 سورة زوجية الترتيب + 28 سورة فردية الترتيب . وباعتبار نظام التجانس يتألف النصف الثاني من: 29 سورة متجانسة + 28 سورة غير متجانسة.

وندرك عظمة هذا الترتيب وإحكامه ، إذا عرفنا أن التماثل هنا هو في العدد وليس في السور ، فالسور ال 28 الأولى ليست الثانية وكذلك السور ال 29 .

فالسور ال 28 زوجية الترتيب في النصف الأول من القرآن : 28 سورة الرقم الدال على موقع ترتيب كل منها رقم زوجي .

والسور ال 28 المتجانسة : هي مجموعة من السور بعضها زوجية الترتيب وبعضها فردية الترتيب.

وارتباط هذا النظام بأنظمة أخرى عديدة تزيده قوة وإحكاما وتشكل معه سياجا منيعا من أنظمة الحماية التي أحاط الله بها كتابه الكريم .

ترتيب السور زوجية الآيات في نصفي القرآن:

عرفنا أن عدد سور القرآن زوجية الآيات 60 سورة وأنها مجموعتان :
30سورة زوجية الآيات زوجية الترتيب +30 سورة زوجية الآيات فردية الترتيب.

ولا يعدم أن يسأل سائل: كيف وزعت هذه المجموعة من السور الستين بين نصفي القرآن ؟

(النصف الأول من القرآن : السور من 1-57 ، والنصف الثاني : السور من 58 – 114)

وجوابا: فقد جاء ترتيب 27 سورة، في النصف الأول من القرآن، ومجموع أعداد آياتها هو : 2690 .

ورتبت 33 سورة في النصف الثاني من القرآن, والمفاجأة هنا : أننا نجد أن مجموع الأرقام الدالة على مواقع ترتيب هذه السور هو : 2690 أيضا.

والسؤال هنا: كيف نفسر حالة التماثل في المجموعين، مجموع أعداد الآيات في السور المرتبة في النصف الأول من القرآن يساوي مجموع الأرقام الدالة على مواقع ترتيب السور المرتبة في النصف الثاني ؟[1]

أليس في هذا التماثل برهان على أن تحديد أعداد الآيات في هذه السور وتحديد مواقع ترتيبها قد تم وفق نظام رياضي بديع ؟ نظام يربط بين أعداد الآيات في سور القرآن ومواقع ترتيبها.. بحساب بالغ الإتقان.

سر تجميع السور القصيرة في نهاية المصحف:

من الملاحظ في سور القرآن الكريم أن السور المرتبة في النصف الثاني من القرآن تمتاز بقصرها ، في حين أن السور المرتبة في النصف الأول تمتاز بطولها ، هذه الملاحظة كانت موضع تساؤل البعض ..

بعد هذا الاكتشاف فإن في وسعنا الآن أن نفسر السر في تجميع السور القصيرة في نهاية المصحف والطويلة في أوله وارتباط ذلك بنظام محدد بعيد عن المصادفة ،ذلك أن السورة المرتبة في النصف الأول من القرآن ستأخذ أحد الأرقام من 1 – 57 رقما دالا على ترتيبها (الأرقام الأصغر: 1-57). والسورة التي يتم ترتيبها في النصف الثاني من القرآن ستأخذ أحد الأرقام من 58– 114 للدلالة على موقع ترتيبها وهي (الأرقام الأكبر) ،ولتحقيق حالة التماثل في المجموع 2690 (الربط بين مواقع السور وأعداد آياتها) لا بد من ترتيب السور الطويلة في النصف الأول ، والسور القصيرة في النصف الثاني . هذه هي الحالة الوحيدة التي يمكن أن تحقق التماثل بين مجموع أعداد الآيات في مجموعة من السور ومجموع الأرقام الدالة على مواقع ترتيب مجموعة أخرى.

ولو افترضنا العكس، أي ترتيب السور القصيرة في النصف الأول والطويلة في النصف الثاني، فإنه من المستحيل أن يأتي مجموع الأرقام الدالة على السور المرتبة في النصف الأول مماثلا لمجموع أعداد الآيات في سور النصف الثاني، ذلك أن مجموع الأرقام في النصف الأول كلها هو 1653 (1 + 2 + 3 ...+ 57).

[1] ملاحظة :وردت كلمة الشمس في القرآن 33 مرة، وكلمة القمر 27 مرة، واجتمعت الكلمتان " الشمس والقمر : 19 مرة.

وفي هذا دليل آخر على أن ترتيب هذه السور يخضع لأنظمة وعلاقات وحساب وتدبير وتخطيط وأهداف، وأن مواقع هذه السور وأعداد آياتها محدد وفق نظام محكم لم يزعم أحد من البشر أنه صاحبه.

العدد 3303 ونظام التجانس :

مجموع أعداد الآيات في السور غير المتجانسة هو 3303 ، وهو كذلك مجموع الأرقام الدالة على ترتيب السور المتجانسة فهو أيضا 3303 . النظام نفسه المشاهد في توزيع السور زوجية الآيات بين نصفي القرآن.

وهنا ملاحظة في غاية الأهمية :

في الحالة الأولى جاء التماثل في العدد 2690 على النحو التالي :

مجموع أعداد الآيات في السور زوجية الآيات المرتبة في النصف الأول من القرآن : 2690 ، مماثل لمجموع الأرقام الدالة على مواقع ترتيب السور زوجية الآيات المرتبة في النصف الثاني من القرآن ، فهو أيضا : 2690.

قد يقول قائل هنا : نزيد في سورة زوجية الآيات آيتين ولنفترض في سورة البقرة (لتظل زوجية الآيات) وننقص من سورة زوجية الآيات آيتين ولنفترض في سورة آل عمران (لتظل زوجية الآيات) ونبقي على حالة التماثل رغم هذا التدخل .هنا تأتي حالة التماثل الثانية في العدد 3303 لتكشف هذا التدخل ..فمجموع الآيات في السور غير المتجانسة سيصبح 3301 بسبب النقص في عدد آيات سورة آل عمران، ومجموع الآيات في السور المتجانسة 2935 بدل 2933 بسبب الزيادة في عدد آيات سورة البقرة ..

نظام لا يترك مجالا لأي تدخل في مواقع أو أعداد الآيات في أي سورة من سور القرآن الكريم.

إن من السهل أن نستنتج هنا أن هناك علاقة قوية محكمة تربط بين مواقع ترتيب سور القرآن وأعداد آياتها. فكل سورة في القرآن جاءت في موقع مرسوم ومحدد ومن عدد من الآيات كذلك ، على النحو الذي هي عليه في المصحف.

ونظام التجانس أو قانون الحالات الأربع لسور القرآن دليل آخر، يُضَم إلى غيره من الأدلة، على أن القرآن من عند الله وليس من تأليف النبي صلى الله عليه كما يزعم الملحدون والمشككون بالقرآن .

ميزة هذا الدليل أنه بلغة هذا العصر لغة الأرقام والحساب، اللغة العالمية المشتركة بين الناس كافة، المسلم وغير المسلم العربي وغير العربي[1].

هذا الترتيب هو استمرار لتحدي القرآن لنا في هذا الزمان ووجه آخر من وجوه إعجازه ، وهذا لا يعني أنه بديل لما هو معروف من وجوه إعجاز القرآن الأخرى، وإنما هو إغناء لتلك الوجوه. ميزة هذا الوجه أنه بلغة الأرقام، بلغة الحقائق المادية الملموسة اللغة العالمية المشتركة بين الناس كافة، والتي لا تختلف حولها الآراء.

وهي كذلك لغة الأدلة التي لا يمكن إنكارها أو الزعم بجهل دلالاتها .. ثم إن ما قدمناه في هذا البحث ما هو إلا جانب من جوانب ترتيب القرآن ، وهناك جوانب أخرى تزيده قوة وتأكيدا .. وتزيدنا ثقة واطمئنانا.

المثال الرابع: الإعجاز في رسم القرآن

اخترنا في هذا الفصل أن نعرض لمسألة مهمة في باب الإعجاز في القرآن، وهي مسألة رسم القرآن، أو خط القرآن، أو هجاء المصحف.

[1] وبيان ذلك: أنه يستحيل أن يأتي ترتيب سور القرآن وآياته على هذا النحو الذي كشفنا عن جانب منه من الترابط الرياضي ، مع ما نعلمه من نزول القرآن مفرقا في 23 سنة حسب الوقائع والأحداث وحاجات الناس ، وترتيبه على نحو مختلف تماما ، إلا إذا كان قد أعد ورسم وخطط له سلفا وأخذ شكله النهائي قبل أن يبدأ بالظهور .
فلو افترضنا – مجاراة للمشككين بالقرآن – أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعد هذا الترتيب وخطط له وجهزه – متجاوزين أن علوم الرياضيات ليست من علوم زمانه – ولما تم له ذلك أعلن نفسه نبيا وصار مع كل حادثة أو مناسبة يتلو على الناس بعض آيات كتابه . ومع هذا الافتراض يجب أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم على علم كامل مطلق بالغيب وبكل ما سيحدث خلال السنوات ال 23 فترة النبوة من وقائع وأحداث محددة ، حتى يتمكن من تجهيز الآيات المناسبة لها على الأقل .. وهذا مرفوض ولم يقل أحد من المسلمين أو غير المسلمين ،أو يدعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم الغيب وأنه كان عالما في الرياضيات وعلومها. الافتراض الآخر : أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤلف الآيات ساعة حدوث الحادثة وحسب الحاجة (وهذا ما يقوله المشككون بالقرآن) واستمر يفعل ذلك طيلة 23 سنة حتى اجتمع لديه في النهاية هذا العدد من الآيات والسور والتي عرفت فيما بعد بالقرآن .. لو افترضنا ذلك فإن من المستحيل أن يأتي ترتيب هذه السور والآيات على النحو الذي هي عليه في المصحف الآن من الإحكام والترابط. فالتفسير الوحيد والصحيح : أن ترتيب سور القرآن وآياته توقيفي ، وهو دليل هذا العصر وبلغته على أن القرآن منزل من عند الله ، ممن له السلطان الكامل والعلم المطلق المحيط بالزمان وحوادثه.

مسألة رسم القرآن:

ومع أن المسألة قد نوقشت، وتبين اختلاف العلماء حولها. ومع أن الدلائل كلها تجانب من مذهبهم الرفض. إلا أننا نثير المسألة هاهنا لجمع أدلة تناثر ذكرها، وأدلة غفل القوم عنها، لعلها تكون زادا لمستبصر وسندا لمستنصر. والله نسأل أن يبصرنا بكتابه وينصرنا به ويجعلنا له نصرا.

ولعل الأوفق ونحن نطرق باب مسألة رسم القرآن أن نتكلم في بداية الوحي.

ولا يعدم أحد هنا أن يسأل.. لماذا طلب جبريل عليه السلام القراءة من النبي صلى الله عليه وسلم؟

وهل نقرأ إلا ما عرض علينا رسمه أو حفظناه فحفظ رسمه في قلوبنا ؟

وهل كان طلب جبريل من النبي قراءة من كتاب أم قراءة عن ظهر قلب ؟

وهل كان نفي النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه القراءة مما يكتب أم مما يحفظ أم من كليهما ؟

ولعلنا نسأل أيضا: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يحفظ من أشعار العرب وأمثلتها شيئا يقرأ ؟

أم أنه لم يكن يجيد من ذلك شيئا. واكتفى بين الناس بحسن خلقه وصدقه وأمانته التي لم تخف عن أحد ولم يخفها أحد ؟

لعل الرواية الأشهر في بداية نزول الوحي ما رواه البخاري ومسلم عن أمنا عائشة رضي الله عنها. حتى أنها بلغت من الشهرة حدا أغفل القوم عن بقية الروايات الصحيحة التي تحتوي من التفصيلات المهمة ما لم تحتويه رواية أمنا عائشة رضي الله عنها.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .:. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .:. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾[1]،[1].

[1] سورة العلق، السورة 96، الآيات 1-4.

وطبيعي جدا أن يسأل سائل، أنه لو لم يكن الملك جبريل عليه السلام عرض على النبي محمد صلى الله عليه وسلم شيئا مكتوبا، لكان جوابه: ماذا أقرأ ؟

وقد قدمت هذا السؤال، لكثير من علماء الشريعة، فلم أجد إلا مستنكرا لما أقول.. وزعم البعض أني قلت ما لم يقل به أحد من قبلي أبدا.

وبما أني لست عالما، لم أتوقف عن البحث رغم ما رأيت من الهضم والاستهزاء حين أقدم أسئلتي.

وقد كان البعض ممن أسأله يبادرني بالقول: ماذا تريد من وراء سؤالك ؟ كأنه يريد أن يعرف جوابي أنا عنها. ولو كنت أدري جوابا ما سألت.

وكان آخر من عرضت عليه هذا السؤال، شيخي سعيد أبي سعد الغامدي. وكنت أختاره لبعض أسئلتي لأنه لا ينهرني مهما سألته وإن كان ينكر بعضها في قرارة نفسه. فلما سألته، علم ما كنت أقصده، فقال لي لعل رواية عبيد بن عمير بن قتادة تسعف تصورك. فإذا فيها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يحدثهم عن بدء الوحي كيف كان: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .:. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .:. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ .:. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .:. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]. فقرأتها ثم انتهى، فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتابا[3].

---

[1] البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واللفظ له، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى غطني: عصرني وضمَّني يقال: غطَّه، وغتَّه، وضغطه، وعصره، وخنقه، وغمزه كلُّه بمعنًى واحدٍ. وفي مسند الطيالسي: فأخذني بحلقي. ولابن أبي شيبة: فغمني. ولابن إسحاق: فغتني. والكل بمعنى واحد. انظر: السيوطي: الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، 188/1، والنووي: المنهاج، 199/2.

[2] سورة العلق، السورة 96، الآيات 1-4.

[3] ابن هشام: السيرة النبوية 236/1، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، 300/2، وابن كثير: البداية والنهاية 18/3، وفي سيرة ابن إسحاق المطبوعة الرواية "عن عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان... عن بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله...". انظر: ابن إسحاق: السير والمغازي، 167/1، وقال الصوياني: إسناده صحيح: رواه ابن إسحاق: حدثنا وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عميرة بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله من النبوة.. وهذا الإسناد صحيح: ابن إسحاق لم يدلس، ووهب تابعي ثقة.. انظر: تخريج أحاديث السيرة (223/1)، وسيرة ابن كثير (402/1). انظر: الصوياني: السيرة النبوية 64/1، وقال البرزنجي في صحيح وضعيف تاريخ الطبري: إسناده ضعيف، ورواه بطوله ابن هشام في سيرته... قال ابن

فتبين من هذه الرواية أن جبريل عليه السلام قد جاء النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب.

ولا يعدم أحد أن ينتبه إلى أن النبي عرف القصد من أمر القراءة أنها قراءةُ معينٍ وليست أي قراءة وإلا لكان استحضر شيئا من أشعار العرب وأمثلتهم. فلما تعين قصد القراءة تبين أنه لا يحسنها، فقال في الروايتين ما ينفي قدرته على القراءة.

غير أنه قرأ بعدها، أي بعد نفيه قدرته على القراءة !

ولعل قائلا يقول: لعله قرأها لفظا فحفظها متبعا في ذلك جبريل عليه السلام، فلم يفقه من خطها شيئا. فإذا النبي صلى الله عليه وسلم يصف ذلك وصفا أدق، وهو أن ما قرأ من الآيات كأنما كتبت في قلبه كتابا. فيتعدى مستوى الحفظ فيه إلى الخط. ولعل هذا الوصف من وصف الله تعالى للتنزيل، حيث يقول سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .:. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ .:. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ .:. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[2].

فإن قيل: إن في حديث محاجة آدم لموسى، وخبر حكيم بن جابر كونه ما مست يد الله إلا ثلاثا، ما يفيد أن التوراة هي الكتاب الوحيد الذي كتبه الله تعالى بيده، ولو كان القرآن كذلك لورد بذلك نص.

قال آدم لموسى: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما[3].

إسحاق: وحدثني وهب بن كيسان... وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي. وهذا إسناد مرسل صحيح، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث... قلنا: والحديث حسن بمجموع طرقه. انظر: صحيح وضعيف تاريخ الطبري، 14/2.

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآيات 97.

[2] سورة النحل، السورة 16، الآيات 192-195.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، تحت رقم: 2652، ونصه: حدثنا إسحق بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن يزيد الأنصاري حدثنا أنس بن عياض حدثني الحارث بن أبي ذباب عن يزيد وهو ابن هرمز وعبد الرحمن الأعرج قالا سمعنا أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى.

وروي عن حكيم بن جابر أنه قال: أخبرت أن ربكم عز وجل لم يمس بيده إلا ثلاثة أشياء غرس الجنة بيده وخلق آدم بيده وكتب التوراة بيده[1].

بل إن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[2]. فدل على أن القرآن الكريم لم ينزل مكتوبا، و هذا أمر لا يخالف فيه أحد، بل القرآن نزل وحيا على قلب النبي صلى الله عليه سلم، كما هو قوله صلى الله عليه وسلم: ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر و إنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.

قلنا: أما حديث جابر فيعارضه ما حدث به أبو بكر بن إسحاق، إنباء من محمد بن ريح السماك، ثنا يزيد بن هارون، أنبأ سفيان بن سعيد، عن عبيد الكاتب المكتب، عن مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، وجنات عدن، وآدم، والقلم، واحتجب من الخلق بأربعة: بنار، وظلمة، ونور، وظلمة[3].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[4]، فهو ينفي نزوله مكتوبا للناس صحفا يلمسونها كما كان واقع ألواح موسى، ونزوله كذلك يجعله عرضة للتحريف عند نسخه كما حصل مع التوراة. ولا ينفي أبدا حصول نزولها إلى السماء الدنيا، أو حصول نزولها على النبي محمد صلى الله عليه وسلم. بل الدليل في قوله صلى الله عليه وسلم أنه قد حصل ذلك، وقد بيناه في ذكرنا بداية بدء الوحي. ووقوف النبي صلى الله عليه وسلم على كتابة ما ينزل عليه من الوحي دليل آخر.

---

[1] أخرجه البيهقي في الصفات ح26، وقال: ضعيف.

[2] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 7.

[3] إسناده صحيح رجاله رجال الشيخين وله حكم الرفع لأنه لا يقال إلا بتوقيف إذ ما فيه من الغيبيات التي لا تقال بالرأي والإجتهاد وليس ابن عمر ممن هو معروف بالأخذ عن أهل الكتاب.

قلت: ولعل اللمس في الحديث لا يؤخذ على المعنى الذي ذهب إليه القوم لما فيه من تجسيد لذات الله تعالى. ولعلنا نستذكر قول الناس في قول الرجل: إن امرأتي لا تمنع يد لامس. واختلافهم حول معنى اللمس منسوبا لبني آدم، فكيف لا يختلفون في ذات الفعل يُنسَب إلى ذات الله تعالى. فحمله البعض على الفجور بأنها لا تمنع نفسها عمن طلبها في الحرام وحمله البعض على التبذر بأنها لا تمنع ماله وتعطي من مال زوجها دون الرجوع إليه.

ولا غرو أن تفسير اللمس في حديث ابن جابر على النحو الذي وصفوه فيه تكييف لذات الله تعالى ممن يدعي عدم التكييف. والله تعالى أعلم.

[4] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 7.

وإنما ارتأينا حصول ذلك مع النبي عيانا ووحيا، فعيانا ما ذكرناه، ووحيا ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم كونه كما أنه كتب على قلبه كتابا.

ثم إن القرآن جاء مهيمنا على ما قبله من الكتب، فلا يجوز عقلا أن يزيد أحد تلك الكتب بمزية على القرآن. فإن قيل: هذه التوراة قد خطها الله بيده. فلابد أن يكون خط القرآن وحيا.

إنما الفرق أن من نسخ التوراة غيَّر وحرَّف، ومن نسخ القرآن كان أميا فلم يغيّر ولم يحرّف[1].

ولعلنا نسأل أن لماذا قال تعالى على ولم يقل إلى ولا قال في قلبك ؟

ولماذا قال تعالى قلبك ولم يقل قلبي ؟

ولماذا قال تعالى قلبك ولم يقل فؤادك ؟

وأتى بلفظ عَلَى، لأن القرآن مُسْتَعْلٍ على القلب، والقلب سامعٌ له مطيعٌ يتمثل ما أمر به ويجتنب ما نهى عنه، وكانت أبلغ من إلى، لأن إلى تدل على الانتهاء فقط، وعَلَى تدل على الاستعلاء، وما استعلى على الشيء يتضمن الانتهاء إليه.

ويلوح للدكتور عبد السلام المجيدي في رسالته: تلقي النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن الكريم[2]، ثلاثة أمور في حرف الجر عَلَى[3]:

---

[1] ومن معاني الأمية: امتناع القراءة والكتابة، دليله ما روي واشتهر أن الأمي الذي يقرأ ولا يكتب. ومن معانيها الحفظ وعدم التغيير وعدم التحريف، دليله قول الألوسي، رحمه الله، فى تفسيره لسورة الجمعة: الأمى نسبة الى أمه التى ولدته.. بمعنى أن حاله فى العلم كما ولدته أمه، قلت: ولو قال أن حاله في الفطرة كما ولدته أمه فلم يغير في تنزيل الله ولا بدل أحكامه ولا خضع لثقافات الناس لكان أصوب وأسلم وأقرب إلى الحق لأن هذه صفة النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه، ولا ريب في أن علم النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يجحده جاحد، يمدحه كل مادح. ومن معانيها الانتساب للعرب، ومنها ما كان مبنيا على تقسيم الناس إلى أمتين: أمة أمّية لم يؤتها الله كتاباً، ولم يرسل إليها رسولاً، وأمّة كتابية أتاها الرسول وجاءها الكتاب، كاليهود والنصارى، يعضده قول ابن عباس: الأميون العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب. وقيل إنما الأمي نسبة إلى أم القرى التي هي مكة. وقال بعضهم إنما هي من الإمامة، فإن أمة النبي صلى الله عليه وسلم لها إمامة الناس للحق في الدنيا بالإقامة على الدين والدعوة إليه ولهم الشهادة عليهم في الآخرة، ودليلهم قوله صلى الله عليه وسلم: لو كان موسى حياً ما حل له إلا أن يتبعني.

[2] وهي رسالة ماجستير حصل عليها الدكتور عبد السلام المجيدي، من جامعة القرآن الكريم في أمدرمان بالسودان، 1999م، وحصل على تقدير ممتاز. وتم طباعتها بعد ذلك في كتاب.

[3] تلقي النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام المجيدي، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم في أمدرمان بالسودان، 1999م، ص 94.

أولها: أن الاستعلاء مستغرق للملكية، مهيمن على المحل، فارض لسلطانه، واضح ثقله وسيطرته في مكانه، وكأنه أُريد بذلك أن القرآن عندما ينزله جبريل عليه السلام على قلبك قد تتام قبضهُ على القلب، وسيطرته عليه، فهو مهيمن على القلب في لفظه، لا يستطيع القلب أن يفلت منه مثقال ذرة، وفيه: الإشعار بأن ألفاظه مفروضة على القلب فرضاً، فلا مجال لزيغ حروفها عنه، ولا لتحريف هيئتها، مع حب قلب الرسول صلى الله عليه وسلم لها كما سيأتي، ولم تبق فيه ذرة تتأثر إلا به، ولا تحتفل إلا له، فهو خلي عن غيره، وفي هذا تمام الحفظ والفهم والاهتمام، ولذا قال الصاوي رحمه الله تعالى: عبَّر بعَلَى لتمكنه، وانصبابه، ورسوخه، فإن الشيء إذا صب من أعلى لأسفل رسخ وثبت.

وثانيها: أن على مؤكدة للإنزال من أعلى إلى أدنى: كما قال تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[1]. فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم مُوَجَه، والمُنْزَل إنما هو مُنْزَلٌ عليه من السماء إلى حيث هو، بخلاف قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2]. فإن الخطاب لصحابته، ثم لأمته، من بعد، والإنزال إنما يكون إليهم، إذ يتضمن حرف إلى معنى المجاورة، ويجعل فعله يتضمن معنى الإيصال، فليس ثم أعلى ولا أدنى، كأنهم قالوا: آمنا بالله وما أنزل على رسوله مما وصل إلينا...لأنه إنما وصل إليهم من محمد صلى الله عليه وسلم وهو بجوارهم لا فوقهم، ولكن لارتباطه بأنزل أفاد أمراً آخر، لاقتضاء الإنزال أعلى وأدنى، هو أن الوحي أُنزل على غير المخاطبين ثم وصل إليهم... فقد تضمن الفعل: أنزل، والحرف إلى ذلك ببلاغة بديعة، وإعجاز عظيمٍ ...ومن أسراره أنهم جعلوا، بهذا التعبير، ما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم هو ذاته ما وصل إليهم دون ريب...ومعلوم أن التضمين عند العلماء مُقَدَّمٌ على تبادل الحروف.

وثالثها: أنه قال على ولم يقل (في) لئلا يتوهم أن جبريل عليه السلام ألقى القرآن في قلب النبي صلى الله عليه وسلم دون سماع...

وقد اشتمل النزول على قلبه صلى الله عليه وسلم، أمورا نذكرها :

أولها التحفيظ والتفهيم والتثبت : كما قال الزمخشري رحمه الله تعالى : أي حَفَّظَكه، وفَهَّمَك إياه، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾[3]، وخص القلب، والمعنى عليك

---

[1] سورة آل عمران، السورة 3، الآية 84.

[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 136 .

[3] سورة الأعلى، السورة 87، الآية 6.

لأنه محل الوعي والتثبت، وليعلم أن المنزل على قلبه عليه السلام محفوظ لا يجوز عليه التبديل، ولا التغيير[1]، وحرف على مستعار للدلالة على التمكن مما سمي بقلب النبي صلى الله عليه وسلم مثل استعارته في قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2]، وقد تقدم التوضيح بأن إرادة القلب حقيقية وليست مجازية...وأن المراد الوصول إلى محل الوعي المباشر بعد تهيئته سابقاً لذلك .

الثاني: أنه كما اشتمل النزول على قلبه صلى الله عليه وسلم على اللفظ اشتمل على المعنى تصريحاً لا تلويحاً، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك، دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروفٍ لا تفهم معانيها ولا تعيها[3].

واستدل أبو حيان رحمه الله تعالى، على أنه كان صلى الله عليه وسلم يسمع من جبريل عليه السلام الأحرف بقوله عز وجل: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[4]، فقال: الظاهر تعلق كلمة بلسان بكلمة نزل، فكان يسمع من جبريل عليه السلام حروفاً عربية، قال ابن عطية رحمه الله تعالى : وهو القول الصحيح، وتكون صلصلة الجرس التي وردت في الأحاديث التي وصفت كيفية نزول الوحي، صفة لشدة الصوت، وتداخل حروفه، وعجلة مورده، وإغلاظه. وبذا تم حفظ الألفاظ من زواياه الكلية[5].

الثالث: التمكن من حفظ الألفاظ وجمعها، دون أن ينخرم منها شيء أصلاً أو أداء .

ولابن القيم في هذا الباب كلام عذب جميل لا تمل الأذن سماعه ولا القلب المعرفة به، أورده في كتابه التفسير القيم، يقول ابن القيم :

فكان في الإتيان بأداة 'على' ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة 'في' الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه[6]، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا

---

[1] البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، الطبعة 1420هـ، الجزء 8، ص430.

[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 5.

[3] تفسير النسفي-مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1998م، الجزء 2، ص 582.

[4] سورة الشعراء، السورة 26، الآية 195.

[5] تلقي النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام المجيدي، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم في أمدرمان بالسودان، 1999م، ص 97.

[6] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية، 1393 – 1973، الجزء1، ص16.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[4]. وتأمل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[5]. فإن طريق الحق تأخذ علوا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلا، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[6]، قول ثالث، وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد نظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[7]، كما يقال : طريقك علي، وممرك علي، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز. والسياق يأبى هذا، ولا يناسبه لمن تأمله. فإنه قاله مجيبا لإبليس الذي قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .:. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[8]، فإنه لا سبيل إلى إغوائهم، ولا طريق لي عليهم. فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير. وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم. فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراط علي. ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله. فلا يصل عدو الله إلى أهله.

الكاف في : على قلبك:

وأما سبب التعبير عن ذلك بالكاف في قوله : عَلَى قَلْبِكَ، دون الياء الدال على المتكلم فهو التأكيد المطرد على المصدرية الإلهية للقرآن الكريم، ففيه إيماء إلى الحفظ للفظ والمعنى، وصرح به في آية الحجر.

ومن الإشارة إلى هذه المصدرية قوله تعالى : فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ، فلم يقل فإنه نزله على قلبي مع أن محمداً صلى الله عليه وسلم أُمِرَ بإخبار اليهود عن نفسه، لأن من شأن العرب إذا أمرت رجلاً أن يحكي ما له عن نفسه أن تخرج فعل المأمور مرة مضافاً إلى كناية نفس المخبر عن نفسه إذا كان المخبر عن نفسه، ومرة مضافاً إلى اسمه كهيئة كناية اسم المخاطب، لأنه وإن كان مأموراً بقيل ذلك فهو مخاطبٌ مأمورٌ بحكاية ما

---

[1] سورة التوبة، الآية 45.
[2] سورة الأنعام، الآية 39.
[3] سورة المؤمنون، الآية 54.
[4] سورة فصلت، الآية 45.
[5] سورة سبأ، الآية 24.
[6] سورة الحجر، الآية 41.
[7] سورة الفجر، الآية 14.
[8] سورة ص، ألأيات 82 و83 .

قيل له[1]، كما قال الزمخشري موضحاً لذلك: جاءت على حكاية كلام الله عز وجل كما تكلم به كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي: من كان عدواً لجبريل عليه السلام. ولهذا حكمة عظيمة من حيث التأكيد على المصدرية الإلهية للقرآن، والدقة المتناهية في نقله من السماء إلى الأرض، فحكاية كلام الله سبحان وتعالى اقتضت، عَلَى قَلْبِكَ، بالخطاب...ولو قال (على قلبي) لقيل هذه دعوى، لم يبينها لنا ربك، ولم يقلها... ثم فيه تثبيتٌ لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم، وطمأنةٌ له من أن تزعزعه كثرة تشكيكات أهل الكتاب ومن والاهم، فكأن الخطاب من الله عز وجل للرسول صلى الله عليه وسلم قصداً له، لا لخصومه من أهل الكتاب...وهم مقصودون تبعاً لا استقلالاً، وذا يوائم قوله سبحانه وتعالى : ...كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ...[2]. وقوله تعالى : وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[3].

التنزيل على القلب لا على غيره:

أما التنزيل فكان تنزيلا على القلب، حتى لا يذهب في خلد أحد أن إلقاء جبريل عليه السلام ألفاظ القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم كان خطاب فمٍ لفم، بل تنزيل على قلب، فلا يكون ثم أي ضعفٍ للبشر، ولا نقصٍ يتسم به البشر، ولا لجلجةٍ تصحب إدراك البشر، إذ القراءة موجهة إلى مركز إدراك البشر مباشرة، حتى يزول أي خاطر من أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد يفقد حرفاً من هول الموقف، أو من تأثير الطبيعة، ولذا كان هذا التصوير الدقيق لنزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم.

فأما لماذا لم يقل على فؤادك مثلا، فلأن الفؤاد مركز الشعور، لذلك لما تحدث عن التثبيت قال تعالى : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [4]. وقال تعالى : ...لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا[5]. فقال هنا فؤادك ولم يقل قلبك، وتبين هذه المعاني في الآية التي جمعت القلب والفؤاد في والله أعلم.

وأما لماذا لم يقل على عقلك ؟ فلأن الأمر ليس متعلقا بما يجري العقل فيه بل هو متعلق بما يرجع للقلب من الحفظ، وليس العقل مركز للحفظ إنما هو للتفكر والنظر، والله تعالى أعلم.

---

[1] جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، الطبعة 3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1388هـ-1968م، الجزء1، ص436.

[2] تلقي النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام المجيدي، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم في أمدرمان بالسودان، 1999م، ص 153.

[3] سورة هود، الآية 120 .

[4] سورة هود، الآية 120 .

[5] سورة الفرقان، الآية 32 .

وقد قال بعض المفسرين أن القول على قلبك معناه على روحك، لأن الروح إحدى إطلاقات القلب كما قال الراغب، رحمه الله تعالى. وقال الآلوسي، رحمه الله تعالى: "وكون الإنزال عليه، لأنه المدرك، والمكلف دون الجسد، وقد يقال: لما كانت له صلى الله عليه وسلم جهتان: جهةٌ ملكيةٌ يستفيض بها، وجهة بشرية يفيض بها، جعل الإنزال على روحه صلى الله عليه وسلم لأنها المتصفة بالصفات الملكية التي يستفيض بها من الروح الأمين، وللإشارة إلى ذلك قيل : عَلَى قَلْبِكَ، دون عليك، وقيل: إن هذا لأن القرآن لم ينزل في المصحف كغيره من الكتب". وهذا الكلام فيه نظر، لأن الروح من عالم الأمر والقلب من عالم الخلق، والوحي اتصال بين عالم الأمر وعالم الخلق، فكيف يفهم الأمر بالصورة التي أوردها الآلوسي ؟ وكيف نقول إن الروح من اطلاقات القلب ولا نجد في القرآن ما ينص على ذلك ؟

يقول الأستاذ عبد السلام المجيدي[1]: وقد فتح الله، تعالى ذكره، أذهان البشرية في عصرها الحاضر على حقائق علمية ضخمة تقرب لنا سر نزول جبريل عليه السلام بألفاظ القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فإن جبريل عليه السلام تعدى أداة التوصيل السمعي لدى البشر وهي الأذن الخارجية إلى مركز السمع مباشرة، وأداة التوصيل البصري لدى البشر وهي العين الخارجية إلى مركز البصر مباشرة...ويزيد هذا تقريباً أن يقال: لما كان القلب يتلقى الصوت كما يرى الصورة في المنام...والجارحة المباشرة من عين وأذن نائمة مغطاة...ثم إذا استيقظ تذكر كله في اليقظة...وقد جاء التشريح الطبي مؤكداً حقيقة مراكز السمع والبصر، وأنها مراكز في المخ تعي ما يصل إليه عن طريق الجوارح كما تعي ما يصل إليها عن طريق الرؤى المنامية، وما قد كُشف يقرب لنا ما لم يكشف مما قد غاب عنا، وقد كانت أُولى مراحل الوحي التي هيأ بها النبي صلى الله عليه وسلم لتلقي الوحي المباشر هي الرؤى المنامية الصادقة، ثم رؤيته للملَك في منامه... وحالة الوحي في النوم مقربةٌ لحالة الوحي في اليقظة...مما قد يقرب لنا فهم كيفية الوحي وحدوثه، واستيعاب كيفية تلقي النبي صلى الله عليه وسلم للوحي بواسطة الاتصال بعالم الملائكة ...بطريقة يرى الصحابة آثارها في النبي صلى الله عليه وسلم من تصبب العرق في اليوم الشديد البرد، وترجيع اللسان، وثقل جسم النبي صلى الله عليه وسلم دون أن تشاهد أبصارهم صورة الملك، أو تسمع آذانهم صوته...لأن الاتصال كان في مستوى لا يدركونه، ولكنهم يسمعون قرآناً معجزاً لا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد .

ويقول أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط : خص القلب ولم يأت بعليك الأخصر، لأن القلب هو محل العقل، وتلقي الواردات، أو لأنه صحيفته التي يرقم فيها، وخزانته التي يحفظ فيها، أو لأنه سلطان الجسد، أو لأن القلب خيار الشيء وأشرفه، أو لأنه بيت الله، أو لأنه كنى به عن العقل إطلاقاً للمحل

[1] تلقي النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام المجيدي، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم في أمدرمان بالسودان، 1999م، ص 97.

على الحال به، أو عن الجملة الإنسانية؛ إذ قد ذكر الإنزال عليه في أماكن، ﴿طه .:. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[2]، أو يكون إطلاقاً لبعض الشيء على كله.

ويقول الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب: أكثر الأمة على انه أنزل عليه لا على قلبه إلا أنه خص القلب بالذكر لأجل أن الذي به ثبت في قلبه حفظا حتى أداه إلى أمته فلما كان سبب تمكنه من الأداء ثباته في قلبه حفظا جاز أن يقال نزله على قلبك وإن كان في الحقيقة نزله عليه لا على قلبه[3].

وكلام الفخر الرازي في هذا الباب فيه نظر لأن الكلام بجواز ذلك لا يقبل في هذا الموضع وليس هذا مكانه، إذ لا يصح أن نجري موضوع الجواز والإمتناع على كلام الله تعالى الذي هو من الدقة ما تعجز عنه الافهام أن تأتي بمثله. ولعلي أرجع بكم مع الرازي في موضع آخر من تفسيره حيث يقول: وأما قوله : على قلبك، ففيه قولان :

الأول، أنه إنما قال " على قلبك" وإن كان إنما أنزل عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول صلى الله عليه وسلم متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيير فيوثق بالإنذار الواقع منه الذي بين الله تعالى أنه هو المقصود، ولذلك قال تعالى : لتكون من المنذرين.

والثاني،أن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول :

أما القرآن فآيات :

إحداها قوله تعالى : فإنه نزله على قلبك،

وقال ههنا : نزل به الروح الأمين على قلبك، وقال : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

وثانيها أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب من المساعي فقال تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو...، وقال تعالى : لن ينال الله لحومها... والتقوى في القلب لأجل أن الله تعالى قال : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

---

[1] سورة طه، الآية 2 .

[2] سورة النساء، الآية 113 .

[3] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء2، ص233.

وثالثها قوله حكاية عن أهل النار : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا... ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه، وقال : إن السمع والبصر والفؤاد... ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالا عن القلب، وقال تعالى : يعلم خائنة الأعين ، ولم تخن الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها.

ورابعها قوله تعالى : وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون، فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة واستدعاء الشكر عليها. وقد قلنا لا طائل في السمع والإبصار إلا بما يؤديان إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والمتحكم عليه، وقال تعالى : ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا... فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجة، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر.

وخامسها، قوله تعالى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فجعل العذاب لازما على هذه الثلاثة، وقال تعالى : لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها... وجه الدلالة أنه قصد إلى نفي العلم عنهم رأسا، فلو ثبت العلم في غير القلب كثباته في القلب لم يتم الغرض، فهذه الآيات ومشاكلها ناطقة بأجمعها أن القلب هو المقصود بإلزام الحجة، وقد بينا أن ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لأنهما آلتان للقلب في تأدية صور المحسوسات والمسموعات.

وأما الحديث فما روي عن النعمان بن بشير، قال سمعته عليه السلام يقول : ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله.

أما المعقول فوجوه :

أحدها، أن القلب إذا غشي عليه فلو قطع سائر الأعضاء لم يحصل الشعور به وإذا أفاق القلب فإنه يشعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الأعضاء تبع للقلب ولذلك فإن القلب إذا فرح أو حزن فإنه يتغير حال الأعضاء عند ذلك، وكذا في سائر الأعراض النفسية.

وثانيها، أن القلب منبع المشاق الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء وإذا كانت المشاق مبادئ للافعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب.

وثالثها أن معدن العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب[1].

معنى: بإذن الله.

[1] مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004، الجزء1، ص12.

أما ما يتعلق بنزول جبريل عليه السلام فبين أنه كان بأمر الله قبل نزوله ملازما لإذنه سبحانه وتعالى أثناء نزوله محكوم له بالحفظ والكمال والحق لما نزل به.

فأما الأول: فدليله ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا جبريل ! ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1].

وأما الثاني: فدليله قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وأما الثالث: فدليله من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : الحفظ، ودليله قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3].

الجانب الثاني : الكمال، ودليله قوله تعالى: ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾[4].

الجانب الثالث : الحق، ودليله قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ...﴾[5]. إذ تجذرت صفة الحق في كل جوانب الوحي ومراحل إنزاله.

وفي حرف الباء في قوله تعالى : بإِذْنِ الله، وقوله تعالى : بِأَمْرِ رَبِّكَ، يظهر معنى المصاحبة والملابسة لأمر الله في نزوله، لا معنى التجاوز والاجتهاد، ثم أخذ الإذن، فهو أمر الله سبحانه وتعالى وإذنه الذي اختاره. فقد كان الإذن الإلهي أمراً وإذناً واقعَين قبل النزول، ملاصقَين للنزول، مُستصحبَين حتى تمام أداء الوظيفة التعليمية والتبليغية. والحق أنه لو أفردنا هذه الآية بالتدبر ما أجزأنا قلب واحد لتدبرها.

ويعضد ما ذهبنا إليه من كون التنزيل كان لفظا ورسما، أمور:

أولها: وصف القران بالكتاب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ .:. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾[1].

---

[1] سورة مريم، الآية 64.
[2] سورة البقرة، الآية 97.
[3] سورة الحجر، الآية 9.
[4] سورة المائدة، الآية 3.
[5] سورة الإسراء، الآية 105.

وقد وقفنا مع هذه الآية وفصلنا القول فيها، حسب علمنا، فيما سبق، فقلنا: أن قرآنه الأولى متعلقة بالجمع فيكون مردها إلى كلمة قرأ بمعنى جمع.

أما قرآنه الثانية فمتعلقة بالقراءة فيكون مردها إلى كلمة قرأ أي ألقى وتلفظ بالكلام.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾.

وهذه الآية لا تصور أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب، ولكنها تبين أميته كونه ما احتاج أن يتعلم غير القرآن ولا يقرؤه.

الرابع: أن القران نزل حرفا حرفا، فإن كان ذلك فلايجوز أن يرسم في القرآن حرف ليس من القرآن كما لا يجوز أن ينطق عند الماهر به حرف ولا ينقص، ودليل ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه : من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف [2]. وهذا التفصيل من ابن مسعود رضي الله عنه دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعلم الحرف من القرآن ويبينه لهم، فلم يجزأ ابن مسعود أن يذكر الحرف حتى يفسره ويؤيده بمثال.

الخامس: ما حدث به زهير بن حرب حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث عن شعيب بن الحبحاب عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ممسوح العين مكتوب بين عينيه كافر ثم تهجاها ك ف ر يقرؤه كل مسلم[3]. وفي رواية: يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير الكاتب[4]. إذ كيف يقبلون أن يقرأها غير الكاتب ولا يقبلون أن يقرأ القرآن ويعلم رسم خطه من أوحي إليه القرآن ؟

السادس: أن الأعمى يفقه الحرف رسما فكيف بنبي، وأن ذلك الأعمى تعلم من معلم فكيف بمن كان له جبريل معلما وقد ملأ قلبه نور النبوة. ولعلي أذكر في هذا الباب أن شيخا في القراءات كفيفا كان يعلم طلبته فيصف لهم كل حرف من حروف الرسم، ويقول هذا تكتبه بسن هنا وهذا له زائدة كذا وهنا نضع ألفا وهنا واوا إلخ... وهو كفيف لا يقرأ ولا يكتب. فكيف يقبل هذا من كفيف ولا يجوز من نبي.. سبحان الله.

السابع: استبيان لطائف الرسم في كتاب الله.

([1]) سورة القيامة، الآيات 17 و18.

[2] رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. تحفة الأحوذي - (8/ 182).

[3] صحيح مسلم كتاب الفتن برقم (2933).

[4] السلسلة الصحيحة برقم (2457) ، وصحيح الجامع برقم (7875).

ويحسن بنا قبل أن نقدم للطائف رسم القرآن، أن نذكر أن رسم الكلمة في القرآن لا يخضع لقاعدة بيّنة بنى عليها الكتبة رسم المصحف. فليس هو بالخط العروضي ولا هو بالخط الإملائي. فكثير هي الكلمات التي كتبت بصورتين: ككلمة الصاحب والشاهد، حيث كتبتا بألف وبدونه. وكثير هي الكلمات التي خالفت الرسم الإملائي فكتبت بألف المد عوض القصر ككلمة الأقصى. وكثير هي الكلمات التي خالفت الرسم العروضي، بل وخالفت لفظها، فزيد حرف في رسمها ولم يلفظ ككلمة بأييد، أو نقص حرف عن الملفوظ فلم يكتب، ككلمة نجي ونطقها ننجي[1].

وهذا التميز في رسم القرآن جعل كثيرا من الناس ينظرون إليه نظرة الشك ويرمون أصحابه بقلة الدراية بالخط، وهم الذين كتبوه على عين النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعارضهم في خطهم ويقيم سقطه.

ولعله نفس الشك الذي راود الكثير حول مخالفة القرآن لبعض قواعد اللغة التي قُعِّدت أصلا بعد نزوله واستنادا عليه.

ومع أن من كتبوا النحو قواعدَ، لم يكونوا في الأصل عربا، ولم تكن عربيتهم سليقة، إلا أن البعض يريد أن يحاكم القرآن بتلك القواعد التي كتبوها لنا[2].

ومن أعجب ما اطلعت عليه في باب رسم المصحف، ما بدأ به الفراء كتابه معاني القرآن. قال: تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه، قال: فأول ذلك اجتماع القراء وكتاب المصاحف على حذف الألف من بسم الله الرحمن الرحيم وإثباتهم الألف في: فسبح باسم ربك العظيم. ثم بدأ يتأول ذلك ويفسر. فقال: وإنما حذفوها في بسم الله الرحمن الرحيم لأنها وقعت في موضع معروف لا يجهل القارئ معناه.. ثم بدأ يخلط إمعانا في التأويل، قال : وقد رأيت بعض الكتاب تدعوه معرفته بهذا الموضع إلى أن يحذف الألف والسين من اسم.. ثم وفي ذروة بحثه عن تأويل ما لا يستطيع تأويله في القرآن من زيادة الألف في قوله تعالى:

---

[1] قال الشيخ محمد العاقب في منظومته :

والخطُّ فيه معجزٌ للناسِ *** وحائدٌ عن مقتضى القياسِ
لا تهتدي لسره الفحولُ *** ولا تحومُ حولَهُ العقولُ
قد خصهُ الله بتلك المنزلةْ *** دون جميع الكتب المنزَّلة
ليظهرالإعجازُ في المرسومِ *** منه كما في لفظه المنظومِ

[2] وإنما كان أمر من ادعى محاكمة لسان القرآن بقواعد اللغة لسيبويه والفراهيدي وغيرهم كمن خاصم في ابراهيم فأنزل الله فيه: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

لأاوضعوا. وحذف الياء من قوله تعالى : فما تغن النذر. لم يجد طريقا إلا الإنكار على من خط الكتاب فقال: وهو من سوء هجاء الأولين[1].

قلت : وهذه عادة أهل العقول حين تعجز عقولهم عن فهم شيء. ولو قال أنه من سوء فهم الفراء لكان أصوب له وأنجى لمن قرأ عنه.

ثم إني أعجب كل العجب أن يلحق مثل كلامه هذا بالتفسير. أو يلحق بإعراب القرآن ومعانيه والحال أنه ما قدم المعنى بل حكم برأيه فيما لا علم له به فأخطأ وخطَّأَ. أما من ينتصر لهواه فإنه يتخذ مثل هذا الكلام دليلا، ويخرج بالفراء من كونه نحويا ليرفعه إلى كونه مفسرا عالما بدقائق القرآن، وهو من أكبر الخلط الذي نجده في كتب الباحثين وأبحاثهم.

ثم إني لم أزل أنظر فيمن تكلم في الرسم بالإنكار قديما وحديثا حتى وجدتهم جميعا من جنس اللغويين والأدباء الذين لم يبرعوا في علم المنطق ولا عُلِم عنهم ولا منهم ذلك. ولا غرابة في أن تأتي أحكامهم بلا دليل سوى أنهم لا يعلمون. وقد التاط برأيهم قوم كثير.

ولعل منشأ ذلك، تصورهم لواقع جمع القرآن. فإنه قد اختلفت ألفاظ الروايات في الجمع وتداخلت عليهم. واستقر لهم الجمع بينها كما هي العادة مع الروايات إذا تخالف لفظها أو معناها. والأغلب أن عقولهم لم تسعفهم لذلك فمنهم من رد بعضها وقبل بعضها ومنهم من ردها جملة. وهي في كلها لا تعارض فيها إلا ما يفهم من سهو صاحبه أو عدم دقة لفظه، والاستناد إليها أفضل من قول الرأي الذي لا مستند له إلا الهوى أو العجز. والعاجز بين أمور أربعة : إما التسليم وإما التوقف وإما اتباع الهوى وإما الرأي. ومن قال برأيه أو بما لا يعلم في القرآن فليتبوأ مقعده من النار [2]. والكلام عن خط المصحف بالرأي لا يكاد ينفك

---

[1] والقصد بالأولين، صحابة النبي صلى الله عليه وسلم. وأسوأ من عبارة الفراء عبارة ابن خلدون فيهم، حيث قال في مقدمته: فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع. وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها.

[2] تفسير الطبري، لمحمد بن جرير الطبري، دار المعارف، الجزء الاول، ص 77.

ذكر الطبري في تفسيره جملة من الأحاديث في النهي عن تأويل القرآن والقول فيه بالرأي. والأحاديث وإن حملها الطبري وأغلب من شرحها على التأويل والتفسير إلا أن ألفاظها تنبئ أنه القول في القرآن بعامة، سواء تفسيره أو وصفه. قال الطبري : الأخبار في النهي عن تأويل القرآن بالرأي : حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعي، قال : حدثنا شريك، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. قلت : وهذا الحديث ذكره ابن الصلاح في الفتاوي وقال حديث حسن. قال الطبري : حدثنا محمد بن بشار، قال : حدثنا يحيى بن سعيد، قال : حدثنا سفيان، قال : حدثنا عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبير،

عن هذا الأمر كونه وجه للقول في القرآن بالرأي ومحض الهوى. فإنه إن كان الرسم من القرآن لا يعدم منكره أن ينكر شيئا من القرآن وهو الكافر فيكون مآله النار عياذا بالله. ومن قال أنه من القرآن فلا يعدم أمرين الأول أن يتدبره والثاني موافقته لرأي جمهور الأمة وعمل الصحابة بتحريم خطه بما خالفه من ألسنة. وفي كل خير.

أما ما يخص جمع القرآن، فسأكتفي ببعض الكلمات عن الجمع الأول زمن الصديق رضي الله عنه، ومنه يتجلى ما قد أخفته الآراء وغفلت عنه الأفهام، لمن رام البحث في الجمع الأخير زمن ذي النورين رضي الله عنه.

أما ما يخص هذا الجمع فإني ما رأيت تقص فيه يبلغ مبلغه. فإنه لما انعقدت فكرة جمع القرآن في بال الصديق كتب صحفا جمع فيها القرآن، ثم نادى عمر يستشيره في الجمع، فأنكر عمر ذلك منه على أنه إحداث أمر في الدين لم يفعله رسول الله فما يزال يتشاور معه حتى هدى الله عمر، ثم نادى زيدا وأخبره الخبر فأنكر ذلك فما يزالان عليه يجادلانه في المسألة حتى لان قلبه لذلك، فعرض الصديق ما كتب على زيد فظهر أن الأمر أعظم من أن يتفرد به واحد، وأن الواحد قد يخفى عليه الكثير مما أوحى الله إلى نبيه من القرآن، وفيه روى ابن شهاب عن سالم بن عبد الله وخارجة : أن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قراطيس، وكان قد سأل زيد بن ثابت النظر في ذلك فأبى [1]. فتبين أن الإشتراك فيه مع جماعة المسلمين أمر أدق وأكمل وأحفظ لما كانوا أخذوه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما وقف عليه الصديق فقام في الناس خطيبا يستشيرهم بعد أن استشار صاحبيه عمر وزيد فوافقه أهل المسجد الرأي. روى سليمان بن

عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار.... قال : حدثنا محمد بن المثنى، قال : حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي معمر، قال : قال أبو بكر الصديق : أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم.... قال : حدثنا به العباس بن عبد العظيم العبري، قال : حدثنا حبان بن هلال، قال : حدثنا سهيل أخو حزم، قال : حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ.

[1] كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢ م، الجزء الأول، ص ١٦٩.

يقول أبو داود : حدثنا عبد الله، قال: حدثنا أبو الطاهر، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني مالك، عن ابن شهاب، عن سالم وخارجة أن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قراطيس، وكان قد سأل زيد بن ثابت النظر في ذلك، فأبى حتى استعان عليه بعمر، ففعل، وكانت تلك الكتب عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر حتى توفي، ثم كانت عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليها عثمان فأبت أن تدفعها إليه، حتى عاهدها ليردنها إليها، فبعثت بها إليه، فنسخها عثمان في هذه المصاحف ثم ردها إليها، فلم تزل عندها حتى أرسل مروان فأخذها فحرقها. قلت : ففهم القوم أن فعل تعود على زيد بأن قبل ما جمع أبو بكر وخطه، ولا يعدم أن يسأل سائل إن كان فعله فما وجه تتبعه القرآن عند الناس وجلوسه عند باب المسجد، بل الفعل عائد على عمر بأن أقنعه بضرورة جمع القرآن على النحو الذي اتفق عليه عامة المسلمين وشارك فيه كل من له حظ من حفظ القرآن وخطه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

أرقم، عن الحسن وابن سيرين، وابن شهاب الزهري قالوا : أن عمر وزيدا مضيا إلى أبي بكر فأخبراه بذلك، فقال: لا تعجل حتى أشاور المسلمين، ثم قام خطيبا في الناس فأخبرهم بذلك، فقالوا : أصبت، فجمعوا القرآن، فأمر أبو بكر مناديا فنادى في الناس : من كان عنده شئ من القرآن فليجئ به [1]. وجعل مناديا ينادي في الناس أن من له قرآنا فليأت به وصحيفته وشاهديه، ثم انتدب عمر وزيدا فأمرهما أن يجلسا بباب المسجد يجمعان ما يأت به القوم وأن يقبلا ما قد لا يظهر لهم مما علمهم النبي فينكرانه بشرط الشاهدين. روى هشام بن عروة عن أبيه، قال : لما قتل أهل اليمامة أمر أبو بكر عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، فقال : اجلسا على باب المسجد، فلا يأتينكما أحد بشئ من القرآن تنكرانه يشهد عليه رجلان إلا اثبتماه [2]. وروى عبيد بن عمير، قال : كان عمر لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد رجلان. وأخرج ابن اشته، عن الليث بن سعد قال : أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشهادة عدلين. فلما اكتمل ذلك تبين أن يكون من حبسه العذر فلم يأت ولم يسمع فأمر زيدا بتتبع القرآن فتتبعه ولم يمض زمن إلا وقد جمع القرآن في الصحائف ثم تعهد بها أبو بكر رضي الله عنهم.

---

[1] السجستاني في كتابه المصاحف، الجزء الأول، ص 172. قال حدثنا عبد الله، قال: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمر بن طلحة الليثي، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال: أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن، فقام في الناس، فقال: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان فقتل وهو يجمع ذلك إليه فقام عثمان بن عفان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به وكان لا يقبل من ذلك شيئا حتى يشهد عليه شهيدان، فجاء خزيمة بن ثابت، فقال: إني قد رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما. قالوا: وما هما ؟ قال: تلقيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم إلى آخر السورة قال عثمان: فأنا أشهد أنهما من عند الله فأين ترى أن نجعلهما ؟ قال: اختم بها آخر ما نزل من القرآن فختمت بها براءة. قلت : وهذا يدل على أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد انتدب عمر رضي الله عنه لينادي في الناس بما أمر.

[2] كنز العمال، لعلاء الدين الهندي، مؤسسة الرسالة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الخامسة، 1985 م، الجزء الثاني، ص 572.

عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما قتل أهل اليمامة أمر أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت فقال : اجلسا على باب المسجد فلا يأتينكما أحد بشيء من القرآن تنكرانه يشهد عليه رجلان إلا أثبتماه، وذلك لأنه قتل باليمامة ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم قد جمعوا القرآن.

وبمثله حدث السجستاني في كتابه المصاحف، الجزء الأول، ص ١٦٨.

قال : حدثنا عبد الله، قال: حدثنا أبو الطاهر، قال: أخبرنا ابن وهب . وأخبرني ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر على القرآن أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب، ولزيد بن ثابت: اقعدوا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه. قال ابن حجر: رجاله ثقات مع انقطاعه.

ولم يكن أعظم في الإسلام من عمل الصديق رضي الله عنه، وهو قول علي فيما رواه ابن أبي شيبة : أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر ، إن أبا بكر أول من جمع ما بين اللوحين.

قلت : ولم أجد شيئا أعظم دقة في النقل من القرآن، حتى وصل إلينا كما هو بين الدفتين. والحمد لله أن قيض لهذه الأمة الصحابة رضي الله عنهم فجعلهم أداة لحفظه بحفظه إياه سبحانه وتعالى، وأشرك جمعهم في ذلك. وما عجبت أكثر مما أعجب للمتمنطقين وهم يقرؤون الروايات فيردونها دون النظر فيها. والواقع أن كل تلك الروايات تعطينا من تفاصيل الجمع ما تقصر الأذهان عن تخمينه والأهواء عن تصوره، وتدلل أن ليس بوسع أحد أن يفعل أكثر مما فعلوا. ولا أن يحفظ بغير ما فعلوا. فتعجب وأنت تنظر في الشروط في الجمع.. وتعجب وأنت تنظر في طرق الاستقصاء.. وتعجب وأنت تنظر في بناء الفكرة وتعميمها على المسلمين.. فتفهم قوة الشورى في القرون الأولى وقوة المنطق وقوة العلم وقوة الفراسة وقوة الذكاء وقوة النظام، وكل ذلك منشؤه ومنبعه صفاء الإيمان واكتماله في القلوب. وإني كلما تمعنت في جمع القرآن تبين لي صلاح تلك القرون. وصدق الأمين صلى الله عليه وسلم حين قال: خير القرون قرني ثم الذي يليه ثم الذي يليه.

وقد بيّنّا بناء الشورى في جمع القرآن وكيف قام على قوائمه الثلاثة :

فالأول : نشأة الفكرة عند أبي بكر وتبلورها في ذهنه وعرضها على ما يفقه من السنن في ضرورة حفظ الدين للأمة.

والثاني : تشاوره مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإستشارته وتشاوره مع زيد بن ثابت رضي الله عنه، والحكمة في اختيارهما دون الصحابة، فعمر مما وافقه الوحي وزيد أشهر من كتب الوحي وما اشتهر عنه من حضوره العرضة الأخيرة.

والثالث : عرض الصديق الأمر على عموم الصحابة وإجماعهم على ذلك.

ثم بينا طرق الاستقصاء، وهي أيضا قائمة على أمور ثلاثة :

الأول : منادي الصديق ليعلم الناس.

والثاني : جلوس ابن الخطاب وزيد بباب المسجد للجمع وتذكيرهم.

والثالث : تتبع زيد للقرآن.

ثم نأتي في شروط الجمع وتقوم على ثلاثة أمور :

فالأول : وجوب الحفظ عن النبي.

والثاني : وجوب الخط عند النبي.

والثالث : وجوب الشاهدين يشهدان على كل ذلك.

فتم وفقا لذلك أن الجمع لم يكن فيه تدخل من الصحابة في شيء من القرآن.. إنما كانوا مثالا لأمانة النقل التي تربوا عليها في مدرسة النبي صلى الله عليه وسلم.

فهم قد جمعوا القرآن من اللخاف والعظام والجلود.. فاجتمع لهم كلام الله بين أيديهم كما هو على عهد النبي صلى الله عليه وسلم.. كما اجتمعت الألواح عند اليهود وفيها التوراة. غير أن الأميين نقلوا ما بين أيديهم بأمانة وعهد وإيمان فما خالف نقلهم الأصل في شيء. وغير اليهود نسخ التوراة فأصبحوا لا برهان لهم ولا أثر صدق على قولهم.

فتبين أن رسم القرآن جزء منه، وأن الكتابة في القرآن كاللغة فيه، تقدم معنى زائدا أيضا.. وأن الله تعالى كما اختار الكلمة التي لا يمكن لقاموس أن يغيرها إلا بما هو أدنى منها معنى.. اختار كذلك عدد الحرف في كل كلمة من القرآن.. فالزيادة والنقص في حرف هو زيادة في المعنى.

ومردّ اختلاف رسم القرآن، حكمة يعلمها الله الذي أنزل القرآن.. وليس كما توهم البعض أن الأمر يرجع إلى خطإ الصحابة في كتابة المصحف. فكل تم بوحي الله ولا دخل ليد بشرية في وحي.

وصح بالتالي النظر في رسم القرآن وتدبره.

ولعلنا نتناول مثالا في كلمة اختلف رسمها في القرآن.. لنبيّن أن اختلاف الرسم محكوم باختلاف المعنى:

كلمة صاحب في القرآن:

كنا ذكرنا أن كلمة صاحب كتبت في القرآن بطريقتين:

لِصَٰحِبِهِۦٓ	صَٰحِبُهُۥ

ومن خلال استقراء الآيات التي تحوي هذه الكلمة، تبين أن كتابة الكلمة تختلف باختلاف المعنى المراد منها. فإنه متى وجد سبب للتفرقة كالكفر أو النوع وُضع الألف في رسمها دلالة على حد تلك الصحبة.

ومتى وجد سبب للجمع كالإيمان أو الدعوة إلى الله، كتبت الكلمة بدون ألف، دلالة على تمام الود والقرب[1].

ومثال ذلك، قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[2]. فإنه لما شملت الآية الجار الكافر، مع كون الكفر أداة للتفريق لا للجمع، كتبت بالألف علامة على ذلك.

---

[1] اكتفينا في هذا المبحث بإيراد مثال واحد، وهو كلمة الصاحب في القرآن، تجنبا للإطالة. وقد اعتمدنا مصحف المدينة المنورة، برواية الإمام حفص عن عاصم. ولو نظرنا في القرآن لتوقفنا عند كل كلمة.. ولك مثال كلمة بسم، فقد وردت في القرآن رسما بطريقتين: بسم، بدون ألف وباسم بالألف. ومرد ذلك، والله أعلم، أن الكلمة إذا اختلف رسمها ونسبت مرة إلى الله ومرة إلى من هو دونه. كان أن حذفت الألف منها متى نسبت إلى الله لتمام فعله وكماله، إلا أن يكون فيها معنى يحدد إطلاقها. فإذا نسبت إلى الإنسان رسمت بالألف لنقص فعله وحاجته. وبين أن ما كانت نسبته إلى الله رسم بدون ألف لتمام فعل الله وكماله وما نسب إلى من هو دونه رسم بالألف. فالأول، بسم الله الرحمن الرحيم، وهو فاتحة التنزيل والتنزيل من الله تعالى فهو في كماله وحفظه وتمامه لذلك لا ألف فيها، والثاني، بسم الله مجراها ومرساها، فالله تعالى هو مجريها ومرسيها لا تحتاج فالفعل تام كامل لأنه فعل الله لذلك كتبت بسم بدون ألف، والثالث، الرسالة من سليمان لكن الهدى الذي يدعو إليه هو هدى الله لا دخل لسليمان به لذلك لم تحتج بسم لألف النقص إنما حذفت لتمام الهدى الذي من الله وكماله.. وفي الرابعة سبح باسم ربك العظيم، فإن التسبيح المأمور به أمر به الإنسان والإنسان محتاج إلى توفيق الله في ذلك لذلك مهما عمل الإنسان فإن عمله ناقص وتسبيحه لله تعالى ناقص لذلك رسمت بالألف دلالة على عدم الكمال، وكذلك الأمر في القراءة باسم الله فإن الإنسان هو الذي يقرأ لكنه قد يغفل فالإنسان مهما فعل لم يتم عمله ولا بلغ بعلمه الكمال، لذلك رسمت الكلمة بالألف. وعلى هذا فقس. فإن قيل: ما توجيه رسم كلمتي يمحوا ويمح في قوله تعالى: يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب، وقوله تعالى: أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشا الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور. قلنا: أن البيّن أن الفعل في الأول ليس على اطلاق المحو.. لأنه قال يمحوا الله ما يشاء ويثبت.. فلو كان الفعل على إطلاق المحو ما جاز أن يثبت بعدها فلما كان الإثبات استفيد من الآية أن فعل المحو ليس على إطلاقه.. فالفعل كامل لأنه نسب إلى الله تعالى.. وهو ليس على إطلاقه.. فمن حيث كونه ليس على إطلاقه يعني توجب الزيادة في الرسم.. ومن حيث كونه منسوبا إلى الله توجب أن يميز عما ينسب إلى غير الله.. فانظر كيف رسمت يمحوا.. فالزيادة على غير العادة كانت بحرفين عن قوله ويمح الله الباطل.. فالزيادة على نحوين : الزيادة الأولى للدلالة على عدم إطلاق الفعل، ولا نقول بنقصه هنا تأدبا مع الله لأنه منسوب إليه، والزيادة الثانية لتمييزه عما نسب إلى غيره كما في قوله تعالى : بأييد.. التي كتبت بيائين.. أما الآية الثانية فتدل على أن الفعل على إطلاقه لأن فعل محو الباطل من قبل الله فعل مطلق فهو يمحو الباطل حتى لا يبقى من الباطل شيئا.. لذلك فلا حاجة لزيادة في حرف هنا.. والزيادة بالألف ليست هي الزيادة بالألف والواو ولا هي الزيادة بالواو. والله تعالى أعلم.

[2] سورة النساء، السورة 4، الآية 36.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]. فإنه لما تعلق الأمر بالنفي، وكان المراد النفي المطلق. نفى القريب.. ليفهم منه نفي الأبعد. وإنما قال صاحبة ولم يقل زوجة أو خليلة ليس فقط تنزيها. إنما إطلاقا للنفي. فإن الصاحب لما كان التعلق به حد التماهي وغيره يجوز مخالفته والخصام معه، كان نفي ما جاز مخالفته من نفي ما لم يجز. ثم إنك إن قلت صاحبة جازت أن تكون زوجة وجاز أن لا تكون.. أما إذا قلت زوجة لم يجز أن تكون خليلة، ولو قلت خليلة لم يجز أن تكون زوجة، والنفي حاصل فيها جميعا على الإطلاق والتنزيه فلذلك كان النفي على الصاحب الذي هو أقرب لينتفي به الأبعد. فرسمت الكلمة في القرآن بدون ألف.

فإن كنت بلغت المقصد، فستفقه كيف هي كتابة الصاحب في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2]. فإنه بيّن أن اثنين جمعهما الإيمان لا يفرقهما شيء، حتى ألف الخط.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾[3]. فإنه لما قال له: أكفرت.. تبين كفره فافترق جمعهما فكانت الصحبة صحبة لا بناء تقوم عليه. وعليه كتبت الكلمة بالألف.

وما يؤكد ما ذهبنا إليه، أنه في نفس سورة الكهف، وقبل ثلاث آيات فقط. قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾[4]. فكان أن لم يوجد أي سبب للتفريق، فكتبت الكلمة بدون ألف.

وفي كل ما آية تحتوي هذه الكلمة.. نتبيّن مدى كمال الرسم بكمال المعنى المراد منه، ومدى تطابق الرسم والمعنى[5].

---

[1] سورة الأنعام، السورة 6، الآية 101.

[2] سورة التوبة، السورة 9، الآية 40.

[3] سورة الكهف، السورة 18، الآية 37.

[4] سورة الكهف، السورة 18، الآية 34.

[5] فلو تأملت مثلا كلمة شاهد ي القرآن، لعلمت أنها رسمت وفق هجاء القرآن على نحوين.. بالألف وبدونها. ومستقرئ الآيات السبعة التي وردت فيها كلمة شاهد في القرآن.. يلاحظ أن اختلاف رسم الكلمة جاء ليؤكد معنًى هو أنه متى خص النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالشهادة كتبت الكلمة بدون الألف.. ومتى عني بها غيره كتبت بالألف.

الفصل الثاني: في تثوير القرآن واستنباط مسائله

هل يجوز لنا أن نسأل القرآن، مادام يحتوي كل العلم ؟

لكي نستطيع الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نعرف شيئا عن طبيعة الطرح القرآني للحقائق العلمية، وعن المجالات التي يمكن أن ندركها من هذا الطرح، والحدود التي نبلغها منه، وعن صفة الطرح من حيث هو تفصيلي أو موجز، وهل يمكننا معرفة كل هذه التفاصيل التي يقدمها ؟ وعن درجة هذا الطرح من حيث هو سنام ما يمكننا معرفته و إدراكه بالعقل، أو هو بداية ما يمكن إدراكه ؟

والحق أننا إذ نستعرض آيات القرآن، نرى كثيرا من الإجابات الصريحة عن كل هذه الأسئلة، ولعلنا نقف أمام سؤال كبير ومهم، هو: هل يستطيع العقل البشري أن يعلم كل دلالات القرآن ؟ ولعلنا لا نكذب إذا قلنا أن العقل المجرد عن الحق، الموجه بالهوى، مستعد للبرهنة على كل ما نريد البرهنة عليه، وهو يستطيع أن يجد لكل حجة حجة تدحضها. وهو بهذا يمكن له أن يشكك في كل شيء، وأن يزعزع كل معارفنا. فإن ركبنا بهذا العقل مجردا بحر القرآن فلن نظفر من القرآن إلا بظاهره، و تسنى لنا وقتها أن نصف القرآن بما تأكد لنا فهمه منه. فإن وجهنا العقل بهذا الحق، الذي هو القرآن، كان كالشعلة المضيئة، تكشف له ما احتجب من عجائب الدلالات في آي القرآن، وارتقينا وقتها من مستوى النظر اللغوي والدلالي الظاهر إلى مستوى النظر الحركي الكامن، فيضمها إلى ما حصل من معرفة، ولا يتسنى له أن يصف القرآن إلا بما وصف القرآن نفسه به، وجاز لهذا العقل أن يسأل القرآن، وأن يظفر بقدره من دقيق الجواب.

ولابد، في هذا كله، من استحضار واستصحاب المشاكل التي نريد عرضها على القرآن لنسأله عنها ونتحاور معه بشأنها. ومن مستلزمات ذلك أن تكون نصوص القرآن ومشاهده قادرة على توليد نماذج معرفية تبين للإنسان الحقيقة اليقينية وتهديه للتي هي أقوم، وهي كذلك، فهو المنزل بعلم الله. وقد نهتدي إلى هذه النماذج بعمليتي الاستنطاق والتثوير (التدبر والترتيل).

ومعنى التثوير، في اللغة، التهييج وإظهار الباطن، نقول: ثار الدخان والغبار وغيرهما، يثور ثورًا وثورانًا: ظهر وسطع. وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾[1]، أي قلبوها للزراعة والحرث، وفي الحديث، كما في الصحيحين، جاءه رجل من أهل نجد ثائر الرأس يسأله الإيمان، أي منتشر شعر الرأس، وكل ما استخرجته أو هجته، فقد أثرته. وثوَّرتُ الأمر: بحثته، وثوَّر القرآن: بحث عن معانيه وعن علمه ومقاصده.

يقول الإمام علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه: ذلك القرآن فاستنطقوه[2].

---

[1] سورة الروم، السورة 30، الآية 9.

[2] نهج البلاغة، الخطبة (158).

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين[1].
وقد وردَ بألفاظٍ متعددةٍ منها: من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن، وفي رواية: ثوروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين[2].

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام الله.

قال الطبري: وأعجب ممن لا يفهم معاني القرآن كيف يلتذ بقراءته.

قال القرطبي: تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء في تفسيره ومعانيه.

قال ابن عطية: وتثوير القرآن: مناقشته ومدارسته والبحث فيه، وهو ما يعرف به.

قال ابن تيمية رحمه الله: ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله،وتدبَّره بقلبه؛ وجد فيه من الفهم والحلاوة، والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره.

قال الغزالي: التثوير التفهُّم، وهو أن يستوضح كل آية ما يليق بها إذ القرآن مشتمل على ذكر صفات الله تعالى، وذكر أفعاله، وذكر أحوال أنبيائه عليهم السلام، وذكر أحوال المكذّبين، وكيف أُهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

ونقل الزركشي عن بعض العلماء أن التثوير لَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تَفْسِيرِ الظَّاهِرِ.

قال ابن عجيبة في تفسيره بقوله: فدرجات القرآن ثلاث: أدناها: أن يُقدر العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفا بين يديه فيكون حاله السؤال والتملق ثانيها: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه ويُناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته بل يكون مقصور الهم على المتكلم مستغرقا في شهوده وهذه درجة المقربين وما قبلها درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجة الغافلين.

وعن الدرجة العليا أخبر جعفر الصادق رحمه الله بقوله: والله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون.

---

[1] أخرجه ابن المبارك في الزهد، رقم (٨١٤)، والفريابي في فضائل القرآن، رقم (٧٨)، و أبو عبيد في فضائل القرآن، رقم (٨٠). و ابن أبي شيبة، رقم (١٠٠٦٧).

[2] أخرجه الطبراني في الكبير (٩ / ١٤٦)، رقم (٨٦٦٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧ / ١٦٨)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح. وأخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد رقم (٥٣٢) والطبراني أيضا (٩ / ١٤٦)، رقم (٨٦٦٦)

قال بعض الحكماء: كنت أقرأ القرآن ولا أجد حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ثم رُفعت إلى مقام كأني أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه.

وإنما كان تدبر القرآن والنظر فيه وتثويره واستنطاقه إحياء للقلب ورفعا للغشاوة عنه وصقلا له من صديد الذنب، حتى تفتح أقفاله، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

وإنما كان ذاك الأمر حتى لا يهجر الناس القرآن فيصيبهم ما أصاب أهل الغفلة. وإنما لهجر القرآن صور وأمثلة:

الأول: هجر تلاوته.

الثاني: هجر التفكر فيه والتذاكر في معانيه ومقاصده ومراميه، والإشتغال بالحروف والألفاظ، عن المعاني والغايات.

والثالث: هجر الغفلة، بأن يكون كل اهتمامنا فيه بآيات الأحكام، فنغفل عن الاشتغال بآيات الأنفس والآفاق، ونحوهما.

والرابع: هجر التحريف، بتطويعه لأغراض عارضة، وإسقاط معانيه الأصلية الواسعة الشاملة على قضايا ظرفية آنية فانية، وتحريف مقاصده وفق ما تمليه الأهواء.

والتالي، العمل ببعض آيات الكتاب وترك العمل بالبعض الآخر، وهو ما وجب التنبيه منه والتذكير والنصح بعدم السقوط فيه، إذ السقوط فيه يوشك أن يكون كفرا، قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

فاستوجب كل ذلك الأمر النظر في القرآن وتدبره وتثويره للوقوف على ما فيه من هدى وعلم.

وقد كان الصحابة على علم جم بهذا القرآن، كونهم أول المتلقين عن النبي صلى الله عليه وسلم، حتى قال ابن عباس: لو أردت أن أملي وقر بعير على الفاتحة لفعلت. ومع ذلك فإنهم كانوا يعقدون المجالس لتدارسه.

عن ابن عباس قال كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله، فقال عمر: إنه من قد علمتم فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا

[1] سورة محمد، السورة 47، الآية 24.

[2] سورة البقرة، السورة 2، الآية 85.

ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[1]، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت: لا، قال: فما تقول ؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[2]، فقال: عمر ما أعلم منها إلا ما تقول.

قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ .:. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[3]، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا صلى السبحة وفرغ دخل مربدا له فأرسل فتيان له قد قرؤوا القرآن، منهم ابن عباس وابن أخي عيينة، قال : فيأتون فيقرؤون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة انصرف. قال فمروا بهذه الآية : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[4]، قال ابن زيد: وهؤلاء المجاهدون في سبيل الله فقال ابن عباس لبعض من كان إلى جنبه: اقتتل الرجلان ؟ فسمع عمر ما قال ؟ فقال: وأي شيء قلت ؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين. قال: ماذا قلت ؟ اقتتل الرجلان ؟ قال فلما رأى ذلك ابن عباس قال: أرى ههنا من إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم، قال هذا: وأنا أشتري نفسي. فقاتله ، فاقتتل الرجلان. فقال عمر: لله بلادك يا ابن عباس.

ومن شأنهم سؤال العلماء بالكتاب أهل الرسوخ عنه، ورد كلام بعضهم لبعض للوصول للمراد بالآية الكريمة، ومنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما أنا في الحجر جالس، أتاني رجل، فسألني عن العاديات ضبحا فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويوقدون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن العاديات فقال: هل سألت عنها أحدا قبلي ؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس فقال: هي الخيل حين تغير في سبيل الله. قال: فاذهب فادعه لي، قال: فلما وقف على رأسه، قال: تفتي الناس بلا علم لك، والله إن كانت أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف يكون العاديات ضبحا ؟ إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى، فأثرن به نقعا حين تطؤها بأخفافها وحوافرها. قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي.

---

[1] سورة النصر، السورة 110، الآية 1.

[2] سورة النصر، السورة 110، الآية 3.

[3] سورة البقرة، السورة 2، الآية 206.

[4] سورة البقرة، السورة 2، الآية 207.

وكانوا لا يتوقفون فقط عن تدبر القرآن وتثويره ومساءلته، بل يعقدون المجالس لسماعه طمأنة للقلب وتوليفا للنفوس.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يسمعون ويبكون.

وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود. وقال: مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك فقال: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا، أي لحسنته لك تحسينا. وقال صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم. وقال: الله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته، أذنا أي استماعا، كقوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[1]، ، أي استمعت. وقال صلى الله عليه وسلم: ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به. وقال: ليس منا من لم يتغن بالقرآن. ولهذا السماع من المواجيد العظيمة والأذواق الكريمة ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة ما لا يتسع له خطاب ولا يحويه كتاب كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان[2].

ولم تكن قراءة أبي موسى إلا قراءة عالم لعلماء يتفهمون عن طريق هذا السماع كلام ربهم سبحانه، وينزلونه على أدوائهم فتحدث الأثر المطلوب.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: استقرئوا القرآن من أربعة، فذكر ابن مسعود، وسالما مولى حذيفة ، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهم.

ثم إن استقراء القرآن واستنطاقه وتثويره يعد ضربا من ضروب التدبر: فهو ينطلق من كيفية قراءة الآية، ثم معرفة معناها على سبيل الإجمال، لكي لا يشذ فيأتي بما لا تدل الآية عليه بطريق من الطرق المعتبرة، لفظا ومعنى وإشارة وقياسا. ثم مساءلة الآية، وهي من أهم مراحل التثوير.

كيفية تثوير القرآن:

ومثاله: أن يسأل قارئ القرآن: ما فائدَةُ افتتاحِ أول كتابِ اللهِ سبحانه وتعالى بالحمدِ المطلقِ للهِ سبحانه وتعالى في قولِهِ تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

---

[1] سورة الإنشقاق، السورة 84، الآية 2.

[2] مجموع الفتاوي، ابن تيمية، الجزء العاشر، ص 81.

وما هي الآياتُ التي ورد فيها ذكر الحمدُ ؟

وما الفرق بين الحمد والشكر ؟

وما الأولى أن يبتدأ به ؟ الشكر أم الحمد ؟

وما هي مساقاتُ الحمدِ ؟

ثم لماذا قدم الله ذكر الرحمة على ذكر ملكه ليوم الدين ؟

ولماذا سبقت إياك، قوله نعبد وقوله نستعين ؟

ولماذا يدعو المرء بلفظ الجمع اهدنا ؟

وما الصراط المستقيم، وما صفات أهله ؟

فإذا وقف على مثل هذه الأسئلة، وجب عليه بعد ذلك الوقوف على أقوال العلماء ممن تكلم جوابا عما سأل، ومناقشتهم في تفسير الآيات الكريمة. فإن: المطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين.

ثم عليه بعد ذلك النظر في العلوم المتعلقة بالآية وبالسورة، وبحث ما يصح ان يستنبط منها استنطاقا.

ويرتبط الاستنطاق بالأسئلة الفقهية التشريعية أو القيمية الوجودية أو العلمية التجريبية أو العقلية الصورية، أما التثوير فمرتبط بحقل الدلالات والمعاني.

وتأتي أهمية ما أوردنا في هذا الباب، إلى ضرورة إعادة النظر في مناهج تدبر القرآن الكريم حتى تكون في مستوى الإجابة على تحديات الإنسان المعاصر، والذي بدأ يبحث في الدين عن معنى لحياته ووجهة لوجوده الذي أصبح مهددا بفعل النماذج التي تريد أن تفصله عن الله.

ولعلي أقدم لكم نموذجا في مساءلة القرآن، و هي وإن خص بها القرآن، فإننا تستوجب فريق بحث يجمع اللغويين بالعلميين :

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[2].

لماذا قال تعالى في الأولى: والتي ؟ وقال في الثانية: مريم ابنت عمران التي، فذكر اسمها ونسبتها ؟

---

[1] سورة الأنبياء، السورة 21، الآية 91.

[2] سورة التحريم، السورة 66، الآية 12.

لماذا كتبت ابنت بفتح التاء ؟ أم أن ذلك يعود إلى عدم اتقان كتاب الصحابة للكتابة كما يزعم البعض ؟

لماذا قال في الأولى ونفخنا فيها ؟ وقال في الثانية ونفخنا فيه ؟

لماذا قال من القانتين ولم يقل من القانتات.. وقد تقول أن القانتين تجمع الإثنين كما ذهب إلى ذلك الفخر الرازي.. فأي قرينة تدل على ذلك.

لماذا قال وجعلناها وابنها آية للعالمين ؟ فجعلهما آية واحدة ولم يجعلهما آيتين ؟

ثم ماذا ؟

انظروا معي إلى نفخ الروح كيف حدثنا عنه القرآن ؟

لما تحدث عن أبينا آدم قدم ذلك في آية واحدة من سورة الحجر و هي :

فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين..

وتكررت هذه الآية نفسها في سورة ص.

فما سر هذا التكرار ؟

لما تحدث عن نفخ الروح في الإنسان عموما صوره بآية واحدة وهي، قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[1].

و السؤال هنا :

ما معنى التسوية التي تحدث فيها عن آدم و التسوية التي تحدث فيها عن الإنسان في عمومه ؟ وهل بينهما فرق ؟

لماذا قال السمع مفردا و جمع الأبصار و الأفئدة ؟

ثم ماذا ؟

لماذا خص الله تعالى الحديث عن نفخ الروح لآدم بآية واحدة كررها مرتين.. فلما تحدث عن الإنسان في عمومه خصه بنفخة واحدة وآية واحدة.. فلما تحدث عن عيسى خصه بآيتين مختلفتين وعبارتين مختلفتين فقال نفخنا فيها و نفخنا فيه.. فهل النفخة الأولى هي ذاتها النفخة الثانية ؟

[1] سورة السجدة، السورة 32، الآيات 8 و9.

ثم لماذا قال مع آدم نفخت بضمير المتكلم المفرد. ومع الإنسان نفخ بضمير المفرد الغائب ومع عيسى نفخنا بضمير المتكلم الجمع ؟

ولعلنا نقف مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

إن المتأمل في الآية يرى وصفين وقف عندهما المفسرون بحثا عن الفائدة من ذكرهما:

الأول : قوله " في الأرض"

الثاني : قوله " بجناحيه"

وهذان الوصفان ضروريان في الآية لتؤدي الآية غرضها البياني المؤثر في النفس، وما كانت الآية لتؤدي الغرض بدونهما.

إنه التصوير القرآني البديعي الذي لا يقف بالنفس البشرية عند النص المكتوب بل ينقلها إلى تلك المشاهد الحية المتحركة على اختلاف أشكالها وألوانها في البيئات المختلفة على وجه الأرض وفي جو السماء.

وتأملوا الآية بدون هذين الوصفين : " وما من دابة ...ولا طائر إلا أمم أمثالكم" إنها جملة باردة ليس فيها حياة ولا حركة ، ليس فيها تصوير ولا خيال يحرك النفس ويشوقها ويدفعها للتفكر والتأمل ، وانظروا إلى قول الله تعالى، عن الطير: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[4].

ولنتأمل قوله تعالى: فِي جَوِّ السَّمَاءِ، وقوله تعالى: صَافَّاتٍ، وقوله تعالى: فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ. إنها تعطى الآية معاني زائدة مقصودة، وتصوير حي رائع، وتأثير في النفس ما كان له أن يكون لو لا وجوده.

ثم إن في قوله تعالى: يطير بجناحية، إشارة علمية إعجازية. وهذه أعلم مقدما أن هناك من سيعترض علي فيها ولكن لا يمنع ذلك من أقول ما ظهر لي في الآية.

---

[1] سورة الانعام، السورة 6، الآية 38.

[2] سورة النحل، السورة 16، الآية 79.

[3] سورة النور، السورة 24، الآية 41.

[4] سورة الملك، السورة 67، الآية 19.

أقول لو جاءت الآية بدون كلمة "جناحيه"، لربما جاء معترض في هذا الزمن وقال: هذه السماء مملوءة بالطائرات لا تطير بجناحيها، وإنما هي تطير بقوة دفع المحركات فهل هي أمم أمثالنا ؟

ثم إن هناك إشارة أخرى إلى أن الجناحين في الغالب ضرورة في الطيران.

فلو ساءلنا الآية هل كل ذو جناحين يطير ؟

ما سر الطيران بجناحين ؟

هل أن من لا جناح له يطير ؟

فكلمة بجناحين ضرورية جدا لإظهار كل هذا..

ولك أن تسأل عن القبض في قوله تعالى "و يقبضن ".

ولك أن تسأل عن سر قوله تعالى: ما يمسكهن إلا الله، حين قال تعالى : ألم يرو إلى الطير مسخرات في جو السماء، و سر قوله تعالى: ما يمسكهن إلا الرحمن ؟ لما قال جل جلاله: ألم يرو إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن.

ولك أن تسأل عن معنى قوله تعالى: جو السماء، وعن معنى قوله تعالى: فوقهم.

ولك أن تسأل عن قوله تعالى: في جو السماء، ولماذا لم تكن: في السماء؟ ولماذا قال تعالى في آخر الآية الأولى: إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، وقال تعالى في الثانية: إنه بكل شيء عليم، وما ارتباط عليم بذلك ؟ وما ارتباط الآية بالأول، وما ارتباط كل شيء بما سبقه ؟ وما ارتباط ذلك بالإيمان ؟

ولماذا بدأ الآيتين بقوله تعالى: ألم يروا ؟

وبدأ الثالثة بقوله تعالى: ألم تر ؟

ولسوف أتوقف معكم مع مثال ثالث:

يقول تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

فقد ذكر عدة الكفارة هنا بأنها عشرة أيام. لكن العجيب وصف العشرة بالكاملة.

[1] سورة البقرة، السورة 2، الآية 196.

وطبيعي أن يقف على هذه النقطة غير واحد من المفسرين، لكن ما أستغربه أنهم إذ لم يجدوا لذلك جوابا ما سكتوا. بل قال بعضهم أنها زيادة لفظ لا معنى له.

وطبيعي أن الحق غير ذلك. وأنه ما من لفظ إلا وفيه من الحكمة ما لا يمكن تخيله. وما كلامنا في تفسيره إلا شيء لا يعد من حقيقة معانيه.

ولعلي أنظر إلى الكلمة من زاوية رياضية بحتة. فإني لما قرأت قوله تعالى: ﴿ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾. تعجبت لأمرين:

الأول: أنه ذكر الثلاثة قبل السبعة، وصفهما 73، وهو عدد كلمات الآية.

والثاني: أن العشرة الكاملة في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، أشار إليها بتلك: يعني مجموع الثلاثة مع السبعة لا غيرها. لأن أي واحد منا قد يتساءل هل تكون العشرة كاملة إذا كانت ضعف الخمسة أو مجموع الواحد إلى التسعة أو الإثنين إلى الثمانية أو الاربعة إلى الستة. فالآية توضح ذلك أن وصف العشرة بالكمال لا يكون إلا جمعا للثلاثة مع السبعة.

إذن لماذا ؟

واضح أن هذه الجملة تقدم للعشرة خصائص ليست في غيرها من المجاميع.

وأول ما يتبين من الخصائص: أن حاصل ضرب السبعة في الثلاثة هو ضعف العشرة مضافا إلى الواحد.

وثانيها: أن العددين الثلاثة والسبعة أوليان. وصفهما يمينا وشمالا حاصلهما أوليان كذلك وهما 73 و37.

والسؤال هنا: كم من الأعداد تتميز بهذه الخصائص.

والجواب، وببرهنة يسيرة لمن أراد، أنه لا عدد له هذه الخصائص سوى العشرة.

فدل كل ذلك على أن وصف العشرة بأنها كاملة له مزيته وحكمته التي ما كان لأحد معرفتها في ذلك الزمن.

ولعلنا استنباطا نتساءل عن الأعداد التي تكون مجموع عددين أوليين، وصفهما يمينا ويسارا يكون أوليا كذلك. كم عددها ؟ وهل هي مجموعة نهائية أو لا نهائية ؟

وهل يمكن إيجاد صيغة موحدة نستطيع بها معرفة كل عنصر من تلك المجموعة ؟

وهل يمكن إنشاء عملية ثنائية تجعل من المجموعة زمرة جبرية ؟

وغيرها من الأسئلة المفتوحة التي يمكن أن تطرح. ولا جواب لها إلى حد الآن.

الخاتمة

الحمد لله بدءا وختاما. وصلى الله على سيدنا محمد النبي إيمانا وإسلاما. ولا حول ولا قوة إلا بالله توكلا واستسلاما.

وبعد،

فإن هذا القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى. وهو على تدبر من تدبره وتفسير من رام تفسير ألفاظه وشرح معاني آياته، يأتي يوم القيامة بكرا كأن لم يمس. وهو آخر كتاب يتلى، وآخر عهد بين الأرض والسماء، وآخر وحي يوحى.. من فاتته فرصته فقد خاب وخسر وانقطعت به السبل.

وهو باب الهدى وفيصل العلم وطريق الإيمان وسلامة العبادة وطيب المعاملات. وهو المعجز الذي امتنع عنه الاختلاف وامتنع عن الناس الإتيان بمثله أبدا.

وهو الحل المرتحل أبد الدهر في تلاوته وفي فهمه. فإنه كالبحر متجدد.

ولو حُدَّ معناه أو جاء بأسلوب واحد متضح لفهمه الأولون ولم يكن للمتأخرين فضل في تدبره، بل حظهم حينئذ منه التقليد. لكن مشيئة الله تعالى أن تتفاوت معاني عباراته وألفاظه فيفهمها كل أهل زمان لتجددها مع كل زمان. فما من أمر إلا ولله فيه حكم ولا مجال من مجالات الحياة إلا وفي القرآن له تغطية. وإنما يبقى في فهمه حظ يخص الله به بعض عباده دون بعض.

وقد اشتهر بين الناس كون القرآن معجزا. ولا يخفى على أحد أنه ما من قضية تشتهر بين الناس إلا ويقع فيها الاختلاف. وقد تفرق الناس حول قضية إعجاز القرآن إلى مؤيد وغالٍ ومنكر.

ولأن الغلو لما كان مرفوضا في الفروع، كان رفضه في الأصول أولى، أعرضت أن أتكلم في أثناء هذا البحث عن الغالين في مسألة إعجاز القرآن. واكتفيت بذكر المؤيدين والمنكرين.

وقد درج أغلب من كتب في إعجاز القرآن على تناول قضية المنكرين من خلال نقدهم المباشر بإظهار الإخلالات الواقعة في أقوالهم، أو تناولها من خلال الرد على الشبهات المثارة حول واقعية إعجاز القرآن.

وقد اخترت أن أذكر أقوال المنكرين وبسطها دون التدخل فيها، لكن في إطار يسمح للمطلع اكتشاف ضعفها وكثرة خللها ووهن بنائها.

كما ركزت على تقديم الأمثلة التي تشهد على واقع وجود الإعجاز القرآني.

وفي أثناء الكلام عن الإعجاز العلمي، فصلنا بعض ما يرتبط بالإعجاز اللغوي وإعجاز هجاء المصحف وإعجاز العدد وترتيب السور، وإعجاز التصوير في القرآن: من ذلك ما ذكرناه من ترابط التصوير القرآني في ضبط حركة الكون ومراحل خلقه مع تتابع الآيات القرآنية وترتيبها وتناسقها ومناسبتها.

ولابد لكل بحث مسبوق أن يقارن بما سُبِق. وقد ابتعدت ببحثي هذا عن تكرار ما كُتب حول الموضوع، وهو كثير، وحرصت أن أتحسس جديدا فيه يصلح أن ينظر في بعضه وتحريره تحريرا علميا مانعا.

وقد بينت بعض ما يثار حول الحقل الدلالي لكلمة (معجزة) من مسائل، منها:

- مسألة اللسان في القرآن. فقد درج الناس على وصف القرآن أنه باللغة العربية، ما يجرده من صفة العلم، والله تعالى يقول: فاعلموا أنما أنزل بعلم الله.
- مسألة الأمية في القرآن: فقد درج الناس على اعتبار الأمي من لا يقرأ ولا يكتب. فأنكر بعضهم بذلك أن يكون هجاء المصحف توقيفيا. فاجتهدوا أن يكتبوا المتون في الهجاء وحفظها وتحفيظها دون تدبر ذلك الهجاء نفسه، مع اتفاقهم حول ضرورة اتباعه وحِرمَة مناقضته. ومسألة الأمية في القرآن من المسائل التي يجب تحريرها واستبيان معانيها.
- مسألة العلم في القرآن: فإنه من الغريب أن يقسم الناس العلم إلى ديني ودنيوي، مع أن القرآن يجعله من الأعمال التعبدية. فلما كان كل عمل تعبدي يدور بين الأمر به والنهي عنه، وبين كونه حلالا أو حراما، ومستحق صاحبه للجزاء أو العقاب، كان العلم كذلك. ولذلك بين القرآن للناس ماذا يتعلمون وكيف يتعلمون ولماذا يتعلمون...

ثم إني في كل البحث، حرصت على استقراء نص القرآن. وكان منطلقي في الدليل على واقعية إعجاز القرآن من أمثلة، هي في الأصل استنباطات واستقراءات مباشرة، أو نقل دقيق عن بعض أستاذتي وزملائي في مجال إعجاز القرآن.

وإني أعترف بعجزي أمام عمق الموضوع وانبساط أرضه وبلوغها الأفق أمام ناظريَّ الصغيرتين. وإنه من العمق ما فاق جهدي أن أجمع كل ما يتعلق به في هذه الصفحات التي تسارعت خطوطها أمامي فلم ألحق بكثير من كلام كان في ذهني قوله، مع عزمي في البدء أن أكون لشتات الموضوع جامعا.

غير أني وأنا أكتب هذه الكلمات، أقيم الحجة على أن القرآن كلام الله. فإن الناس لا ينكرون قولا إلا إذا علموا أنهم يحسنون أصوب منه وأمتع وأروع وأجمل وأتقن.

وأعلم أن سيصوبني من يطلع على رسالتي هذه في كثير. وفوق كل ذي علم عليم. بل لو فُتِح للناس أن يأتوا بأحسن مما قدمت لأتى كثيرٌ بأحسن.

ومع ذلك فإنهم مع القرآن على ثلاث فرق:

- قوم نظروا في القرآن فوسعهم، وعلموا أن ما أشكل عليهم منه، إنما هو لحكمة غير معلومة، وأن لا طاقة لهم بتصحيح أو إتيان بأولى.
- وقوم نظروا في القرآن فوسعهم، وعلموا أن ما أشكل عليهم منه، إنما هو لحكمة وجب تدبرها واستبيانها، وأن لا طاقة لهم بتصحيح أو إتيان بأولى.
- وقوم نظروا في القرآن فأنكروه، وقالوا عنه بالشبه، فقيل لهم صححوه أو ائتوا بمثله فما استطاعوا ولا أقاموا دليلا عما قالوا.

فسبحان الذي جمع كتابه كل شيء، لا استثناء فيه لشيء، ولا استثناء فيه عن علم شيء، ولا استثناء فيه عن ذكر شيء.

اللهم أحسن ختامي.. ولا تخزني يوم العرض عليك.

الطالب: عمارة سعد شندول

المراجع

1- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى.

2- مختار الصحاح، زين الدين الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت — صيدا، الطبعة: الخامسة.

3- كتب السنة.

4- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، إمام الحرمين الجويني، تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، طبع بمطبعة السعادة — مصر — 1369 هـ — 1950م.

5- المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرءان الكريم ، للأستاذ عبدالله إبراهيم جلغوم، الصادر عن مركز تفسير للدراسات القرءانية –الرياض– السعودية، الطبعة الأولي 1436 هـ 2015 م.

6- صفوة التفاسير ، الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع– القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م.

7- فتح القدير ، للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب دمشق، بيروت، الطبعة 1، 1414هـ..

8- تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الكتاب مرقم آليا.

9- معالم التنزيل، البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1417 هـ - 1997 م.

10- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار النشر– دار القلم ـ دمشق.

11- درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م.

12- جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ - 2000 م.

13- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى 1420هـ -2000 م.

14- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة، 2001م.

15- معجم المصطلحات الفلسفية (النسخة الالكترونية).

16- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، فخر الدين الرازي.

17- أبكار الأفكار، سيف الدين الآمدي , مطبعة دار الكتب والوثائق القومية , الطبعة 2.

18- جمع الجوامع، تاج الدين السبكي, دار الكتب العلمية, الطبعة 2.

19- البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، دار الكتبي، الطبعة الأولى، 1994م.

20- كتاب المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، جورج طرابيشي، دار الساقي.

21- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، دار صادر- بيروت.

22- جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني- مطبعة الملاح- مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، 1969م.

23- فتح المنان، الدارمي، دار البشائر الإسلامية-بيروت-المكتبة المكية-مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1999م.

24- نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي-محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، تحقيق: محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء.

25- شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية.

26- تاريخ القرآن الكريم، محمد طاهر الخطاط، ملتزم بطبعه: مصطفى محمد يغمور، مطبعة الفتح بجدة- الحجاز، 1946م.

27- جمهرة اللغة، ابن دريد، موقع الوراق.

28- مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، 2002م.

29- كتاب العين، الفراهيدي، تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

30- انظر الموشح، للمرزباني، ط . السلفية 1385 هـ.

31- الأدب الأندلسي، للدكتور منجد مصطفى بهجت.

32- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، محمود عباس العَقّاد.

33- الجارميات، علي الجارم.

34- معارضات البارودي في ضوء الدراسات النقدية الحديثة، لمحمد فتّوح أحمد.

35- الكامل في التاريخ، الشيباني، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة 2، 1415هـ.

36- أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام- القاهرة، الطبعة 2، 1396هـ.

37- جامع البيان، الطبري، دار المعارف.

38- الدرّ المنثور، السيوطي، دار الفكر-بيروت، طبعة 1993م.

39- تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة 1، 1407هـ.

40- الكامل، الشيباني.

41- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الأولى، 1965م.

42- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جواد علي، دار الساقي، الطبعة 4، 2001م.

43- كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، تحقيق : علي حسين البواب، دار الوطن – الرياض – 1418هـ - 1997م.

44- سيف الله: خالد بن الوليد، تركي بن الحسن الدهماني، أمواج للنشر والتوزيع.

45- آثار البلاد، القزويني.

46- السيرة النبوية، لابن هشام.

47- كتاب الأغاني، للأصفهاني، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وآخرون، القاهرة: دار الكتب، 1932-1959م.

48- التاريخ الكبير، البخاري، دار الفكر، تحقيق: هاشم الندوي، بلا سنة نشر ولا رقم طبعة.

49- المنتظم، ابن الجوزي.

50- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، دراسة وتحقيق عادل أحمد، والشيخ علي معوض، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة 2، 2002م.

51- فتوح البلدان، البلاذري، دار ومكتبة الهلال- بيروت، 1988م.

52- سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م.

53- رسالة الغفران، المعري، تحقيق وشرح: محمد عزّت نصر الله، المكتبة الثقافية-بيروت، د.ط و د.ت.

54- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، العباسي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب-بيروت، الطبعة1، 1367هـ.

55- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الاولى، 1988م

56- مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات باشا، العدد 48.

57- تاريخ بغداد، البغدادي، دار الكتب العلمية-بيروت، د.ط ود.ت.

58- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، 2010م.

59- بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن أبي جرادة، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر-بيروت، الطبعة 1، 1988م.

60- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت، الطبعة 1، 1994م.

61- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، تحقيق: محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة1، 1986م.

62- الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، المعري.

63- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت، الطبعة 1، 1994م.

64- عيون الأخبار، ابن قتيبة، موقع الوراق.

65- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت، الطبعة 1، 1994م.

66- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ.

67- إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف-مصر، الطبعة5، 1997م.

68- الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن القفع، دار صادر-مصر.

69- تاريخ آداب العرب، الرافعي، دار الكتاب العربي.

70- المقدمة، ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر-بيروت، الطبعة الثانية، 1988م.

71- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.

72- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ، 1996م.

73- كتاب الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، كود المادة: IUQR3213،المرحلة: بكالوريوس، مناهج جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة العالمية.

74- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، بنت الشاطئ، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

75- الإلهيات، السبحاني، نسخة إلكترونية.

76- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1982م.

77- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة، 1990م.

78- تقريب المعارف، تقي الدين الحلبي، تحقيق: فارس تبريزيان الحسون.

79- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.

80- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، البغدادي، دار الآفاق الجديدة-بيروت، الطبعة الثانية، 1977م.

81- الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط : مصطفى الحلبي ، 1396 هـ . 1976م.

82- حجج النبوة، الجاحظ، رسائل الجاحظ.

83- المناسبات في القرآن الكريم ودراسة تطبيقية في سورتي الفاتحة والبقرة من تفسيرالفخر الرازي، رسالة ماستر، فرع الكتاب والسنة، الطالب عبد الله بن مقبل القرني، 1413هـ، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة-الدراسات العليا.

84- مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية-بيروت، 2004م.

85- اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، أحمد بن الحسين الهاروني.

86- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي،دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة الثانية، 1973م.

87- أسباب نزول القرآن، الواحدي، تحقيق: عصام الحميدان، دار الإصلاح-الدمام، الطبعة الثانية، 1992م.

88- أحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة 3، 2003م.

89- المعجم الأوسط، الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين القاهرة.

90- هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، ابن حجر، تحقيق: علي بن حسن عبد الحميد الحلبي، دار ابن القيم، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.

91- تفسير القرآن، السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ- 1997م.

92- مدخل إلى تركيب الذرة وعلم المواد، من كتاب علم المواد، ميكانيكا انتاج، 114 ميك، الإدارة العامة لتطوير وتصميم المناهج، المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، المملكة العربية السعودية.

93- كتاب علم الخلية، أيمن الشربيني، الطبعة الأولى، 2009، الترقيم الدولي: 0 – 159 – 383 – 977..

94- الجامع لاحكام القرآن، القرطبي، دار الفكر.

95- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة 3، 1407هـ.

96- فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية، الشوكاني، دار المعرفة، 2004م.

97- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964 م.

98- مجلة آفاق العلم، العدد 8، جوان 2006م.

99- مجلة آفاق العلم، العدد الأول، نوفمبر 2005م.

100- تلقي النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام المجيدي، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم في أمدرمان بالسودان، 1999م.

101- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، الطبعة 1420هـ.

102- تفسير النسفي-مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1998م.

103- مجموع الفتاوي، ابن تيمية.

الفهرس

المقدمة..... 1

أسباب اختيار الموضوع..... 1

أهمية البحث 3

أهداف البحث..... 3

الدراسات السابقة 4

منهج البحث 4

خطة البحث..... 5

التمهيد 7

في معنى المعجزة:..... 7

الآية:..... 16

البرهان: 21

الدليل:..... 23

الحجة:..... 24

السلطان:..... 26

الباب الأول: في نشأة مصطلح إعجاز القرآن أو معجزة القرآن..... 28

الفصل الأول: تاريخ فكرة الإعجاز القرآني :..... 28

الفصل الثاني: هل الإعجاز وسيلة لمعرفة الحق والهداية :..... 35

لمن تصرف الآيات ؟..... 39

الغاية من الآيات: 41

رد الناس على الرسل:..... 43

أين تظهر الآيات ؟ 45
هل أثبت القرآن ما يخرق العادة ويعجز العباد؟ 47
هل المعجزات المادية الواقعة في القران الكريم تفعلها الطبيعة بواسطة أسباب؟ 48
هل يمكن الاستغناء عن الأسباب للوصول لتلك الغايات المعجزات ؟ 48
مدى ارتباط الإيمان بالمعجزة 49
الباب الثاني: إنكار الإعجاز: 52
الفصل الأول: وصف القرآن: 52
نسبة القرآن: 55
كيف وصف النبي صلى الله عليه وسلم القرآن: 59
كيف وصف الصحابة رضي الله عنهم القرآن: 61
كيف وصف القرآن غيرهم: 64
الفصل الثاني: معنى المعارضة: 67
معنى المعارضة لغة: 67
المعارضة اصطلاحا: 69
الفصل الثالث: المعارضون: 73
النضر بن الحارث: 74
مسيلمة الكذاب: 75
عبد الله بن أبي السرح: 77
سجاح : 78
ابن الراوندي: 79
عبد الكريم بن أبي العوجاء: 81
المتنبي: 82

المعرّي: 83
ناصر الدين الظافر: 86
حميد الأزهري: 86
أنيس شوروش: 86
الفصل الرابع: المتهمون بالمعارضة: 87
ابن المقَفَّع: 88
الكندي: 90
الفصل الخامس: الصرفة: 91
الباب الثالث: في فهم معنى لسان القرآن: 98
الفصل الأول: في علاقة القرآن باللغة: 98
الفصل الثاني: في علاقة القرآن بالعلم: 104
الفصل الثالث: هل القرآن كتاب علم ؟ 110
البيان في القرآن الكريم 112
التفصيل 113
التفسير 114
النظام 115
الشمول و الحاكمية 115
الدين و العلم توأمان 116
علم الكتاب و علم الأسباب 117
ما فرطنا في الكتاب من شيء 117
الفصل الرابع: تاريخ الأنبياء و تاريخ العلم 119
أسس علم صناعة السفن و الديناميكا 120
علم الفلك 120

علم الحياة..... 121
علم تحريك الأشياء 121
علم الكيمياء..... 121
علم صناعة الحديد..... 121
الباب الرابع: في تحدي القرآن:..... 122
الفصل الأول: وجوه التحدي في القرآن:..... 122
الفصل الثاني: وجوه التحدي بالقرآن:..... 131
الفصل الثالث: من هم الذين تحداهم القرآن ؟..... 132
تعقيب حول مسألة التحدي:..... 133
الباب الخامس: في إعجاز القرآن:..... 137
الفصل الأول: في السؤال، لماذا لم يكتشف المسلمون ما بث في القرآن من دقيق العلم ؟..... 137
الفصل الثاني: في التوجيه العلمي للقرآن:..... 139
الباب السادس: أمثلة من إعجاز القرآن..... 141
الفصل الأول: في إظهار التوافق الدقيق بين القرآن وحقائق العلم اليقينية:..... 141
المثال الأول: دراسة سورة الإخلاص:..... 141
أسباب نزول السورة :..... 141
الحكم المستنبطة من تعدد أسباب نزول السورة : 142
في الفرق بين السؤال والجواب : 146
في كون المادة محكومة بالعدد :..... 148
في معنى الصمد وبيان خصائص المادة :..... 149
في معنى لم يلد ولم يولد وبيان خصائص المادة : 152
في معنى ولم يكن له كفؤا أحد وبيان خصائص المادة : 152
الجانب اللغوي في السورة : 153

لماذا بدأت السورة بـ"قل" : 153
لماذا أردف القول بضمير الغائب "هو" : 153
في شبهة أن "قل" خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم :..... 153
لماذا ذكر اسمه الله : 154
في الفرق بين الأحد والواحد : 154
لماذا تكرر لفظ "الله" ؟..... 155
لماذا أتت "أحد" نكرة و"الصمد" معرفة : 155
لماذا بدأت السورة بـ"الأحدية" وانتهت بها : 156
الجانب العددي في السورة :..... 156
بين يدي السورة : 156
وجوه الإحكام العددي في السورة : 157
لطائف عامة : 157
موقع ترتيب السورة وعلاقته بعدد السور في القرآن:..... 157
الكسرة اليتيمة في السورة : 157
السور التي تلي الإخلاص :..... 158
السور التي بدأت بـ"قل" : 158
سورة الإخلاص وسور الفواتح :..... 159
عدد تكرار حرف اللام في السورة :..... 159
عدد حروف الآيات والسور الموافقة لها ترتيبا : 160
علاقة سورة الإخلاص بالسورة رقم 15 : 160
علاقة سورة الإخلاص بالسورة رقم 47 : 161

علاقة سورة الإخلاص بسورة آل عمران : 161
علاقة سورة الإخلاص بسورة الرحمن : 161
المثال الثاني: وقفات مع قوله تعالى: فمحونا آية الليل:..... 161
وقفات حول ما قاله المفسرون و آرائهم : 164
حول الوجوه اللغوية و الدلالية في الآية : 164
الليل : بين الظل الممتد و المادة المخلوقة : 166
السنين و الحساب : الأيام و الشهور و حكاية السنين الضوئية : 171
التفسير العلمي : 172
من أي شيء يتركب الكون ؟..... 172
أدلة وجود المادة المظلمة : 177
مم تتكون المادة المظلمة :..... 180
أقوال العلماء :..... 180
الخلاصة : 182
المثال الثالث: الإعجاز العددي في ترتيب سور القرآن 182
نظام ترتيب السور بحسب أعداد الآيات: 196
قسمة الأعداد المستخدمة أعدادا للآيات بين نصفي القرآن الكريم: 206
نظام الحالات الأربعة لسور القرآن الكريم:..... 213
سور القرآن فردية الآيات: 214
سور القرآن زوجية الآيات: 215
الإحصاء القرآني:..... 215
مواقع ترتيب سور القرآن:..... 217
السور المتجانسة والسور غير المتجانسة:..... 218

السور المتجانسة وغير المتجانسة بين نصفي القرآن: 221
ترتيب السور زوجية الآيات في نصفي القرآن:..... 221
سر تجميع السور القصيرة في نهاية المصحف: 222
المثال الرابع: الإعجاز في رسم القرآن..... 224
مسألة رسم القرآن: 225
كلمة صاحب في القرآن:..... 244
الفصل الثاني: في تثوير القرآن واستنباط مسائله..... 247
هل يجوز لنا أن نسأل القرآن، مادام يحتوي كل العلم ؟..... 247
كيفية تثوير القرآن: 251
الخاتمة..... 258
المراجع 261
الفهرس..... 268